

أسبوع
الفقاهة
والمقاومة

أسبوع من نقاشات و مقاومات



معرفة العقيدة

بمناجاة القائد آية الله المجاهد الشيخ عيسى أحمد قاسم

(دام عزه)

المؤتمر الدولي لتكريم شخصية سماحة آية الله المجاهد الشيخ عيسى أحمد قاسم

(دام عزه)

همایش بین المللی نکوداشت حضرت آیت الله شیخ عیسی احمد قاسم

جائزة المصطفى العالمية : 4 | :
جهازين دوره ي جائزة ي جهاني المصطفى

دار الفقيه المقاوم
يخطو وكثيرا آية الله قاسم

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٥م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفهرست

الفهرست	٥
المقدمة	١٥

الباب الأول: معرفةُ الله تعالى

المقدمة	١٨
أهمية البحث	١٨
منهجية البحث	١٨
المعرفة القطعية والاحتمالية	١٩
الفصل الأول: أهمية معرفة الله تعالى	٢١
الفصل الثاني: أنواع معرفة الله تعالى	٢٣
الفصل الثالث: الحاجة إلى معرفة الله تعالى	٣١
الحاجة الأولى: طمأنينة الإنسان	٣١
الحاجة الثانية: الاهتداء إلى الغاية	٣٢
الحاجة الثالثة: معرفة الطريق	٣٣
الحاجة الرابعة: حاجة الحياة الحاضرة	٣٤
الحاجة الخامسة: درأ الظلم والعدوانية والفساد	٣٥
الفصل الرابع: تغيير المعرفة صعودياً ونزولياً	٣٧
الأمر الأول: طرق نماء الإيمان وانحداره	٣٩
أولاً: طرق نماء الإيمان	٣٩
الطريق الأول: التقوى	٣٩



٤٠	الطريق الثاني: الأخذ بهدى الثقلين
٤١	الطريق الثالث: الالتزام بمقتضى الإيمان
٤١	ثانياً: "طرق انحسار الإيمان، وتضاؤله، وغيوبته، وسباته:
٤٥	الأمر الثاني: حَكَمُ الإيمان
٤٧	الفصل الخامس: طرق معرفة الله تعالى
٤٨	الطريق الأول: الفطرة
٤٩	الموارد التي فطر الإنسان عليها
٥٨	أقسام الفطرة
٥٩	الفطرة أساس قاعدة البناء
٦٠	أدلة فطرية الإيمان بالله وتوحيده
٦٥	شرط صيانة الفطرة
٦٦	أسباب الكفر
٦٦	السبب الأول: ارتكاب المعاصي
٦٨	السبب الثاني: ارتكاب الظلم
٦٨	السبب الثالث: التكبر بغير الحق
٦٩	موقفات الفطرة:
٦٩	العامل الأول: التعصي على المشاريع الظالمة
٦٩	العامل الثاني: التأمل في تجلّي الخلق بالحق
٧١	العامل الثالث: مراجعة البداية والنهاية
٧٦	العامل الرابع: التدبّر في قانون الزوجية
٧٩	العامل الخامس: النظر في هدايات الإيمان
٨٣	العامل السادس: نزول الشدائد
٨٥	الطريق الثاني: العقل الاستدلالي
٨٦	الدليل الأول: النظم



٩١	الدليل الثاني: استحالة وجود المعلول بلا علة.....
٩٥	الدليل الثالث: الحدوث والفقر.....
١٠٢	الطريق الثالث: معرفة النفس.....
١٠٧	الطريق الرابع: تزكية النفس.....
١١٠	طرق تزكية النفس.....
١١٨	الطريق الخامس: التجلي النوراني.....
١٢٠	الأول: تجلي الذاتية.....
١٢١	الثاني: تجلي الخالقية.....
١٢٢	الثالث: تجلي الربوبية.....
١٢٨	الرابع: تجلي التشريع.....
١٢٩	الطريق السادس: العلم النافع.....
١٣٣	الفصل السادس: آثار معرفة الله تعالى.....
١٣٣	١- محبته سبحانه.....
١٣٤	٢- خشيته جل وعز.....
١٣٥	٣- شدة الرجاء.....
١٣٥	٤- طاعته سبحانه.....
١٣٦	٥- التحرر من الدنيا.....
١٣٨	٦- الشعور بالغنى والكرامة.....
١٣٩	٧- التسليم لقضاء الله والرضا به.....
١٤١	٨- استبشار الوجه وحزن القلب.....
١٤٢	٩- التعلق بالدعاء وكثرته.....
١٤٣	١٠- الأنس بالله تعالى.....
١٤٥	الفصل السابع: الولاية التكوينية.....
١٤٥	معنى الولاية التكوينية.....



١٤٧	أقسام الولاية التكوينية.....
١٤٧	القسم الأول: الولاية التكوينية الشاملة الأصل.....
١٥٠	الولاية التكوينية قاعدة الولاية التشريعية:.....
١٥١	سبب الولاية التكوينية.....
١٥٥	الفصل التاسع: العدل.....
١٥٥	حقائق العدل.....
١٥٦	أهمية العدل.....
١٥٩	موارد العدل المعدول عنه.....
١٦٠	العدل أمرٌ مطلوب.....

الباب الثاني: معرفة النبوة

١٦٣	الفصل الأول: معنى النبي.....
١٦٣	معنى النبي.....
١٦٣	عدد الأنبياء.....
١٦٥	الفصل الثاني: حاجة البشرية إلى النبوة.....
١٦٩	الفصل الثالث: أهداف النبوة.....
١٦٩	(الأمر الأول): الأهداف الأساسية.....
١٦٩	الهدف الأول: إتمام الحجة لله على عباده.....
١٧٠	الهدف الثاني: التوحيد العام الخالص.....
١٧٢	(الأمر الثاني): الأهداف المنبثقة من التوحيد.....
١٧٢	١. تعليم الكتاب والحكمة.....
١٧٣	٢. وضع الإصر والأغلال.....
١٧٤	٣. تزكية الأخلاق.....
١٧٤	٤. رفع الاختلاف.....



١٧٥	٥. قيام النَّاس بالقسط
١٧٧	(الأمر الثالث): الهدف الأعلى
١٨١	الفصل الرابع: مثبت النبوة
١٨١	المثبت الأول: المعجز
١٨١	معنى المعجز
١٨٢	معنى المعجز المثبت
١٨٢	معجزة القرآن الكريم
١٨٤	سلامة القرآن من بروز صورة الإنسان في سطره
١٨٤	شموخ المضمون القرآني
١٨٦	المثبت الثاني: سيرته ﷺ
١٨٩	الفصل الخامس: وجوه إعجازية القرآن
١٨٩	الوجه الأول: تحدي كل البشر
١٩٠	الوجه الثاني: تحدي الأخبار الغيبية
١٩٢	الوجه الثالث: الحقائق العلمية
١٩٤	أمثلة من الحقائق العلمية في القرآن
١٩٤	المثال الأول
١٩٥	المثال الثاني
١٩٦	المثال الثالث
١٩٧	المثال الرابع
١٩٩	الفصل السادس: شروط النبوة وإن توفرت المعجزة
٢٠٣	الفصل السابع: تساؤلات حول الإعجاز والمعجز
٢٠٣	التساؤل الأول
٢٠٦	التساؤل الثاني
٢٠٩	التساؤل الثالث



٢١٠	التساؤل الرابع.....
٢١٣	الفصل الثامن: العصمة.....
٢١٣	الأمر الأول: معنى العصمة.....
٢١٣	أولاً: معنى العصمة في اللغة.....
٢١٣	ثانياً: معنى عصمة النبي واجبة.....
٢١٤	ثالثاً: معنى عصمة الله للنبي.....
٢١٤	الأمر الثاني: مجالات العصمة.....
٢١٥	الأمر الثالث: الدليل على العصمة.....
٢١٥	أ- الدليل العقلي.....
٢١٧	ب- الدليل النقلی.....
٢٢٣	الأمر الرابع: العصمة نسبية ومطلقة.....
٢٢٤	الأمر الخامس: متعلق العصمة.....
٢٢٥	الأمر السادس: عوامل العصمة.....
٢٢٨	الأمر السابع: مرتكزات لدفع الشبهات حول العصمة.....
٢٣١	الأمر الثامن: شبهات ودفع.....
٢٣١	الشبهة الأولى.....
٢٣٢	الشبهة الثانية.....
٢٣٣	الشبهة الثالثة.....

الباب الثالث: معرفة الإمامة

٢٣٧	المقدمة.....
٢٣٩	الفصل الأول: غاية الإمامة كمال الإنسان.....
٢٤١	الفصل الثاني: الإمامة أصل من أصول الإسلام.....
٢٤٣	الفصل الثالث: الحاجة إلى الإمامة.....



٢٤٤	الحاجة الأولى: ضمان بقاء الإسلام.....
٢٤٤	الحاجة الثانية: إتمام الرسالة.....
٢٤٦	الحاجة الثالثة: قيادة حركة الحياة.....
٢٤٦	الحاجة الرابعة: فتح بركات السماء.....
٢٤٨	الحاجة الخامسة: تحرير العالم من أزماته.....
٢٥١	الفصل الرابع: أدلة الإمامة.....
٢٥١	أولاً: أن الأئمة عليهم السلام مصداق ورثة الكتاب.....
٢٥٤	ثانياً: اصطفاء الإمامة من الله تعالى.....
٢٥٦	ثالثاً: نصوص كثيرة.....
٢٥٨	رابعاً: روايات وجوب معرفة إمام الزمان.....
٢٦٣	الفصل الخامس: شروط الإمامة.....
٢٦٥	الفصل السادس: صفات الإمام.....
٢٦٥	الصفة الأولى: قرآن ناطق.....
٢٦٦	الصفة الثانية: شدة في ذات الله تعالى.....
٢٦٧	الصفة الثالثة: دين حق خالص.....
٢٦٩	الفصل السابع: وظيفة الإمام الشرعي.....
٢٧١	الفصل الثامن: متطلبات وظيفة الإمامة.....
٢٧٣	الفصل التاسع: انعكاسات الالتزام بخط الإمامة.....

الباب الرابع: معرفة الآخرة

٢٧٩	الفصل الأول: الموت.....
٢٧٩	معنى الموت.....
٢٨١	كيف يكون موت المؤمن؟.....
٢٨٥	كيف يكون موت الكافر؟.....

٢٨٧	الاستعداد للموت
٢٩٣	الفصل الثاني: حياة البرزخ (القبر).....
٢٩٣	ابتداء الآخرة
٢٩٣	معنى البرزخ.....
٢٩٤	أدلة البرزخ
٢٩٥	ومن الحديث في قضية البرزخ.....
٢٩٧	القبر أول موقف من مواقف الآخرة
٣٠٢	الاستعداد للقبر
٣٠٤	سؤال القبر
٣٠٧	جواب القبر
٣٠٩	ما ينفع القبر
٣١٠	ما يصل القبر
٣١٠	حياة القبر ولذائذه
٣١٣	الفصل الثالث: النّفخ في الصّور
٣١٣	نفختان في الصور
٣١٩	الفصل الرابع: المعاد
٣١٩	معنى المعاد
٣٢٠	المعاد أصل إسلامي
٣٢٠	دواعي النّظر في أمر المعاد.....
٣٢٢	مناشئ الموقف السّلبى من المعاد.....
٣٢٢	١. منشأ عدم القدرة.....
٣٢٩	٢- منشأ احتمالية العبثية في الخلق.....
٣٣٤	متطلبات عقيدة المعاد.....
٣٣٤	المطلب الأول: أجواء نفسية وروحية غير طاردة.....



المطلب الثاني: الإقبال على المعاد.....	٣٣٦
المطلب الثالث: تقليل الانغماس في المادة.....	٣٣٧
المطلب الرابع: أرضية من الإيمان بالعدل الإلهي.....	٣٤٠
أدلة المعاد.....	٣٤١
تجليات المعاد.....	٣٤٦
١- تجلّي التفرد البشري.....	٣٤٦
٢- تجلّي الفقر الإنساني.....	٣٤٧
٣- تجلّي الحشر الأعظم.....	٣٤٨
٤- تجلّي العدل الأكبر.....	٣٤٨
٥- تجلّي عزّة الإيمان.....	٣٤٩
٦- تجلّي القضاء الحقّ.....	٣٥١
[أ-] يوم الأشهاد.....	٣٥٤
[ب-] الشهادة على الأمم.....	٣٥٢
[ج-] شهود يوم القيامة.....	٣٥٢
آثار عقيدة المعاد.....	٣٥٦
حياة المعاد ولذائدها.....	٣٥٨
الفصل الخامس: الشّفاة.....	٣٦٣
معنى الشّفاة.....	٣٦٣
أركان الشّفاة.....	٣٦٣
أسباب قبول الشّفاة.....	٣٦٤
١. الرجاء.....	٣٦٤
٢. الخوف.....	٣٦٥
٣. الحب.....	٣٦٥
٤. التقدير والإكرام.....	٣٦٥



٣٦٦	شفاة الدنيا.....
٣٦٦	أ- الشفاة بين الناس أنفسهم.....
٣٦٧	ب- الشفاة عند الله.....
٣٦٨	الشفاة لغير الله والنفي المطلق.....
٣٧٠	ولكن ما معنى شفاة الله؟.....
٣٧١	الشفاة لغير الله، والنفي المقيّد.....
٣٧٣	قيود الشفاة.....
٣٧٤	[أولاً]: قيد الشفعاء.....
٣٧٥	[ثانياً]: قيد المستشفع له.....
٣٧٨	أصناف الناس بالنسبة إلى الشفاة.....
٣٧٨	١- ناجون برحمة الله بلا شفيع.....
٣٧٩	٢- ناجون بشفيع بعد رحمة الله ولا شفيع بدون رحمته.....
٣٨٠	٣- لا نجاة لهم.....
٣٨٢	أنواع الشفاة.....
٣٨٢	النوع الأول: شفاة النجاة.....
٣٨٢	النوع الثاني: شفاة الرّف.....
٣٨٤	أصناف الشفعاء.....
٣٨٤	الصّنّف الأول: نفّسك.....
٣٨٦	الصّنّف الثاني والثالث والرابع: الأنبياء والعلماء والشهداء.....
٣٨٩	المصادر والمراجع.....

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

"الحمد لله الذي تسبح له السماوات والأرضون، وما فيهن وما بينهن، وهو ربّ العرش العظيم. كلّ الأشياء منشدة بفقرها إلى غناه، وبحاجتها إلى مدده، وبعدها إلى فيض وجوده.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، برحمته تقوم السماوات والأرض، ومن قدرته يتسق نظامها، وتتخذ أجزاؤها وأبعاضها مواقعها، وبتدبيره تدور أجرام الفضاءات الرحبة منتظمة في مداراتها، وتسير الأشياء كلها إلى غاياتها، ويدوم ائتلاف الذرة بحسوب نظامها وموزون أبعادها.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، لم تأخذه في الله لومة لائم، ولم يرده عن طاعته شيطان رجيم، ولا طاغية غاشم، ولم يستزله عن طريق الرسالة إغراء، ولم يحرفه تهديد ولا وعيد.

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الْبَشِيرِ الْنَذِيرِ، الَّذِي جَعَلْتَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَدَلِيلًا لِلْسَّائِرِينَ.
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الطَّاهِرَةِ الرُّضِيَّةِ، وَالْعَابِدَةِ الْمَرْضِيَّةِ، الزَّهْرَاءِ الصَّدِيقَةِ الزَّكِيَّةِ.
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى إِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَوَصِيِّ آخِرِ الْمُرْسَلِينَ، الْبَكَاءِ فِي مُحْرَابِهِ، الْمَقْدَامِ فِي حُرُوبِهِ، الْمَجَاهِدِ فِي ذَاتِ اللَّهِ، الْأَمِينِ عَلَى الْوَحْيِ، الَّذِي جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ الْجَلِيلِ.



اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى الْأَئِمَّةِ الْهَدَاةِ مِنْ وَلَدِهِ، وَالسَّلَالَةِ الطَّاهِرَةِ مِنْ بَعْدِهِ، الْحَسَنِ الزَّكِيَّ، وَالْحُسَيْنَ الشَّهِيدَ، وَعَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ، وَمُحَمَّدَ الْبَاقِرَ، وَجَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ الصَّادِقَ، وَمُوسَى الْكَاطِمَ، وَعَلِيَّ بْنَ مُوسَى الرِّضَا، وَمُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ الْجَوَادِ، وَعَلِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ الْهَادِي، وَالْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ الْعَسْكَرِيِّ، وَمُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنِ الْمُهَدِيِّ الْمُنْتَظَرِ، إِمَامَ الزَّمَانِ، وَالْقَائِدَ إِلَى الْأَمَانِ، وَالْمُؤَيَّدَ مِنَ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ، الْمُحْفَظَ لِلْعَدْلِ، وَالْمَوْعُودَ بِالنَّصْرِ، وَالدَّالَّ عَلَى مَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ.

اللَّهُمَّ أَظْهِرْ بِهِ دِينَكَ، وَسُنَّةَ نَبِيِّكَ ﷺ، وَأَقِمْ بِهِ الْعَدْلَ، وَأُحْيِ بِهِ الْحَقَّ، وَأُمِتِ الْبَاطِلَ، وَأَعِزَّ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَخْذِلْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ" (١).

"اللَّهُمَّ أَعِزَّهُ وَاعِزِّزْ بِهِ، وَانصُرْهُ وَانْتَصِرْ بِهِ، وَاحْرُسْهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمِنْ فَوْقِهِ وَمِنْ تَحْتِهِ، وَاجْعَلْ يَوْمَهُ قَرِيباً وَظِلَّ رَحْمَتِهِ مَمْدُوداً، وَاجْعَلْنَا جُنْداً لَهُ بِأَذْلِينَ كُلِّ الْجَهْدِ، مُخْلِصِينَ فِي الطَّاعَةِ، أَوْفِيَاءَ بِالْعَهْدِ يَا كَرِيمَ.

اللَّهُمَّ مَنْ سَارَ عَلَى دَرَبِهِ يَوْمَ النَّاسِ وَغَدَهُمْ فَأَيَّدِهِ، وَمَنْ تَنَكَّبَ عَنْهُ وَعَادَاهُ فَاخْذَلْهُ، وَانصُرْ دِينَكَ، وَمَكِّنْ لِكَلِمَتِكَ، وَأَمْدِدْ أَهْلَ طَاعَتِكَ مِنَ الْمَجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِكَ، وَالدَّائِذِينَ عَنْ حِيَاظِ شَرِيعَتِكَ، بِالتَّسْدِيدِ وَالتَّوْفِيقِ وَالْهُدَايَةِ، يَا عَزِيزُ يَا جَبَّارُ يَا قَهَّارُ.

اللَّهُمَّ أَغْفِرْ لَنَا، وَتُبْ عَلَيْنَا، وَأَهْدِنَا سَوَاءَ السَّبِيلِ، وَوَفِّقْنَا لِصَالِحِ الْعَمَلِ، وَصَادِقِ الْقَوْلِ، وَحَسَنِ النِّيَّةِ، يَا مَنْ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (٢).

١. خطبة الجمعة (٥) ١٠ صفر ١٤٢٢ هـ - ٤-٥-٢٠٠١ م..

٢. خطبة الجمعة (١٠) ١٥ ربيع الأول ١٤٢٢ هـ - ٨-٦-٢٠٠١ م..

الباب الأول: معرفةُ اللهِ تعالى

الفصل الأول: أهمية معرفة الله تعالى

الفصل الثاني: أنواعُ معرفة الله تعالى

الفصل الثالث: الحاجة إلى معرفة الله تعالى

الفصل الرابع: تغيير المعرفة صعودياً ونزولياً

الفصل الخامس: طرق معرفة الله تعالى

الفصل السادس: آثار معرفة الله تعالى

الفصل السابع: العدل الإلهي

الفصل الثامن: الولاية التكوينية

المقدمة

أهمية البحث:

"السؤال عن وجود الله تبارك وتعالى، وعن وحدانيته، هو أول سؤال يتقدم التفكير في منهجية الحياة. وفيما يصحّ أن يمضى فيه العمر، ففرق هائل بين أطروحة حياة تقوم على التوحيد، وأخرى لا ترتبط به"^(١).

منهجية البحث:

"والحديث هنا ليس على مستوى البحث العلمي المفصّل والمبوّب، والملتزم بشرط الاستقصاء، والتوغّل في النظر في النصوص ومقارنتها، أو في الأفكار وموازنتها، وفي قضية الأخذ والرد، وليس طابع هذا الحديث طابعاً فلسفياً، وإنما هو حديثٌ يعتمد الاستضاءة بنصوص الكتاب الكريم، والسنة المطهرة ليساعد على شفافية أكبر داخل القلوب، وفيه تأكيد على ملامسة الفطرة، وتنبيهٌ على آيات الله وحُججه في الأنفس والآفاق.

فهو حديث تذكيريٌّ، وحديث يحاول الإثارة لمكنون النفس، ومكنون الضمير، وما في داخل فطرة الإنسان من حجج الله ﷻ على خلقه"^(٢).

١. خطبة الجمعة (٢٦٩) ٦ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ٢٦ يناير ٢٠٠٧م.

٢. المصدر نفسه.



المعرفة القطعية والاحتمالية:

”قبل كل شيء مسألة الدين من لم تكن في نفسه قطعية، فلا أقل من أن تكون على مستوى الاحتمال. قضية الآخرة من لم يرها بقلبه رأي عين، فلا أقل من أن نفسه تحدثه دائماً بها، وتثير أمامه السؤال بشأنها، وأنه يحتمل بدرجة وأخرى أن تكون الآخرة، وليس أمام الإنسان أي طريق لنفي الآخرة، وهو لم يصل مرحلتها بمغادرة هذه الحياة.

في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يتناول المسألة من ناحية كونها محتملة على الأقل، في خطاب لمن كان يحاول أن ينكر الآخرة على مستوى اللسان: «إِنْ يَكُنْ الْأَمْرُ عَلَى مَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ^(١)، وَهُوَ عَلَى مَا يَقُولُونَ، (يَعْنِي أَهْلَ الطَّوَافِ)، فَقَدْ سَلِمُوا وَعَظِمْتُمْ^(٢)، وَإِنْ يَكُنْ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ^(٣) - وَلَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ^(٤) - فَقَدْ اسْتَوَيْتُمْ وَهَمَّ^(٥)».

أكلتم وأكلوا، شربتم وشربوا، نكحتم ونكحوا، زادوا عليكم بصلاة وصوم وحج وزكاة وخمس، ولكن كل ذلك ذاهب مع نهاية الحياة. إذا لم تكن آخرة، فلا صاحب التعب يتذكر تعبته، ولا صاحب اللذة تبقى معه لذته، إذاً المصير مستوٍ بين الاثنين، ولا تسجل عقيدة الآخرة على أصحابها أي خسارة.

أما وأن الآخرة حق وصدق، كما هو الواقع، فالحسran مع الذين ينكرون الآخرة،

١. ويعني بذلك أهل الطواف، أهل الحج، أهل الدين، وهؤلاء يقولون بالآخرة. «منه حفظه الله»

٢. أي هلكتم، أولئك البعيدون الذين ينكرون الآخرة يعطبون لو صدق أمر الآخرة. «منه حفظه الله»

٣. يعني المنكرين للآخرة. «منه حفظه الله»

٤. والحق أن ليس كما تقولون. «منه حفظه الله»

٥. الكافي للكليني: ١ / ٧٥ ح ٢.

لأنهم لم يستعدوا لها، ولم يصنعوا أنفسهم لتتأهل إلى نعيمها.

وفي هذا السياق تأتي رواية أخرى عن الرضا عليه السلام: (دَخَلَ رَجُلٌ مِنَ الزَّانِقَةِ عَلَى الرِّضَاءِ عليه السلام، وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ فَقَالَ لَهُ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: «أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ الْقَوْلُ قَوْلَكُمْ -وَلَيْسَ هُوَ كَمَا تَقُولُونَ- أَلَسْنَا وَإِيَّاكُمْ شَرَعًا سَوَاءً، وَلَا يَضُرُّنَا مَا صَلَّيْنَا وَصُمْنَا وَزَكَّيْنَا وَأَقْرَرْنَا»^(١)، فَسَكَتَ، ثُمَّ قَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: «وَإِنْ يَكُنِ الْقَوْلُ قَوْلَنَا -وَهُوَ كَمَا نَقُولُ»^(٢) - أَلَسْتُمْ قَدْ هَلَكْتُمْ وَنَجَوْنَا؟»^(٣).

وهذا المحتمل ليس من الاحتمالات العادية، محتمل أن تكون الآخرة، وأن يكون عذاب مقيم، أو نعيم أبدي، هذا المحتمل أكبر الاحتمالات، له خطورة بالغة جداً، وهذا المحتمل يكفي للعاقل فيه أي احتمال ولأن يأخذ بحزم بالاستعداد والجد والاجتهاد لأمر الآخرة لينجو من عذاب مقيم، ويفوز بنعيم خالد.

إنك لست أمام قتل دنيوي، لست أمام خسارة مليون دينار، أنت أمام احتمال خسارة الأبد، أمام احتمال أن يُخلد هذا الإنسان في النار، أمام احتمال أن يفوز بجنة لا هناء يتصوره كما هو فيها، وإلى الأبد^(٤).

١. ماذا أكون قد خسرت في نهاية الحياة أن أكون قد صمت، قد صليت، قد حجيت؟ كل ذلك أتعابٌ قد ذهبت. «منه حفظه الله»

٢. أي هو الحق، هو الصدق. «منه حفظه الله»

٣. التوحيد للصدوق: ٢٥٠ ح ٣.

٤. خطبة الجمعة (٢٦٩) ٦ محرم الحرام ١٤٢٨ هـ - ٢٦ يناير ٢٠٠٧ م.

الفصل الأول: أهمية معرفة الله تعالى

إنَّ موضوع معرفة الله سبحانه هو الموضوع الأهم على الإطلاق، ونتعرف على هذه الأهمية من خلال الإنارتين الآتيتين:

الإنارة الأولى: أنَّ معرفة الله تعالى مطلوبة ذاتاً، "فإنَّ العلوم والمعارف على كثرتها وتنوعها وتفاوت درجاتها، إنما تطلب من أجل غيرها، والمعرفة الوحيدة التي تطلب لنفسها، وتمثِّل غاية الغايات بلا غاية وراءها، هي معرفة الله معرفة حقّة، وإن تكن المعرفة المحدودة لغير محدود، فغاية السعي أن ينعم القلب برؤية ربه، وتنتهي به المعرفة إلى معرفته، فحينئذ ينتهي الطلب إلا من مزيد معرفة، وجديد رؤية له سبحانه، وترضى النفس، وتقرّ العين، وتهنأ الحياة، ويطيب الوجود. إذا كان المطلوب للإنسان أن تغنى نفسه، ويبلغ أعلى رقبته، ويخرج من الخوف المحطّم، والوحشة القائمة، والشعور بالفناء، إلى غزارة الشعور بالأمن، والأنس والبقاء، فإن معرفته لربه توفر له كلّ ذلك، وتتجاوز في عطائها حدود ما يتصور"^(١).

الإنارة الثانية: أنَّ النصوص الشريفة تُشير إلى "موقع المعرفة لله هو الأول: [فَعَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، يَرْفَعُهُ إِلَى أَحَدِهِمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ:] «بَعْضُكُمْ أَكْثَرُ صَلَاةٍ مِنْ بَعْضٍ، وَبَعْضُكُمْ أَكْثَرُ حَجًّا مِنْ بَعْضٍ، وَبَعْضُكُمْ أَكْثَرُ صَدَقَةٍ مِنْ بَعْضٍ، وَبَعْضُكُمْ أَكْثَرُ صِيَاماً مِنْ بَعْضٍ،

١. خطبة الجمعة (٥٠) ١ المحرم ١٤٢٣هـ - ١٥ مارس ٢٠٠٢م.

وَأَفْضَلُكُمْ أَفْضَلُ مَعْرِفَةٍ»^(١).

ولا تقل لي: بأن المعرفة تقابل الصوم والصلاة وغيرها من الواجبات، لأن من عرف صلى وصام، وصلاته هي التامة وصومه هو الكامل، [فعن النبي ﷺ أنه قال]: «أَفْضَلُكُمْ إِيْمَانًا أَفْضَلُكُمْ مَعْرِفَةً»^{(٢) (٣)}.

"إن معرفة العبد ربه العلي العظيم على محدوديتها، إذا صحت، كانت الأعلى والأشرف والأنتفع من بين كل ما يمكن أن يناله من معارف. والسرُّ لذلك: أن لا كمال لشيء ككمال من تعلقت به هذه المعرفة^(٤)، ولا مالك لخير على الإطلاق ممن دونه.

وإنها للمعرفة الألح حاجة للإنسان من بين كل المعارف النافعة^(٥)، وأكبر كل المعارف ضرورة، والمعرفة التي لا تغني عنها معرفة^(٦).

وستأتي -إن شاء الله تعالى- الإشارة إلى منافع وأغراض وحاجات المعرفة إلى الله تعالى.

١. صفات الشيعة للصدوق: ١٥ ح ٢٨.

٢. جامع الأخبار للشعيري: ٥.

٣. خطبة الجمعة (٥٠) ١ المحرم ١٤٢٣هـ - ١٥ مارس ٢٠٠٢م.

٤. لم كانت هذه المعرفة عظيمة، وإن كانت محدودة؟ ولم كانت أعظم. معارفنا؟ «منه حفظه الله»

٥. يمكن لك أن تضع أي معرفة، لكن لا يمكن لك -إذا أردت السعادة- أن تضع المعرفة بالله سبحانه، وإن كان في تفويت كل معرفة نحتاجها ضياع مصلحة وضرر. «منه حفظه الله»

٦. خطبة الجمعة (٥٩٠) ٢١ ربيع الآخر ١٤٣٥هـ - ٢١ فبراير ٢٠١٤م.

الفصل الثاني: أنواع معرفة الله تعالى

المعرفة ممكن وممتنع، وإليك بيان هذين النوعين:

النوع الأول: المعرفة الممكنة

”لقد هدى الله الإنسان إلى معرفته، وأتاح له أن يترقى في هذه المعرفة التي لا جلال لمعرفة يساوي جلالها.

وعن الإمام الحسين عليه السلام: «جاء رجلٌ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله، قال: ما رأسُ العلم؟ قال: معرفةُ الله حقَّ معرفته. قال: وما حقُّ معرفته؟ قال: أن تعرفهُ بلا مثال ولا شبهة، وتعرفهُ إلهاً واحداً، خالقاً، قادراً، أولاً، وآخرأً، وظاهراً، وباطناً، لا كفؤَ له، ولا مثلاً له، وذلك معرفةُ الله حقَّ معرفته»^(١).

فأن يرى العقل، ويتيقن القلب بوحدانية الله وأحديته، وأسمائه الحسنى، ويملاً ذلك وجدان الإنسان، ويملك عليه مشاعره، ولا تغيب عنه هذه المعرفة ولا تغيم في شعوره، ولا يغلب عليها ظرف من الظروف، ولا يلهمي عنها شيء، ولا يحول بينها وبين القلب حائل من دون الله، وأن تحكم الحركة والسكون من صاحبها، أمرٌ ممكن، بل ومتحقق

١. جامع الأخبار للشعيري: ٥.

بدرجته العالية في واقع فئة من الناس، كالرسل والأئمة عليهم السلام ^(١).

"معرفةُ الإنسان لله تعالى، ملءَ عقله ووجدانه، بأنه الخالق الذي لا خالق سواه، الرّازق الذي لا رازق غيره، المدبّر الذي لا مدبّر معه، القيوم الذي لا يعي ولا تأخذه سنة ولا نوم، القدير الذي لا يعجز، العليم الذي لا يجهل، الحي الذي لا يموت، المريد الذي لا تبطل إرادته ولا تُرد، الأول بلا قبل يسبقه، الآخر بلا آخر يلحقه، الحكيم الذي لا شوب في حكمته، الحاكم الذي لا تقاوم حكومته، الواحد الذي لا ثاني له، الأحد الذي لا شبيهه، الذي يقوم به كل شيء والمباين والبعيد عن كل شيء، والمنزه عن كل شيء، وهو فوق كل شيء، والأجلّ من أن يُمثّل بشيء، ويُنظر بشيء؛ هذه المعرفة ممكنة للإنسان وحاصلة -كما تقدّم- لصفوة من الناس.

ومعرفة المخلوق للخالق بهذا المستوى من المعرفة، تتجلى للعقول والقلوب في كلّ ما خلق الله من شيء، مما يقوم في وجوده، وفي حياته، وفي كلّ أثر من آثاره بقدرته وعلمه وتدبيره.

وإن قدرة الله وعلمه ورحمته ولطفه، كلّ ذلك ليطلّ على العقل والقلب، من كلّ مخلوق كبيرٍ وصغير، ومن كلّ خلية وذرة في الكون العريض، ويكشف عن نفسه، ويتحدّث لك عن الخالق قبل تحدّثه لك عن نفسه، والله تبارك وتعالى هو المظهر للأشياء، والدالّ عليها، والمبرز لها، والمسخر لها في خطابه للعقول والأفئدة والأرواح.

١. خطبة الجمعة (٣٧٨) ١ شعبان ١٤٣٠هـ - ٢٤ يوليو ٢٠٠٩م.

وهل لشيء أن يظهر الله ﷻ، والحق أن كل شيء، إنما ظهوره من الله ﷻ؟! كيف تظهر الأشياء خالقها وهي لا تظهر إلا بخالقها سبحانه؟!

ظهورها منه، وهو يتجلى للعقول والقلوب من خلالها، وبإظهاره لها^(١).

معرفة الإنسان بالله محدودة: و"معرفة أي مخلوق، ومنه الإنسان، لله سبحانه، لا بد أن تكون معرفة محدودة، مهما بلغت من حد^(٢). والسبب واضح، لأن كل مخلوق محدود، فلا يزيد شيء مما عنده، ولا أثر من آثاره عليه قدر^(٣)، ولا يتجاوز ماله من مدارك ومواهب. وبذلك لا تبلغ معرفة عقل ولا قلب، مما خلق الله سبحانه، كنه الذات الإلهية المتعالية، ولا أي صفة من صفاته سبحانه، وذلك واضح جداً، لأن الله كامل بالكمال المطلق، وليس بإمكان المحدود أن يصل إلى حقيقة المطلق، وليس بإمكان الناقص أن يلم بكنهه الكامل"^(٤).

النوع الثاني: المعرفة الممتنعة

إن "حقيقة الذات والصفات الإلهية المتعالية فلا سبيل لمخلوق على الإطلاق أن يناها بعقل أو بقلب، فإنها أبعد من أن تُنال بعلم، أو ظن، أو خيال، أو وهم، فكل ذلك له

١. المصدر نفسه.

٢. المعرفة بالله ﷻ لنبي أو ملك هي دون ما عليه شأن الله ﷻ. «منه حفظه الله»

٣. يبقى كل شيء منه محدود ما دام هو محدوداً. «منه حفظه الله»

٤. خطبة الجمعة (٥٩٠) ٢١ ربيع الآخر ١٤٣٥هـ - ٢١ فبراير ٢٠١٤م.

منتهى^(١) لا وجود له بعده، ومدى لا امتداد له وراءه، وحد لا يتعداه، والله ﷻ لا تحده حدود، ولا تقف بكماله الآماد، ولا الآباد، وهو فوق كل أفق رفيع وأرفع وأفاق الكمال، وأبعد من كل بُعد بعيد وأبعد وأبعد من أبعاد العزّ والمجد والعظمة والجلال والجمال.

كلُّ شيء مخلوق فأنى له أن ينال الخالق؟! وكلُّ شيء خاضع للحدود، فأنى له من إدراك من لا حد له، ولا نهاية؟! وكلُّ شيء مقدر، فأنى له أن يحيط بمقدر الأقدار، وهو فوق كل تقدير؟!^(٢).

"وفي استحالة معرفة الذات وحقيقة الصفات، والمنع من التفكير في أمرهما جاءت النصوص الكثيرة وهذا منها:

١. عن الإمام علي عليه السلام في تمجيد الله: «الظَّاهِرُ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاطِرِينَ، وَالْبَاطِنُ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ»^(٣)، وتجليه سبحانه من خلال مخلوقاته بقدرها لا بقدره. كلُّ شيء يظهر لك الله ﷻ من خلاله بقدر ذلك الشيء، وليس بقدر الله الذي لا يطيقه شيء.

١. علمنا، وطننا، وخیالنا، ووهما له حد، يقف عند ذلك الحد، ويكون بعد ذلك الحد لا شيء وعدما.

«منه حفظه الله»

٢. خطبة الجمعة (٣٧٨) ١ شعبان ١٤٣٠هـ - ٢٤ يوليو ٢٠٠٩م.

٣. نهج البلاغة للرّضي: ٣٢٩ ح ٢١٣.



٢. وعنه عليه السلام: «مَنْ تَفَكَّرَ فِي ذَاتِ اللَّهِ أَلْحَدَ»^(١). لماذا من يتفكر في ذات الله ينتهي به تفكره إلى الإلحاد؟

من توقف إيمانه على معرفته بحقيقة الذات الإلهية وذلك مستحيل لا يتم له الإيمان، ولا بد أن يلحد.

إذا كان أحدنا يتوقف إيمانه بحسب نفسه على أن يصل إلى حقيقة الله ويشاهدها حساً أو حتى قلباً فإن ذلك مستحيل، والطريق إلى ذلك مقطوع. وإذا كانت المقدمة مستحيلة فإن النتيجة ستكون مستحيلة، فبالنسبة لذلك القلب، لا يمكن أن يشع بنور الإيمان، وهو لا يؤمن إلا أن يشخص الله في صورة محدودة من صنع نفسه إذ كل محدود هو غير الخالق الحق غير المحدود.

٣. وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «تَفَكَّرُوا فِي الْخَلْقِ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي الْخَالِقِ، فَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ قَدْرَهُ»^(٢). فالله عز وجل إنما يظهر لخلقه في خلقه وبمقدار ما يتسع له الخلق، ولا يظهر لهم بذاته لا لخفاء إلا ما هو من بعد العزّ والمجد والجلال والجمال غير المحدود الذي لا يمكن أن يناله المحدود.

الله محتجب عن عباده بنوره الأكمل الأكمل الذي لا حد له، وليس من نقص لا يظهر بذاته تبارك وتعالى للعقول، إنما لأن نوره لا تحتمله العقول، ولأنه الكامل المطلق، وكل

١. عيون الحكم والمواعظ للبيهي: ٤٢٣ ح ٧٩٧٦.

٢. ميزان الحكمة للريشهري: ٣ / ١٨٩٢.



عقل مخلوق محدود.

٤. عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِيَّاكُمْ وَالتَّفَكُّرَ فِي اللَّهِ؛ فَإِنَّ التَّفَكُّرَ فِي اللَّهِ لَا يَزِيدُ إِلَّا تِيهًا، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ، وَلَا يُوصَفُ بِمِقْدَارٍ»^(١).. ما السر في عدم التفكير في الله؟ قال عليه السلام: بأن الله عَزَّ وَجَلَّ لا تدركه الأبصار، ولا يوصف بمقدار. لا يدركه بصر الحس، ولا بصر القلب، وأنت لا بد أن يترامى منك الفكر وينتهي عند المحدود. والمقدر وجودهم تقديرًا، والمحدد تحديدًا، مقهورون في إدراكهم ورؤيتهم وامتداد أبصارهم وبصائرهم للتقدير والتحديد، والنهاية والانقضاء، ولا يتجاوز شيء بنفسه أو آثاره حده.

هل يتجاوز الشيء حده؟ وهل تتجاوز آثار الشيء محدودية ذلك الشيء؟ يبقى المحدود محدودًا، وآثاره محدودة، فلا ينال غير المحدود.

٥. عن زين العابدين عليه السلام: «وَعَجَزَتِ الْعُقُولُ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِ جَمَالِكَ»^(٢)، وَأَنْحَسَرَتِ الْأَبْصَارُ دُونَ النَّظَرِ إِلَى سُبْحَاتِ وَجْهِكَ، وَلَمْ تَجْعَلْ لِلْخَلْقِ طَرِيقًا إِلَى مَعْرِفَتِكَ، إِلَّا بِالْعَجْزِ عَنْ مَعْرِفَتِكَ»^(٣). عدم الرؤية من أين؟ من هنا، من قصر نظر عند الرائي، وعدم مقاومة للشدة التي لا حد لها في النور المراد رؤيته. جلال الله وجماله فوق كل التصورات والوصف الممكن فلا يحاط به، وكل من عداه وما عداه ممكن، وهو فوق كل إمكان. البصر لا بد أن

١. الأمالي للصدوق: ٤١٧ ح ٣.

٢. لك كنه جمال كل العقول أقصر من إدراكه. «منه حفظه الله»

٣. بحار الأنوار للمجلسي: ٩١ / ١٥٠ ح ٢١.



يرتدّ خاسئاً من أمام جلاله وجماله ولا يملك أن يثبت على ضعفه ومحدوديته لذلك الجلال والجمال في تجاوزه للنهايات والحدود ودرجات الشدة التي يمكن أن تقع في ظن أو وهم أو خيال.

٦. عن الإمام علي عليه السلام: «فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ، إِلَّا أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ حَيٌّ قَيُّومٌ، لَا تَأْخُذُكَ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، لَمْ يَنْتَهَ إِلَيْكَ نَظَرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ أَدْرَكَتِ الْأَبْصَارُ»^(١). لا ندرك كنه عظمتك لأنك الكبير الذي لا حد لكمالك، ونحن الصغار المحدودون في وجود وحياتنا وإدراك وعلم وأدوات بصر وبصيرة.

٧. عن الإمام الرضا عليه السلام: «هُوَ أَجَلٌ مِنْ أَنْ يُدْرِكَهُ بَصَرٌ، أَوْ يُحِيطَ بِهِ وَهْمٌ، أَوْ يَضْبِطَهُ عَقْلٌ»^(٢).

٨. عن الإمام علي عليه السلام: «كَيْفَ يَصِفُ إِلَهُهُ مَنْ يَعْجُزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ»^(٣). عرف لي عقلك، لا نمك لعقلنا تعريفاً، لا نمك للطاقة تعريفاً، لا نمك للروح تعريفاً، أشياء حسية كثيرة لا نمك لها تعريفاً، لا نستطيع أن نصل إلى كنه ملك، الجن لا نعرف حقيقته، كم هي الأمور والأشياء التي لا نعرف حقيقتها؟! والنسبة أن الله سبحانه معروف لا يسع أحداً إنكاره، وبعيد كل البعد عن الإحاطة

١. نهج البلاغة للرضي: ٢٢٥ ح ١٦٠.

٢. التوحيد للصدوق: ٢٥٠ ح ٣.

٣. نهج البلاغة للرضي: ١٦٧ ح ١١٢.

بكنهه كما تعطيه الكلمة الآتية عن علي عليه السلام، وهي تفرّق بين أمرين: «لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَخْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ»^(١)، فهو الظاهر الذي لا يستتره شيء، والباطن الذي لا يحيط به شيء.

وكما تفيده الكلمة الأخرى عنه عليه السلام: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْجَزَ الْأَوْهَامَ أَنْ تَنَالَ إِلَّا وَجُودَهُ، وَحَجَبَ الْعُقُولَ أَنْ تَتَخَيَّلَ ذَاتَهُ فِي امْتِنَاعِهَا مِنَ الشَّبَهِ وَالشَّكْلِ»^(٢).

عقولنا وقلوبنا لا تعرف الأشياء إلا بأشكالها وأشباهها، ولنا صور نقيس عليها الأشياء، والله لا يمكن أن تقارب ذاته صورة من الصور التي تنالها العقول والقلوب.

فما تصله العقول عن الله تعالى هو أنه موجود، ولا وجود لشيء إلا من وجوده، وأنه حاضر مع كل شيء علماً وإرادة وفاعلية ورحمة وكلاءة وحفظاً ورफداً وتديباً، وإلا لم يقيم شيء على ساق، ولم يكن له وجود، ولا حياة، ولا أثر.

أما حقيقة ذاته وصفاته، فيقصر عن إدراكها كل المخلوقين، لكماله ونقصهم، ولتعالیه غير المحدود، ومحدوديتهم"^(٣).

١. نهج البلاغة للرضي: ٨٨ ح ٤٩.

٢. التوحيد للصدوق: ٧٣ ح ٢٧.

٣. خطبة الجمعة (٣٧٨) ١ شعبان ١٤٣٠هـ - ٢٤ يوليو ٢٠٠٩م.

الفصل الثالث: الحاجة إلى معرفة الله تعالى

وإليك وجوهاً من وجوه الحاجة إلى معرفة الله سبحانه:

الحاجة الأولى: طمأنينة الإنسان

فَقَدْ الإنسان الطمأنينة فَقَدْ للراحة في الحياة، واضطراب لها، وتقويض لما لها من هناءات.

ولو طَلَبَ الإنسان لنفسه الطمأنينة من نفسه وهو الفقير ذاتاً، والمحدود ذاتاً أو من غيره -وكلُّ غيره من دون الله سبحانه واقعٌ في أسر المحدودية، والفقر في ذاته، والحاجة في كلِّ أمره وفعله وما له من حولٍ إلى ربِّه القادر العليِّ العظيم- لما كان له أن يجد شيئاً ولو قليلاً من الطمأنينة التي يطلبها، وكان طلبه لها من عند غير الله وهماً وسُخفاً بعد أن يكون كلٌّ من عداه سبحانه وما عداه ليس له في نفسه من الملك في نفسه شيء، ولا يملك فعلاً مستقلاً^(١).

فلكي يطمئنَّ عاقلٌ ملتفتٌ^(٢) إلى خير من خير الدُّنيا أو الآخرة، وتستريح نفسه إلى

١. إذا كان كلٌّ من عدا الله وما عداه صفرًا على الشمال، كان كلُّ شيء من دونه عدماً في نفسه، فالانكسار عليه، واللجأ إليه، والاستعانة به عند عاقل لا تجوز. «منه حفظه الله»

٢. أقول عاقلٌ وملتفتٌ! «منه حفظه الله»

حاضرٍ أو مستقبلٍ لا بدَّ له من الاعتماد على مالكٍ قديرٍ عليمٍ حكيمٍ رحيمٍ ضامنٍ له ذلك الخير مطلقاً أو بشرطٍ وإلا بقي محكوماً لقلقه واضطرابه وفزعه.

والمالك القدير العليم الحكيم واحدٌ لا ثاني معه، ولا شريك له وهو الله العليُّ الكبير.

فمن لم يعرف الله ﷻ لم يكن له سبيلٌ لأن يتخلَّص من القلق في هذه الحياة، ويجد ما يدفع عنه الاضطراب، ويوفِّر له الطمأنينة التي فيها راحته^(١).

ولذلك يهرب إلى ألف طريق معوجٍّ، ويتعلق بألف وسيلة مدمِّرة كحالة السكر في طلب الطمأنينة التي يحتاجها^(٢)، وهو فيما يأخذ به من هذه الطرق والوسائل يُفسد نفسه ويضرُّ بمن حوله ويُعكِّر جوَّ الحياة، ولا يوصله إلى ما طلبه، وإنما يأخذ به إلى الغفلة والسُّبات الذي يُعقبه أسفاً فوق الأسف^(٣).

الحاجة الثانية: الاهتداء إلى الغاية

الأكل والشرب والمأوى واللباس والنكاح وكلُّ ما مائلٌ ذلك وما هو من مقدماته من علم وعمل أسبابٌ تُطلب لبقاء الحياة، وفيها لذائذ لا بقاءَ لشيءٍ منها بعد موت؛ فإن لم تكن حياة بعد الموت فلا غايةَ لهذه الحياة.

١. وليطلبها من كلِّ الأسباب فإن الأسباب كلها لا تُعطيها هذه الطمأنينة. «منه حفظه الله»

٢. لا يحمي من ذلك مال ولا جاه ولا أي شيء آخر، يصطدم بأمور، بتحديات، بمآزق لا يجد منها مخلصاً من شعوره باليأس مهما كان، وهنا تبرز الحاجة لله ﷻ بشكل جلي. «منه حفظه الله»

٣. خطبة الجمعة (٥٩٠) ٢١ ربيع الآخر ١٤٣٥هـ - ٢١ فبراير ٢٠١٤م.



فلا يمكن الإيمان بغاية لحياتنا التي نحياها حاضراً في غياب معرفتنا لله سبحانه القادر على إعادة الحياة لمن قد مات والتصديق بوعده بهذه الإعادة، والحياة الأخرى التي لا انقضاء لها، وهي حياة ذات سعادة أبدية لمن أحسن عملاً في هذه الحياة^(١).

ومعرفة الله سبحانه وما تؤدي إليه من التصديق بوعده ووعيده، وأن حياتنا الدنيا من أجل تكميل الإنسان نفسه بهدى وتوفيق من ربه، وإعمال إرادته الموهوبة له منه تبارك وتعالى، والإعداد للمستقبل الكريم الموعود هي وحدها التي يتضح معها أن لحياتنا هنا غاية، وتتحدد هذه الغاية، وأنها غاية تعظم في ضوئها قيمة هذه الحياة^(٢).

الحاجة الثالثة: معرفة الطريق

لا يكفي الإنسان أن يعرف غاية الحياة ويجلّها، ويُعطي من نفسه الاستعداد للتهيؤ لها، وإمضاء حياته في سبيلها.

إنّه لا يهتدي الطريق بنفسه إلى ذلك بعد أن كان يعيش الجهل الكامل بأمر آخرته، وهي غيبٌ كامل بالنسبة إليه لا يعرف عنها شيئاً من نفسه وإن عرّف أنّها كائنة ولا بدّ منها بأيّ معرفٍ له بذلك.

فالطريق إلى كسب الآخرة، ومعرفة إعداد النفس لما تقتضيه طبيعتها وأجواؤها وشروط السعادة فيها، وما يُوجب شقاءها كلّ ذلك يحتاج الإنسان إلى أن يتلقاه من الله

١. وهنا تبرز غاية الحياة. «منه حفظه الله»

٢. خطبة الجمعة (٥٩٠) ٢١ ربيع الآخر ١٤٣٥هـ - ٢١ فبراير ٢٠١٤م.



العليم الخبير، مُعيد الحياة، وخالق الآخرة.

فصار لا بدَّ من معرفة الله سبحانه لمن أراد التعرف على طريق الغاية، وكيفية إعداد الذات إعداداً يتناسب معها.

معرفة الغاية لهذه الحياة، والتصديق بها، والتوفُّر على طريقة تكييف النفس لمقتضاها محتاجٌ كُلُّه قطعاً إلى معرفته سبحانه، والانسجام مع ما تستوجبه هذه المعرفة^(١).

الحاجة الرابعة: حاجة الحياة الحاضرة

يعلم الإنسان بفضل من الله سبحانه قليلاً من أمر الدنيا، وهو على تراكمه، إلّا أنه يبقى جاهلاً بالكثير من أمرها.

يكفيك أن الواحد من الناس جاهل بذاته، أعمى عما يفاجئه في غده، ينسى ما ينسى من ماضي حياته.

وهو أجهل من أن يُحيط علماً بمن في مجتمعه فضلاً عن المجتمع الإنساني في امتداده وسعته، وبكل ما يدخل في إصلاح الإنسان ومجتمعه، أو يحيط علماً بكل ما له من تأثير عليه من بيئته والكون الذي يعيش فيه.

ووضع منهج للحياة الدنيوية ومجتمع الإنسان يحتاج لكي يكون صحيحاً مُوفياً بحاجات الحياة، وسلامة المجتمع، وتقدّم أوضاع البشرية على الأرض لأن يتوفّر على هذا

١. المصدر نفسه.



العلم والإحاطة.

وخالق الإنسان والكون وحده هو العليمُ بمن خَلَقَ وما خَلَقَ، فلا منهج يمكن أن يقود الحياة على خطّها الصحيح، ويكفل للإنسانية أن تبني مجتمعتها الناجح بكفاءة كاملة إلّا المنهج المتلقّى من خالق الإنسان والكون والحياة.

ومن أين يتوفّر للإنسان هذا التلقّي لهذا المنهج الربّانيّ القدير من غير أن يعرف ربّه العزيز الحكيم العليّ العظيم؟!

والتشريع لمجتمع صغير أو كبير لا يكون صحيحاً إلّا باعتماد العدل، والنظر للناس بمنظارٍ واحد لا يُفرّق بينهم في القيمة في مقام التشريع على أساسٍ من عرق أو لون أو لغة، أو قرابة، أو صداقة أو على أيّ شيء آخر مما يُماثل أو يُشابه هذه الأمور.

والإنسان الشخصُ والمجموعة أحبّ لنفسه من غيره، وأميلُ لأهله وعشيرته ممن سواهم، ولقومه ولذوي العلاقة الحميمة من الآخر، ولذا يفقد النظرة الواحدة، والروح العادلة لمن يُشرّع لهم، وهذا ما عليه واقع الحال للمشرّع الأرضي في عموم الزمان والمكان^(١).

الحاجة الخامسة: درأُ الظلم والعدوانية والفساد

لا يكفي لسلامة الإنسان وسلامة مجتمعه، وتحقيق السعادة لهما أن يعرف المنهج

١. المصدر نفسه.

الصحيح المتكفل بذلك.

للإنسان دورٌ إراديٌّ إنْ انحرف عن الخطِّ لم تُجدِ معه خطّةٌ صحيحةٌ ولا خارطةٌ طريقٍ،
ولا منهجٌ متنزّلٌ من السماء.

ولا ضابطٌ لإرادة الإنسان على الخطِّ القويم من قانون يُسنّ، أو حقٌّ يتبيّن، أو عقوبة
يمكن الفرار منها.

الإنسانُ يخضع لتأثير الأنا، ويرى مصلحته قبل مصلحة غيره، وله تقديره الكبير
للدائد الدنيا وخضوعه لحساباتها، للإنسان دوافعُ المادية الضاغطة على عقله وإرادته
وتصرفه، والحاملة له للتجاوز حتى على القيم المعنوية والخلقية التي يؤمن بها.

كفُّ الإنسان عن الظلم والعدوان والفساد والنهب والسَّرقة والقتل من غير حقٍّ وإنْ
كان في ذلك أكبر مصلحة مادية لمجتمعه، وإفلات من الخطر الأخرى المحتمل عنده على
الأقل لا يكفي فيه إلّا الإيمانُ والشعور الحيّ برقابة الله، والتصديق بعقوبته، والخوفُ الجادُّ
منها.

والمنطلق لهذا الإيمان والشعور معرفته سبحانه؛ فهي المعرفة التي تبني للإنسان إيماناً
برقابة العزيز الجبار، والشعور بالخوف من عقوبته فيكفّه ذلك ويشلّ كلَّ جارحة من
جوارحه عن مقارفة الظلم، وارتكاب العدوان^(١).

١. خطبة الجمعة (٥٩٠) ٢١ ربيع الآخر ١٤٣٥هـ - ٢١ فبراير ٢٠١٤م.

الفصل الرابع: تغيير المعرفة صعودياً ونزولياً

المعرفة قابلة للقوة والضعف، والترسخ والتزلزل، والثبات والانحسار، والزيادة والنقصان. ونقرأ لهذا: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(١).

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾^(٢).

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾^(٣).

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٤).. من شأن القلوب أن تطمئن بذكر الله ﷻ، ما لم يفسد المرء قلبه، أما من ناحية فعلية، فالقلوب المطمئنة بذكر الله، إنما هي الواعية المبصرة.

١. الأنفال: ٢.

٢. التوبة: ١٢٤-١٢٥.

٣. البقرة: ١٠.

٤. الرعد: ٢٨.

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾^(١).. لا تخاف من موت، من مستقبل، اطمئنت إلى الله، إلى رحمته ﷻ، عرفته، آمنت به، استيقنت بجلاله وجماله وكماله ورحمته ولطفه، انصرفت بكلها إليه، آمنة مطمئنة، إذ ليس بعد الانصراف إلى الله سبحانه والدخول في حصن قوته ولطفه ورحمته ما يخيف.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾^(٢).

وهذه الأحوال المختلفة التي تعرض الإيمان ليست مفصولة عن مسؤولية الإنسان، ولا بعيدة عن إرادته^(٣).

وينحدر مستوى الإيمان ويرق ويضعف ويتسطح ويتزلزل إذا سلكت النفس طريق المعصية، وأخذت في الانحراف عما تعلم من الحق، والاستكبار على ما وصلها من حجة، واستلانت للقبائح، وانغمرت فيها.

ولأن الإنسان يملك إرادة الطاعة والمعصية للتكليف، والاستكبار على مقتضى الإيمان المتوفر له صار من الحق أن يُعاقب على خسارة الإيمان، ووهنه بعد شدته، وتزلزله بعد ثباته وترسخه.

١. الفجر: ٢٧-٢٨.

٢. الحج: ١١.

٣. خطبة الجمعة (٣٧٩) ٨ شعبان ١٤٣٠هـ - ٣١ يوليو ٢٠٠٩م.



قد يقول أحدنا أنا لا أملك أن أؤمن أو لا أؤمن، كما أنني لا أملك أن أظن أو لا أظن، ولكن إذا ملك أحدنا أسباب زيادة الإيمان، أو أسباب نقيصته فقد ملك الإيمان من ناحية استحقاق العقوبة والثوبة^(١).

وهناك أمران يمكن الإشارة إليهما في هذا السياق:

الأمر الأول: طرق نماء الإيمان وانحداره

ولنماء الإيمان وانحداره طرق يمكن استبيانها من نصوص القرآن:

أولاً: طرق نماء الإيمان

الطريق الأول: التقوى

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

مقتضى الإيمان بالله أن أتقي الله بمقدار ما يتوفر لي من إيمان. ولا يمكن أن يزيد تقوى العبد عن مقدار إيمانه، لكنني أمام مستوى معين من الإيمان أعيشه في داخلي، وبمقدار هذا المستوى من الإيمان عليّ أن أتقي الله تبارك وتعالى، فإذا اتّقيتُ الله بهذا المقدار جاءني نور إيمانٍ جديد، وتدفعُ جديدٍ من فيض الله تبارك وتعالى يرفع من مستوى إيماني، ويستنير

١. خطبة الجمعة (٣٨٠) ١٥ شعبان ١٤٣٠هـ - ٧ أغسطس ٢٠٠٩م.

٢. الجديد: ٢٨.

به قلبي.

فأخذ المؤمن بتقوى الله وهو مقتضى إيمانه، ومتابعة الرسول ﷺ وطاعته طاعة لله يستتبعان نوراً هادياً مضافاً من نور الإيمان، وبصيرة من بصيرته.

فعل رصيدك من الإيمان عملاً كما تُفعل رصيدك من المال، وأنت في تفعيلك رصيدك من المال قد تريح وقد تخسر، أما في تفعيلك رصيدك من الإيمان فأنت رايح لا محالة، وهذا الرصيد يتنامى بمقدار ما فعلته كما أراد الله تبارك وتعالى، ومن تفعيله أن تبني موافك في ضوئه^(١).

الطريق الثاني: الأخذ بهدى الثقلين

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾^(٢).

الرسول ﷺ نور، والظاهر من النور في الآية الكريمة، هو: الرسول ﷺ، في قبال الكتاب المبين الذي هو نور آخر كذلك. الرسول ﷺ نور، والكتاب الكريم نور، ومن نورهما يكتسب القلب المقبل عليهما، المتغذي على موائدهما نوراً، ويغنى بالهدى، وتنفتح منه البصيرة بما لم يكن له منها، لولا الاهتداء بهما، ومتابعتهما، وصوغ النفس على ضوئهما. فهذا طريق من طرق زيادة الإيمان وإيمائه، وهو أن نأخذ بهدى الكتاب، وهدى

١. خطبة الجمعة (٣٨٠) ١٥ شعبان ١٤٣٠هـ - ٧ أغسطس ٢٠٠٩م.

٢. المائة: ١٥.



الرسول ﷺ، ونقفوا أثرهما^(١).

الطريق الثالث: الالتزام بمقتضى الإيمان

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾^(٢).. آمنوا برَبِّهم، وأخذوا بالموقف الإيماني، وانحازوا عملاً للإيمان، والتزموا بمقتضاه، وقبلوا الأخذ بتكاليفه، وصبروا على الأذى في سبيله، فكانت النتيجة أن زادهم الله هدى فوق ما كان لهم منه، وكل من عند الله، واشتد في قلوبهم الإيمان، وكان لهم نور على نور^(٣).

ثانياً: "طرق انحسار الإيمان، وتضاؤله، وغيوبته، وسباته:

[قال تعالى:] ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٤)، جاءت نفسك مفطورة على مستوى تكون مستعدة به لتلقي الإيمان، جاءت النفس مخلوقة من الله ﷻ على صلاحية كافية لمعانقة ومواقعة الإيمان، ولكن هذه النفس نملك أن نحطمها، ونملك أن نلوّثها، وأن نحدث لها ما يحول بينها وبين الاستفادة من نور الإيمان أو استقباله أساساً.

قد يخسر الإنسان نفسه بسوء عمله، يخسر منها قابليتها لرؤية الحق والتسليم له، ويخسر القدرة على التصديق بالآيات ودلالاتها، ويغلق على قلبه أن يرى الحقيقة التي لا

١. خطبة الجمعة (٣٨٠) ١٥ شعبان ١٤٣٠هـ - ٧ أغسطس ٢٠٠٩م.

٢. الكهف: ١٣.

٣. خطبة الجمعة (٣٨٠) ١٥ شعبان ١٤٣٠هـ - ٧ أغسطس ٢٠٠٩م.

٤. الأنعام: ١٢.

يملك العقل إلا أن يثبتها لكفاية الدليل، ولا يبقى لنفسه قدرة الصبر على ما هو حق، وما هو تكاليف الحق، فتلجأ النفس لترضى عن نفسها إلى الجحود والإنكار.

السقوط بمستوى النفس عن طريق السيئات والاستكبار على الله ﷻ، يفقدها قابلية الإيمان، فيكون ذلك من مسؤولية الإنسان الذي أساء لنفسه وظلمها.

ومن خسر نفسه بهذا المعنى لا يتأتى منه الإيمان، ومن كانوا كذلك فإنهم بعد معرفتهم بالحق عقلاً لا تملك قلوبهم بعد إفسادها وتلوّثها أن تطمئن به، وتتشرّبه، وتكون مسكناً له، وتستجيب له بصدق.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾^(١).. يعرفونه ورقاً، يعرفونه لفظاً؟! أو يعرفونه أنه الحق، وأنه منزل من عند الله، وأنه الحجة بين الله وبين عباده.

قد تكون معرفتنا وزراً، وحملنا لها كما يعرفونه عقلاً أنه الحق المنزل من عند الله لكن هذه المعرفة لا تلامس قلوبهم المحجوبة، كما يحمل الحمار على ظهره أسفاراً من معرفة كثيرة عالية نافعة ليس له من حملها إلا الثقل بلا نفع.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾^(٢).. هل من أحد يخطئ الذي يعايشه؟! لا يعرفه شبحاً وإنما يعرفه بسماته، وبخصائصه.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا

١. الأنعام: ٢٠.

٢. الأنعام: ٢٠.



يُؤْمِنُونَ^(١).. المصيبة العظمى أنهم خسروا أنفسهم، فصارت تلك الأنفس نافرة من الإيمان، تكره الحق، وتعشق الباطل، وتذوب فيه.

وللقلب سمع وبصر، وإذا مات فقد سَمِعَهُ وبصره، ومنافذ المعرفة وأبواب اليقين عنده. إنَّ هذا الإنسان وباختيار منه يُفقد قلبه إمكان استقبال المعرفة ونور الإيمان بما يكسبه من سيئات تكون ريناً على قلبه، وتطبعه، وتغلّفه، وبذلك يتحمّل مسؤولية هذه النتيجة المرة التي تسبّب في تولدها.

أرأيت أننا إذا عشقنا شيئاً لا جمال له عن هوى في النفس، وعن طريق الممارسة استقر في النفس فكرياً، وفي الفكر التصديق بجماله؟! وأننا إذا عادينا شخصاً أو عادينا فكرة نحتاج إلى وقت طويل وإلى تأمل شديد، وإلى مجاهدة للنفس حتى نقبل خبر الخير في هذا الشخص، أو نقبل شيئاً من حسن تلك الفكرة؟! إنه فعل الهوى والممارسة، والسلوك الخارجي الذي يخلق في داخلنا مشاعر مستقرة تؤثر حتى على قابلية الفكر للتصديق.

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢).

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(٣).

١. الأنعام: ٢٠.

٢. المطففين: ١٤.

٣. إبراهيم: ٢٧.

للاستجابة للإيمان والأخذ العملي بمقتضاه مردود من مزيد إيمان، وشدة هدى ونور، وتنشيط من الله لعبده على الصراط القويم حتى الوصول إلى الغاية العظيمة الكريمة، [و] أما الاستخفاف بنعمة الإيمان، وظلم النفس بسلوك طريق المعصية، ومعاودة الله سبحانه فمستتبع للضلال الذي يتحمل العبد المفرط في الحق تبعته ووزره بما كان منه من السعي إليه.

[و] بقدمي أكون قد سعيت إلى الضلال على طريق المعصية، فأنا أتحمّل ما يحدث لي من ضلال مترتب على هذا السعي، ومواقعة المعاصي، ومن الناس من يعرف الله عز وجل، ولكنه يعدل عن عبادته، ويتخذ إلهه هواه، عالماً مختاراً، فيكون ذلك منه مقدمة لضلاله، ولأن يُختم على سمعه وقلبه، وأن يجعل على بصره غشاوة فلا يصل قلبه هدى، وتحول أقفاله بينه وبين الإيمان، وإنما أقفال هذا الضال من صنعه.. ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(١).

أمن أحد يكسر قوانين الله عز وجل؟! أعمل المعصية وأتمادى فيها فتكون النتيجة هدى؟! لا، لا بد أن تكون ضلالاً.

والنتيجة أن الطريق أمام إرادة الإنسان، وبعد الزاد الفطري من الإيمان مفتوح لزيادته ونقصه، وقوته وضعفه، واستقراره واضطرابه، وحيويته وخموله، وفاعليته وشلله، وبذلك



تكون هذه الحالات العارضة للإيمان إيجاباً وسلباً داخلية في مسؤولية العبد، ومحلاً للمثوبة أو العقوبة^(١).

الأمر الثاني: حكمُ الإيمان

"لا حساب [على الإيمان] بلا تكليف، ولا تكليف إيجاباً أو تحريماً بلا قدرة، وقد تتعلّق القدرة بالشيء نفسه كالصوم والصلاة، وقد تتعلّق بأسبابه، دون أن تملك من أمره شيئاً بعد الأخذ بالأسباب؛ كإطعام الآخر بالنسبة لإشباعه، والحفاظ على حياته، وكتناول السمّ بالنسبة لقتل الإنسان نفسه.

والإيمان منه فطريٌّ نسأل عن مراعاته، والإبقاء عليه بعدم التسبب لتغيّبه الذي ينتج ارتكاب المعصية المفسدة للروح والقلب المانعة من تقبلهما لقضية الإيمان.

ومنه مكتسبٌ يترقى فيه العبد عن طريق الطاعة لله سبحانه والإخلاص فيها، وبمقدار ما يكون عليه من الطاعة، وصدق الإخلاص، والاستجابة الجادة لرصيده الإيماني الفعلي ومقتضاه، وما قام عليه من حجة إلهية يزداد الإيمان ويزكو، ويتألّق ويصفو، ويكون أكبر سعة، وأبعد عمقا، وأشدّ وضوحاً، وأرسخ وأزهر^(٢).

١. خطبة الجمعة (٣٨٠) ١٥ شعبان ١٤٣٠هـ - ٧ أغسطس ٢٠٠٩م.

٢. المصدر نفسه.

الفصل الخامس: طرق معرفة الله تعالى

”لا وجود على الإطلاق إلا والله مبدؤه ومنتهاه، ولا معرفة لأي مخلوق من الإنسان وغيره، من غير إلهام منه عز وجل، ومن غير منافذ توصل إليها موهبة من عطائه، إذ كل شيء من دونه فقير ذاتاً في وجوده، وكل ما له، وكل أثر من آثاره، ونعمة من نعمه، وخطوة رقي تتحقق له.

فالإنسان وهو يخضع لهذا الفقر الشامل، كسائر خلق الله، غير مكلف بأن يوجد منابع معرفته، ومنها: معرفته لربه تبارك وتعالى، أو أن يؤسس من نفسه لنفسه أي معرفة لا يملك لها منبعاً، ولا آلة توصله إليها.

ومن هنا كان لا بد كي يعرف الإنسان^(١)، أن يوجد الله سبحانه له المعرفة، أو أن يمهّد بوسائل توصله إليها.

وقد تكفّلت العناية الإلهية بمنح الإنسان درجة من المعرفة، وبوسائل تمكّنه من المزيد من المعرفة، وتبلور المعرفة.

وقد غرس سبحانه معرفته في نفوس عباده، وأعطاهم من أدواتها ما يُصحّ تكليفهم بالتوسّع فيها، وطلب المزيد حسب ما وهب لكل عبد من ذلك، على أنه لا معرفة لأحد

١. أي كي يقدر على المعرفة. «منه حفظه الله»

من خلق الله ﷻ يمكن أن تحيط به علماً، أو تدرك حقيقة ذاته أو صفة من صفاته^(١).
والآتي ذكره مما وهب الله تعالى لعباده من طرق ووسائل تُعرف وتركز وتنمي وتوسع معرفتهم به سبحانه:

الطريق الأول: الفطرة

"المبدأ [في المعرفة هو] الفطرة، [قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢). [وقال: ﴿صَبَغَ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾^(٣). [وقال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(٤).

والفطرة لغة: الخلق والإيجاد^{(٥)(٦)}.

و"انظر إلى الإنسان في كل وجوده، إنه يتجه دائماً في كل وجوده وحياته إلى الاستعطاء من مصدر واحد، مصدر يملك العطاء. الإنسان مستقطب إلى الله ﷻ، ومتمحور حول الله ﷻ، ومنشد إلى الله ﷻ في كل خلية من خلاياه، وفي كل ذرة من ذراته.

١. خطبة الجمعة (٥٩١) ٢٨ ربيع الآخر ١٤٣٥هـ - ٢٨ فبراير ٢٠١٤م.

٢. الروم: ٣٠.

٣. البقرة: ١٣٨.

٤. الزمر: ٣٨، لقمان: ٢٥.

٥. العين للخليل: ٧ / ٤١٨.

٦. خطبة الجمعة (٥٩١) ٢٨ ربيع الآخر ١٤٣٥هـ - ٢٨ فبراير ٢٠١٤م.

تطلب الخلية والذرة الوجود، وتطلب النظام، وتطلب الحركة، وتطلب الغاية، وتطلب المسار إلى الغاية، وليس من معط لأي شيء من ذلك إلا الله ﷻ.

على المكشوف نحن نبحت عن الأكسجين، والأكسجين من عند الله، نبحت عن الشعاع والشعاع من عند الله، نبحت عن الطعام والطعام من عند الله، نبحت عن كل حاجتنا وليس من مصدر لعطاء هذه الحاجات إلا الله.

هذا الإنسان بكل حركته التكوينية، متجه قهراً إلى الله ﷻ، ولو مال عن خط الله ميلاً بسيطاً، ولو بمقدار شعرة هلك، حيث أنه لو عطل تعامله الإيجابي مع أي قانون من قوانين الله ﷻ في الحياة، ولم يتفاعل معه التفاعل المطلوب، لانتهد حياته المادية؛ فحياة الروح هي كذلك، تنتهي بالميل عن الله ﷻ، ويسقط الإنسان روحياً، ويسقط الإنسان إرادياً إذا انحرفت إرادته، ولو بمقدار يسير عن اتجاهه الله ﷻ.

هذا معنى الفطرة، فإذا كنت قد فطرت على أن لا تعيش إلا بطعام وشراب وأكسجين، فأنت لا تستطيع أن تعيش بغير ذلك، وإذا كانت روحك قد فطرت على الدين، فإن بقاء الروح حية حيوية متحركة نامية، لا يمكن أن يحصل إلا من خلال انشدادها إلى الله ﷻ^(١).

الموارد التي فطر الإنسان عليها:

"والمعرفة الدينية الفطرية، لا تشمل كل تفاصيل الدين، كما هو واضح، فما هو الفطري منها الميل إلى الدين، وقضية التوحيد"^(٢).

١. خطبة الجمعة (٢٦٩) ٦ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ٢٦ يناير ٢٠٠٧م

٢. خطبة الجمعة (٣٧٩) ٨ شعبان ١٤٣٠هـ - ٣١ يوليو ٢٠٠٩م.

و"تؤكد النصوص المتواترة قرآنا وسنة، ويؤكد واقع حياة شعور الإنسان، وواقع تفكيره على أن قضية الإيمان لا تفدُّ على العقول من الخارج، الخطاب بقضية الإيمان خطاب داخلي تعيشه النفس، وتحتضنه الفطرة، وتثيره دائماً أمام الإنسان وتُلجّ عليه، لا أنه من تعليم معلّم، وتدرّس مدرّس، قضية الإيمان قضية عُجنت بفطرة الإنسان، وهي داخلة ضلعاً مهماً في مركّبه المعنوي بأصل الخلقة"^(١).

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢)، والآية "تتحدّث، عن أن الدّين وأوله: معرفة الله سبحانه، مفطور عليه الإنسان، وداخل خلقة في عجينة إنسانيته.. أصل الدين، والمنطلق الأوّل، والأساس الذي يقوم عليه بنيانه من معرفة الله ﷻ وتوحيده، شيء من تكوين الإنسان، وبعدّ أصيل خلقة من أبعاد إنسانيته، لا سعي له فيه^(٣)، ولم يُكلّف بطلبه^(٤)، وإن كان استكمال فهم الدّين محتاجاً إلى السعي العلمي من الإنسان، الذي رزقه الله وسيلة من العقل المدرك المستدلّ الذي وهبه له.

فمن مواهب الله الكبرى لهذا المخلوق: قوّة الإدراك، والاستدلال، والانتقال بالتفكير المنطقيّ من المقدمات إلى النتائج، ومن حاصل العلم إلى جديده، وكذلك بديهيات العقل،

١. خطبة الجمعة (٢٦٩) ٦ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ٢٦ يناير ٢٠٠٧م

٢. الروم: ٣٠.

٣. الإنسان لم يسع لإيجاد هذا الأصل وإنبات هذه المعرفة وغرسها. «منه حفظه الله»

٤. نحن نُكلّف بمثل الصلاة والصوم، ولم نُكلّف بأصل معرفة الله ﷻ، نعم أُعطينا القدرة على التوسّع في معرفته، والتركيز الأكبر لمعرفته في قلوبنا فنكون مكلفين بذلك. «منه حفظه الله»

من مثل: حاجة المعلول إلى العلة، وعدم تأخر المعلول عن علته، وعدم اجتماع النقيضين، مما يُمثّل الأصول التي يعتمد عليها السعي العلمي عند الإنسان، وبناء معرفته.

أضف إلى ذلك: أصول السلوك الصحيح، والأخلاق الكريمة عنده، وكذلك دوافعه المعنوية الرفيعة، وشوقه الذي لا ينقطع إلى الكمال^(١).

و"يسأل السائل عن معرفة العبد ربه سبحانه، تكسيها النفس، وإن كانت مقدماتها وأسبابها والقابلية لها موهوبة من الله سبحانه، أو أن المعرفة مغروسة فيها، والنفس مفطورة عليها، وإن كان ظهورها في أفق النفس وبصورة واضحة جلية يحتاج إلى بلوغ سن معين من العبد؟ والأمور الفطرية لا تظهر كلها بوضوح دفعة واحدة، وبصورة مبكرة عند الإنسان؛ فدافع الأكل والشرب يظهر مبكراً، بينما دافع الجنس مثلاً يتأخر في ظهوره بعض وقت، وكلّ منهما لا يُكتسب من الخارج، وإنما هما من منبع النفس بخلق من الله وتقدير.

وكون المجتمع البشري في كل تاريخه، وبمختلف مستوياته البدوية والحضارية، وفي جميع طبقاته، ورغم تعدد ثقافته لم يخلُ من الظاهرة الدينية في صورها المتعددة، وممارساتها المتباينة، دالٌّ على أن التدين ظاهرة فطرية، ولذا تأتي الأسئلة الدينية بمبادرة من الأطفال في سن مبكر في مثل السؤال عن خالق الشمس والقمر، والأب والأم وغير ذلك.

ويلازم السؤال الديني النفس البشرية في كل مراحل حياتها، منذ انفتاحها المبكر على

١. خطبة الجمعة (٥٩١) ٢٨ ربيع الآخر ١٤٣٥هـ - ٢٨ فبراير ٢٠١٤م.

هذا السؤال، ويلج عليها وإن كفرت، أو بقيت تحت سيطرة التشكيك لعوامل مؤثرة من السلوك والخارج.

وبعيداً عن هذا الطرح، الذي لا يُستهدف تناوله بإشباع في هذا المقام، فلنسمع إلى الكتاب الكريم في هذا الأمر: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

فالدين فيما تفهمه الآية الكريمة -وأساس الدين المتين معرفة الله وتوحيده- هو من الفطرة التي فطر الناس عليها، وليس على حدّ المسألة الرياضية والمسألة العلمية السياسية أو الاجتماعية أو التاريخية التي ليس وراءها دافع نفسيّ عامّ فطري، يجعلها محل الاهتمام والإثارة والنظر عند كل الناس.

مسألة الدين مسألة تمتلك جذورا عميقة ضاربة في النفس، لا يمكن أن تنفصل النفس عنها إلا أن تنهدم أو تنفصل عن نفسها.

بينما المسائل الأخرى، قد تمر الحياة على الألف والألفين والمليون والمليونين من الناس، ولا تمرّ على خاطر واحد منهم. هل تتصور إنساناً غير متخلف عقلياً بدرجة كبيرة، يُميز ويبلغ ويرشد مدة الحياة الطبيعية، أو أقل من ذلك، ولا ينطرح في نفسه أن لهذا الكون الكبير خالقاً عظيماً مدبراً، ولو كان هذا الإنسان يعيش بعيداً عن كل المؤثرات الحضارية، أو حتى لو كان في قلب الحضارة المادية، وتحت تأثير ضجيجها وصخبها؟! وحتى



الذين يناقشون المسألة ويشكّكون فيها، أنفسهم مشغولة بفكرة إيمانية، يجدون أنها تريد فرض نفسها على داخلهم، ويحاولون التخلص من ضغطها، ولا يكادون يستطيعون.

وما يجعلهم يصرون على المقاومة، هو أنّهم وضعوا أنفسهم من ناحية سلوكية، وحسب المصالح المادية، بحيث يصعب على النفس أن تلتقي مع مقتضى خطّ الإيمان، وتلتزم بتكاليفه.

إنهم هبطوا بأنفسهم من خلال انحراف السلوك، ومن خلال الموقف المعاند لشعاع نور الفطرة بحيث أنّ هذه النفوس بقيت لا تستطيع أن ترتفع إلى أفق الإيمان، وتلتزم بمقتضى خطّه الصاعد.

يقول القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً^(١) قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ^(٢)﴾ *

١. واضحة، جلية، ولا وضوح للآية ما لم تكن نفس قابلة لاستقبالها، والاستفادة من وضوحها، لا تكون الآية واضحة حتى يمكن للنفس أن تتفهمها، وأن تحتضنها، وتتلقفها، أما لو كانت النفس الإنسانية مغلقة، وكان الكون كله آيات مشعة والنفس لا قدرة لها حسب خلقها على استقبال شيء من الآيات لما كانت هذه الآيات مبصرة بحيث أنه يخاطب الإنسان بكونها مبصرة، ويحتج عليه بذلك. «منه حفظه الله»

٢. هناك عقل يقول بأن هذه الآيات مبصرة، وهي بحسب طبيعتها آيات مبصرة، لكنّ نفساً لعب بها صاحبها، وانحدر بمستواها، وسد منافذها على نور الله تبارك وتعالى، تقول هذا سحر مبين. «منه حفظه الله»

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا^(١) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢﴾.. إِنَّ مَكَابِرَةَ الْحَقِّ الْمَعْلُومِ لَأَمْرَاضٌ فِي النَّفْسِ لَيْسَ ظَاهِرَةً شَحِيحَةً حَتَّى فِي حَيَاةِ الدَّائِرَةِ الْإِيمَانِيَّةِ الْعَامَّةِ كَمَا هُوَ مَلَا حَظٌ لِمَنْ يَبْصُرُ^(٣).

”ومن وحي فطرة التوحيد، ومعرفة الله ﷻ في الإنسان، تجده لا يتخلف ولا يتردد في الإجابة على سؤال: مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟، وحيث يتخلى عن جحوده وعناده، ولا يخضع لجاهليته منطلقاً من محض الفطرة عن الجواب: بَأَنَّهُ اللهُ، وهو إذا عاند مكابراً أجاب داخله^(٤): أَنَّهُ اللهُ، لا شريك له.

والحديث عن الرسول وآله (صلى الله عليه وعليهم أجمعين)، غنيٌّ ببيان فطرة الدين الحق، والتوحيد في كيان الإنسان، كما أثبت ذلك القرآن.

عن الإمام الباقر عليه السلام: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ؛ يَعْنِي عَلَى الْمَعْرِفَةِ بِأَنَّ اللَّهَ ﷻ خَالِقُهُ، كَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَّيْنِ سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

١. قد توجد حالة استكبار وطاغوتية في النفس تجعل من المستحيل عليها أن تدعن للحق، وأنا وأنت ندخل في نقاش وقد يكون النقاش باسم الدين، وأحدنا يصل إلى قناعة فكرية بما عند الآخر، لكن إذا كان في نفسه استكبار واعتداد بالذات فإنه لا يسلم. أعاذنا الله من هذه الحالة. «منه حفظه الله»

٢. النمل: ١٣-١٤.

٣. خطبة الجمعة (٣٧٩) ٨ شعبان ١٤٣٠هـ - ٣١ يوليو ٢٠٠٩م.

٤. رغماً عليه. «منه حفظه الله»

لَيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴿١﴾» (٢).

فهذا الجواب، جوابُ الفطرة، وهذا ما تنطق به على لسان الطفل عندما يردُّه هذا السؤال، ما لم تتدخل التربية الفاسدة في التشويش عليه وحرفه (٣).

وعن زرارة: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (٤). قَالَ: «فَطَرَهُمْ عَلَى مَعْرِفَتِهِ أَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَعْلَمُوا، إِذَا سُئِلُوا: مَنْ رَبُّهُمْ، وَلَا مَنْ رَازِقُهُمْ» (٥).

وعن الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللَّهُمَّ خَلَقْتَ الْقُلُوبَ عَلَى إِرَادَتِكَ، وَفَطَرْتَ الْعُقُولَ عَلَى لَمَعْرِفَتِكَ، فَتَمَلَّمْتَ الْأَفْنَدَةَ مِنْ مَخَافَتِكَ، وَصَرَخَتْ الْقُلُوبُ بِالْوَلِّهِ، وَتَقَاصَرَ وَسْعُ قَدْرِ الْعُقُولِ عَنِ الثَّنَاءِ عَلَيْكَ» (٦).

وعن الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بِصْنَعِ اللَّهِ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ (٧)، وَبِالْعُقُولِ تُعْتَقَدُ مَعْرِفَتُهُ، وَبِالْفِطْرَةِ

١. التوحيد للشيخ الصدوق: ٣٣١ ح ٩.

٢. وهو حين يسألك من خالق هذا الكون؟ فهو يؤمن في داخله وبكله بأن هذا الكون لا بدَّ له من خالق. «منه حفظه الله»

٣. ما هو معناها؟. «منه حفظه الله»

٤. الروم: ٣٠.

٥. بحار الأنوار للمجلسي: ٣ / ٢٨٩ ح ١٣.

٦. مهج الدعوات ومنهج العبادات لابن طاووس: ١٢٠.

٧. هذا طريق آخر. «منه حفظه الله»



تَثْبُتُ حُجَّتُهُ»^(١).

فالعقول مشدودة شدة لا ينفكُّ ومن خلقتها -وتبقى على ما خلقت- بمعرفة بارئها سبحانه، فكلما حضرَ العقلُ حضرت معه معرفته لله الذي أودعه معرفته^(٢).

ومهما جحد المجاهدون بالله فإنَّ معرفتهم الفطرية به، والتي أودعها في كيانهمْ وأصمَّ عن ندائها الأكثر منهم سوء ما كسب على نفسه، وما شوَّهت التربية المنحرفة من داخله ناطقة عند الوقوع في الشدة التي لا يجدون مخلصاً منها من كلِّ الأسباب، وفي كلِّ الحيل حيث يثور عندئذ في النفس المجاهدة قبل ذلك تطلُّ صادق إلى القادر الذي لا تحكمه الأسباب، ولا يمتنع عليه شيء^(٣)، وهو مطَّلِع على جميع الخلق، ولا يغيب عن علمه شيء، وليس من هو هكذا إلا الله سبحانه وتبارك وتعالى^(٤).

عن الإمام العسكري عليه السلام: «(الله) هُوَ الَّذِي يَتَأَلَّهُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْحَوَائِجِ وَالشَّدَائِدِ كُلِّ

١. التوحيد للصدوق: ٣٥ ح ٢. فأصلُ الحجة على الإنسان في معرفة الله هو ما وهبه الله ﷻ من هذه الفطرة خلقاً. «منه حفظه الله»

٢. لا معرفة لي بالله ﷻ معناه لا حضور للعقل عندي. «منه حفظه الله»

٣. وهو يحكم الأسباب، وهو خالق الأسباب. «منه حفظه الله»

٤. هو لا يُسمِّيهِ الله ﷻ، لكن يتطلَّع قلبه، وتنشُد نفسه إلى ذلك القادر العليم الذي لا يمتنع شيء، ومن هو ذلك الذي يشير إليه أو الذي ينادي به قلبه وتعجُّ إليه نفسه في تلك اللحظة الحرجة الحاسمة؟ «منه حفظه الله»



مَخْلُوقٍ عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَاءِ مِنْ كُلِّ مَنْ هُوَ دُونُهُ، وَتَقَطُّعِ الْأَسْبَابِ مِنْ جَمِيعِ مَا سِوَاهُ»^(١).

والتَّأَلُّهُ: التَّعَبُّدُ. وتألَّهُ العبدُ إلى الربِّ العزيزِّ العليمِ الرحيمِ عند الشَّدَّةِ^(٢) بالانقِطَاعِ إليه، والاستعانة به، والتوكُّلُ عليه^{(٣)(٤)}.

جمالُ الفِطْرَةِ وإِحْكَامِهَا:

”نقرأ في هذا السياق من القرآن الكريم: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾^(٥): هي الفِطْرَةُ، والتي ليس فوق جمالها بالنسبة لهذا الإنسان جمال، وليس فوق إحكامها إحكام، وليس فوق هادفتها أيَّ هادفةٍ”^(٦).

والآيَةُ ”تتحدث عن صبغة الله، وأنَّ الإنسان قد صبغه ربُّه الخالق المبدع بصبغة الدِّينِ والتوحيد، ووفَّرَ له هذا النُّورَ في أصل خلقه.

وتلك الصبغة بها طُهر الإنسان وجماله وروعته ورفعته، فإنَّ ضيِّعها وتخلَّى في سير حياته عنها تخلَّى عن كلِّ طُهره وجماله وهداه.

١. التوحيد للشيخ الصدوق: ٢٣١ ح ٥.

٢. ما هذا التألُّهُ؟ يُصَلِّي؟ يصوم؟ لا. «منه حفظه الله»

٣. وهذه هي حقيقة ولبُّ التعبُّد. «منه حفظه الله»

٤. خطبة الجمعة (٥٩١) ٢٨ ربيع الآخر ١٤٣٥هـ - ٢٨ فبراير ٢٠١٤م.

٥. البقرة: ١٣٨.

٦. خطبة الجمعة (٢٦٩) ٦ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ٢٦ يناير ٢٠٠٧م.

ولا صِبْغَةٌ يمكن أن تأخذ مكان هذه الصبغة وتقوم مقامها وتعطي ما لها من عطاء.

ولا يمكن فرض صبغة أحسن من صبغة من صنع الله تبارك وتعالى.

هذه الصبغة العظيمة كما في الحديث هي الإسلام. ففي صحيح عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله ﷺ: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾^(١). قال: «الصَّبْغَةُ هِيَ الْإِسْلَامُ»^(٢).

والمسيحيون يغسلون المولود في يومه السابع بماء عمودية، وبذلك يعطونه الطهارة كما يقولون، ولكن أين هذا من طهارة عقل وقلب وروح من خلق الله في عجينة إنسانية إنسانية؟!

طهارةُ بدن خارجية عابرة تزول بأدنى سبب، أينها من تلك الطهارة الثابتة في باطن الإنسان، ولا تنفك عن خلقته، وإن حاول أن يطمسها الأشقياء من أبناء الإنسان، ويطفئوا نورها لتكون عليهم بسوء اختيارهم حُجَّةٌ من دون أن ينتفعوا بها؟!^(٣).

أقسام الفطرة:

"تقدّم أن أصل معرفة العبد لربه سبحانه من صنع الله ﷻ في نفس العبد وأنه قد فطرها بقدرته في هذه النفس. وهذه الفطرة [على أقسام:

١. البقرة: ١٣٨.

٢. الكافي للكليني: ٢/ ١٤٠ ح ١.

٣. خطبة الجمعة (٥٩١) ٢٨ ربيع الآخر ١٤٣٥ هـ - ٢٨ فبراير ٢٠١٤ م.



[القسم الأول:] رُوحِيَّةٌ قَلْبِيَّةٌ، لا تحتاج إلى استدلال، ولا لأكثر من شعور الرُّوح بنفسها، والقلب بنفسه مع صفائهما ونقائهما وانعدام الحواجب المكتسبة من النفس^(١). فما شَعَرَتْ رُوحٌ بنفسها، وقلبٌ بنفسه والحال هذه، إلا وعرفا الله، وسلَّما أمرهما إليه، فمعرفة الله تبارك وتعالى لا تحجبها عن النفس، ولا تُنسيها إياها إلَّا الذُّنُوب، وإلَّا كفى لها أن تلتفت النفس إلى ذلَّتْها لتلتفت إلى الله^(٢).

القسم الثاني: "المعرفة الفطرية العقلية، وهذه يكفي في حضورها عند العقل أن يتوجَّه إلى الكون، وما عليه نظامُ الكون من دِقَّةٍ ورصانةٍ وبناءٍ حكيمٍ متينٍ، من غير دخولٍ في عملية استدلال معقَّدة أو بسيطة، وبلا حاجةٍ إلى مقدِّماتٍ من غير هذا التوجُّه.

فالمعرفة الأولى [التي ذكرت في القسم الأول] وجدانية بدرجة أكبر، على أنَّ الثانية ميسَّرة لكلِّ نفس إنسانية، ولا تحتاج إلى شيءٍ غير التوجُّه لما عليه الكون العظيم^(٣).

الفطرة أساس قاعدة البناء:

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾^(٤).. "الأساس الذي أتيح للإنسان أن يبني عليه أفكاره، ومشاعره، وأوضاع حياته هو أساس الفطرة والإيمان، وفي ذلك انسجام، وفي ذلك توافق، وأمَّا أن يقيم الإنسان بناءه الفوقي من

١. التي تحوّل بينهما وبين معرفة الله ﷻ. «منه حفظه الله»

٢. خطبة الجمعة (٥٩٢) ٥ جمادى الأول ١٤٣٥هـ - ٧ مارس ٢٠١٤م.

٣. المصدر نفسه.

٤. الروم: ٣٠.

أفكار ومشاعر وأوضاع على خلاف ما عليه قاعدة البناء، وهي الفطرة، ففي ذلك كلّ الانشطار، وكلّ التهافت وكلّ الشقاء، فالآية الكريمة تأمر بإقامة الوجه حنيفاً بلا ميل، لا إلى يسار ولا إلى يمين. الأمر أن يقام الوجه على خطّ الدين، خط الفطرة، خط التوحيد.. أن يتجه الوجدان، أن تتجه المشاعر، أن تتجه الأفكار، أن تنشط الجوارح على خطّ مستقيم واحد، هو خط الله وتوحيده تبارك وتعالى، بلا ميل إلى اليمين أو إلى الشمال، فليس من دون الصراط إلا السقوط في الشقاء^(١).

أدلة فطرية الإيمان بالله وتوحيده:

قد تعرّض الكتاب والسنة إلى العديد من الأدلة التي تقرر الحقيقة الفطرية، أمّا من القرآن فمن تلك الأدلة الآتي:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾^(٢). فالدين فطرة، ومن صميم الخلق، فما دام إنسان، فالدين دائماً شيء من ضميره، وممتزج بفطرته، لا انفكاك بين هذا الإنسان وبين فطرة الدين، والإنسان إما أن ينقسم على نفسه فيكون داخله في اتجاه، وخارجه في اتجاه آخر، وإما أن يكون منسجماً مع نفسه، فيكون خارجه كما هو داخله، في تطابق، وعلى خطّ واحد. ولا يعيش الإنسان حالة الانسجام إلا بأن تتسق مواقفه مع فطرته، وقد فطر على دين الله تبارك وتعالى.

١. خطبة الجمعة (٢٦٩) ٦ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ٢٦ يناير ٢٠٠٧م.

٢. الروم: ٣٠.

يشقى الإنسان نفسه أيّ شقاء إذا انقسم على نفسه، وإذا عاش في داخله حالة الانشطار والتعارض، بين دوافع المادة والروح^(١).

"نعم إن الدين فطرة وليس من صنع الخارج، الدين لا تزرعه التربية في النفس، ولا الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ولا عوامل الخوف والحزن وما إلى ذلك، الدين كما قرّر القرآن الكريم فطرة، وأن الإنسان لم يخلق إلا على دين، ولم يخلق على دين متعدّد، وإنما خلق على دين واحد، وهو دين الله تبارك وتعالى.. دين التوحيد"^(٢).

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾^(٣).. [فإنّ] فطرنا تقول: بلى، وجدانا الطاهر يقول: بلى، وعينا الباطني يقول: بلى، حاجتنا الى الوجود، حاجتنا الى الحياة والتي لا يمكن استرفادها إلا من الله تقول: بلى.

أصل إحساس الانسان بوجوده وهو غير موجود بذاته كما في شعوره الباطني يشهد بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له^(٤).

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(٥): هناك جواب فوري.. جواب لم تصنعه التربية.. جواب يعيشه المؤمن والكافر،

١. خطبة الجمعة (٢٦٩) ٦ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ٢٦ يناير ٢٠٠٧م.

٢. خطبة الجمعة (٢٦٩) ٦ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ٢٦ يناير ٢٠٠٧م.

٣. الأعراف: ١٧٢.

٤. خطبة الجمعة (٢٧٠) ١٣ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ٢ فبراير ٢٠٠٧م.

٥. الزمر: ٣٨.

ولو في باطنه.. ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(١): ليس هناك من يقول رئيس دولة صغيرة أو كبيرة، أو عالم صغير أو كبير، وليس هناك من يقول: أنا الذي خلقت السموات والأرض. وليس هناك من يقول: بأن الذي خلق السموات والأرض ملكٌ يملك طاقة هائلة جداً، ولكنها محدودة، وأنه يحتاج الى مُوجد. الذي تقوله الفطرة: بأن هذا الموجود بموجد، وبموجد لا يحتاج من خارجه الى الوجود^(٢).

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾^(٣): متجهين لله بلا ميل، هذه هي الحياة الصحيحة، هذا هو الوعي، هذا هو الرشد، هذه هي الحكمة، هذه هي الإرادة الخيرة، هذه هي الهادفة والبصيرة.. ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾^(٤): متجهين لله، لا يميل بهم عاصف^(٥).

وأما "إذا رجعنا إلى السنة المطهرة وجدناها تؤكد على ما يؤكد عليه الكتاب الكريم -وهما القرينان دائماً- من فطرية المعرفة"^(٦)، فنقرأ من الحديث في هذا الصدد في قوله تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ﴾^(٧): «التَّوْحِيدُ»^(٨). فسّر الامام الصادق عليه السلام الفطرة بالتوحيد^(٩)، وأن

١. الزمر: ٣٨.

٢. خطبة الجمعة (٢٧٠) ١٣ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ٢ فبراير ٢٠٠٧م.

٣. الحج: ٣١.

٤. الحج: ٣١.

٥. خطبة الجمعة (٢٧٠) ١٣ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ٢ فبراير ٢٠٠٧م.

٦. خطبة الجمعة (٣٧٩) ٨ شعبان ١٤٣٠هـ - ٣١ يوليو ٢٠٠٩م.

٧. الروم: ٣٠.

٨. التوحيد للصدوق: ٣٣٨ ح ١. رواه العلا بن فضيل، عن أبي عيد الله عليه السلام.

٩. التوحيد للصدوق: ٣٣٨ ح ٢. رواه هشام بن سالم، عن أبي عيد الله عليه السلام.



التوحيد في النفس من زراعة الله ﷻ في خلقه لها^(١).

وعن زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله ﷻ: ﴿فَطَرَهُ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾^(٢). قال: «فَطَرَهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ أَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَعْلَمُوا إِذَا سُئِلُوا مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا مَنْ رَازَقَهُمْ»^(٣).

وعن الرسول ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، يَعْنِي: الْمَعْرِفَةَ بِأَنَّ اللَّهَ ﷻ خَالِقُهُ، كَذَلِكَ قَوْلُهُ^(٤): ﴿وَلْتَن سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ ﷻ﴾»^(٥)، الآية الكريمة تقول: بأن في داخلكم جواباً حاضراً فعلياً، على سؤال من خلق السموات والأرض؟ وهو جواب النفس المعلن صريحاً، ما لم يطرأ عليها الغبار والضلال والتضليل، وأن خالق السموات والأرض: الله تبارك وتعالى.

نفسك لو تركت لنفسك، فطرتك لو بقيت عليها، لم تأخذ بك إلى عبادة صنم من حجر أو طين ولا إنسان لا تأخذك إلى عبادة أحجار ولا نار ولا شجر ولا بشر، إنما تأخذك لعبادة الواحد الأحد تبارك وتعالى.

في قوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾^(٦)، سئل أي الإمام الباقر عليه السلام: مَا الْحَنِيفِيَّةُ؟ قَالَ: «هِيَ

١. خطبة الجمعة (٢٧٠) ١٣ محرم الحرام ١٤٢٨ هـ - ٢ فبراير ٢٠٠٧ م.

٢. الروم: ٣٠.

٣. المحاسن للبرقي: ١ / ٢٤١ ح ٢٢٤.

٤. في رواية الصدوق: «فَذَلِكَ قَوْلُهُ»: التوحيد للصدوق: ٣٣٠ ح ٩.

٥. الزمر: ٣٨.

٦. الكافي للكليني: ٢ / ١٢ ح ٤.

٧. الحج: ٣١.

الْفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا»^(١). فالحنيفية الاستقامة على خطِّ الفطرة، خطُّ التوحيد لله الواحد الأحد، بلا التفات إلى نعيم بيسار أو يمين^(٢).

و"عن زرارة، عن أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: (سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾^(٣)؟ قَالَ: «الْحَنِيفِيَّةُ مِنَ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾^(٤)؟ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ قَالَ فَطَرَهُمْ عَلَى الْمَعْرِفَةِ بِهِ»^(٥).. فطر الناس على معرفته ﷻ.

فالحنيفية، وهي: الدين الحق من فطرة الإنسان، ونور تشرى به خلقه، وشيء أصيل ثابت في كيانه.

والحنف في اللغة: هو الميل من الضلال إلى الهدى، على عكس الجنف وهو الميل من الهدى إلى الضلال^(٦).

و"النصوص بالغة حدّ التواتر، والمسألة بالغة حدّ اليقين، وهي مسألة أن رؤية الاسلام في معرفة الله تبارك وتعالى أنها لا تحتاج في أصلها إلى تعليم، ولا تحتاج الى بناء فلسفي من الخارج يدلل عليها، نعم للفلسفة دور للبلورة بدرجة أكبر، التركيز بدرجة أكبر، دفع الشبهات.

١. المحاسن للبرقي: ١ / ٢٤١ ح ٢٢٣. وَالسَّائِلُ هُوَ الرَّوَّايُ عُمَرُ بْنُ أُذَيْنَةَ.

٢. خطبة الجمعة (٢٧٠) ١٣ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ٢ فبراير ٢٠٠٧م.

٣. الحج: ٣١.

٤. الروم: ٣٠.

٥. الكافي للكليني: ٢ / ١٣ ح ٤.

٦. خطبة الجمعة (٣٧٩) ٨ شعبان ١٤٣٠هـ - ٣١ يوليو ٢٠٠٩م.



أما أن أصل معرفة الله ﷻ فهو مختمر في داخل النفس البشرية فما أن يصل الإنسان إلى حد التمييز حتى تتفتح مشاعره وتنطلق روحه في اتجاه الله تبارك وتعالى إذا لم يقف في وجهه المفسدون والمضللون^(١).

شرط صيانة الفطرة:

"يبقى أن نفوذ أضواء الهداية لهذه الآيات إلى الوجدان، وإكسابها اليقين بقضية الإيمان، مشروطاً بأن يحتفظ الإنسان بكونه من أولي الألباب الحية الفاعلة، غير المغلوبة للهوى، المحجوبة برينها عن النور، المعطلة بمعاصي النفوس عن الإبصار. علينا أن نوفر هذا الشرط، أن لا نفسد الفطرة، أن لا نأتي على معالم النور في داخلنا، على قابلية امتصاص النور في داخلنا"^(٢).

"آيات الخلق للإنسان، وما يدب على وجه الأرض وفي تربتها مما ليس له عد، تُغذي العقول بالمعرفة، وتوفر للقلب اليقين، وهي ميسرة لنظر العقول، وفقه القلوب على تفاوت أقدارها، وهي كافية لتأكيد قضية الإيمان وترسيخها، والشرط الوحيد لذلك: أن لا يفسد الإنسان قلبه، ويعكّر صفوه، وينتهي به إلى طمس فطرته بسوء اختياره، حتى يفقد القلب قابلية الاستيقان بأوضح الحقائق، وألمعها، وأقواها، مستوى في الظهور.

﴿لَقَوْمٌ يُوقِنُونَ﴾^(٣): حافظوا على قابلية الإيقان، أبقوا من ذواتهم استعداد كسب اليقين، لم يسدوا كل منافذ القلوب والضمائر والوجدان، حتى يحجبهم ذلك عن نور الإيمان،

١. خطبة الجمعة (٢٧٠) ١٣ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ٢ فبراير ٢٠٠٧م.

٢. خطبة الجمعة (٢٧٢) ٢٧ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ١٦ فبراير ٢٠٠٧م.

٣. الجاثية: ٤.



وعن حلاوة اطمئنان اليقين^(١).

أسباب الكفر:

"تبقى مسألة خطيرة: لماذا الكفر، والعالم كله آيات؟ الإنسان كل جزء منه مليء بالآيات، زخار بالآيات، وكل ما تقع عليه عينه زخار بالآيات، فكيف يكفر الناس؟"^(٢).

الجواب: يكفر لأسباب منها الآتي:

السبب الأول: ارتكاب المعاصي

"الآيات الكريمة تحيب: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾"^(٣)، هذا التكذيب، هذا الاستهزاء ناتج لأي شيء؟ لأنهم أساءوا السوء، وارتكبوا السوء، لازموا السوء، ومن السوء أن أنكر ما أعلم، أن أستكبر على ما أعلم، أن أجادل بالباطل، أن أتبع الهوى، أن أسقط في سلوكي، أن أبشر الرذائل"^(٤).

"من حجب قلبه الذنوب، وأعمت عقله الآثام فصار به ذلك إلى أن لا يرى الله سبحانه، ولا يعرفه وقع في الشك المغرق دون أن يملك من عقله وقلبه ما يجعله ينكر الله،

١. خطبة الجمعة (٢٧٢) ٢٧ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ١٦ فبراير ٢٠٠٧م.

٢. خطبة الجمعة (٢٧٦) ٢٦ صفر ١٤٢٨هـ - ١٦ مارس ٢٠٠٧م.

٣. الروم: ١٠.

٤. خطبة الجمعة (٢٧٦) ٢٦ صفر ١٤٢٨هـ - ١٦ مارس ٢٠٠٧م.



ويُوفَّر له على إنكاره الدليل^(١).

والشَّاك في مثل هذا الأمر العظيم الأعظم من بين كلِّ الأمور العقل إنما يقول له إنَّ عليك الاحتياط.

وعن عدم القدرة على إنكار الله ممن سدَّ على نفسه قدرة التصديق به، لسوء ما كسبت يده تقول الكلمة عن الإمام عليٍّ عليه السلام: «الْحَمْدُ لِلَّهِ... الَّذِي بَطَّنَ مِنْ خَفِيَّاتِ الْأُمُورِ، وَظَهَرَ فِي الْعُقُولِ بِمَا يُرَى فِي خَلْقِهِ مِنْ عِلَامَاتِ التَّدْبِيرِ، الَّذِي سَأَلَتِ الْأَنْبِيَاءُ عَنْهُ فَلَمْ تَصِفْهُ بَحَدٍّ وَلَا بِنَعْصٍ، بَلْ وَصَفَتْهُ بِفَعَالِهِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ بِآيَاتِهِ، لَا تَسْتَطِيعُ عُقُولُ الْمُتَفَكِّرِينَ جَحْدَهُ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فِطْرَتَهُ، وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ، وَهُوَ الصَّانِعُ لَهُنَّ؛ فَلَا مَدْفَعَ لِقُدْرَتِهِ»^(٢).

ومعرفة القلب لله معرفته له جليلاً لا يُحدَّ جلاله، جميلاً لا يتناهى جماله، كاملاً لا أُفُقَ لكماله، ممتنعاً أن يُدرك أي عقل وأي قلب حقيقة ذاته، أو صفةٍ من صفاته فلا عقل ولا قلب على الإطلاق يمكن من بعد ذلك أن يدنو من ذلك فضلاً عن أن يناله حقيقة ذات الله أو حقيقة صفة من صفاته^(٣).

١. ليس من عقل على الإطلاق يمكن أن يملك دليلاً على نفي ألوهية الله تعالى، العقل يقع في الشك، القلب يقع في الشك لسوء ما كسبت اليد، لكن أن يكون لأحد دليل على نفي الوجودِ إلهي فذلك مما هو مستحيل تماماً. «منه حفظه الله»

٢. الكافي للكليني: ١ / ١٤١ ح ٧.

٣. خطبة الجمعة (٥٩٢) ٥ جمادى الأول ١٤٣٥ هـ - ٧ مارس ٢٠١٤ م.



السبب الثاني: ارتكاب الظلم

قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾^(١) هناك خلفية ظلم وراء هذا الجحد، والظلم واسع المساحة. أي خروج على الحق هو ظلم، أي تعدّ عن العدل هو ظلم، لما أجادل بالباطل في المسألة الصغيرة فهذا ظلم، ويجرّني في الأخير إلى الكفر، إلى الجحود.

﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾^(٢) ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾^(٣) الظلم والعلو راجع في الآية للجحد، يعني هذا الجحد ما جاء من فراغ أو من فقد الدليل، وإنما جاء للظلم والعلو، هناك خلفية علو وراء الجحد، فمع استيقان النفس للحقيقة إلا أنها لا تملك إلا أن تجحدها بعد أن سقط مستواها بسوء الاختيار، وبفعل السوء^(٤).

السبب الثالث: التكبر بغير الحق

"الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿سَأَصْرِفُ﴾ بالقوانين العادلة، بالعلاقات السببية العادلة، عن طريق العلية والمعلولية، الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق عن الاهتداء والاستفادة بأنوار الآيات ودلالاتها، والله هو المالك للأسباب والعلل والمعلولات، ولا يتقيد فعله بهذه العلاقة التي أوجدها تبارك وتعالى، ولكن أفعاله سبحانه جارية عن طريق السببية وعن طريق العلية، وفي الغالب العلل المجعولة هي التي تفعل بإذنه، والله عَزَّ وَجَلَّ أملك من أن تتقيّد إرادته ومشيتته بهذه العلل.. ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ

١. العنكبوت: ٤٩.

٢. النمل: ١٤.

٣. الأنعام: ٣٣.

٤. خطبة الجمعة (٢٧٦) ٢٦ صفر ١٤٢٨هـ - ١٦ مارس ٢٠٠٧م.



الْحَقُّ^(١) ^(٢).

موقظات الفطرة:

"والآن مع شيءٍ من الحديث المعصومي لإيقاظ فطرة التوحيد في داخل النفوس"^(٣)، وفي إطار هذا الحديث يُمكن الإشارة إلى العوامل الآتية:

العامل الأول: التعصي على المشاريع الظالمة

"كثيراً ما تشوّش عليها [على إيقاظ فطرة التوحيد في داخل النفس]: أوضاع السياسة الظالمة، والإعلام المضلل، والإلهاء والإغواء، والتزوير والعمليات المتعمدة لصرف النظر عن الرب إلى الربوبين، وعن الخالق إلى المخلوقين، وإلى العبيد عن المعبود"^(٤)، والمنتبه لهذا التشويش لن يخضع لتأثيراته.

العامل الثاني: التأمل في تجلّي الخلق بالحق

"نقرأ في هذا المجال -هذا النص-: كان كثيراً ما يقول -أمير المؤمنين عليه السلام- إذا فرغ من صلاة الليل: «أَشْهَدُ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَمَا بَيْنَهُمَا آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَيْكَ، وَشَوَاهِدُ تَشْهَدُ بِمَا إِلَيْهِ دَعَوْتُ»^(٥)، ثم يقول عليه السلام -بعد أن أعطى السماوات والأرض الدلالة على

١. الأعراف: ١٤٦.

٢. خطبة الجمعة (٢٧٦) ٢٦ صفر ١٤٢٨هـ - ١٦ مارس ٢٠٠٧م.

٣. خطبة الجمعة (٢٧٢) ٢٧ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ١٦ فبراير ٢٠٠٧م.

٤. المصدر نفسه.

٥. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٠ / ٢٥٥ ح ١. دعوت من الإذعان لقضية التوحيد، وإخلاص العبودية لك وحدك لا شريك له. «منه حفظه الله»

الله:- «كُلُّ مَا يُودِّي عَنْكَ الْحُجَّةَ، وَيَشْهَدُ لَكَ بِالرَّبُّوبِيَّةِ، مُوسُومٌ بِأَثَارِ نِعْمَتِكَ، وَمَعَالِمَ تَذْيِيرِكَ»^(١). فالدلالة أصلاً ليست للسموات والأرض، إنما الدلالة أصلاً منك عليك، وأنت المتجلّي الحقّ الذي أعطى السموات والأرض شيئاً من درجة التجلّي، فهي التي ظهرت بك، وليس أنت الذي ظهرت بها.

ويقول عليه السلام: «بُصِنَ اللَّهُ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ^(٢)، وَبِالْعُقُولِ تُعْتَقَدُ مَعْرِفَتُهُ^(٣)، وَبِالْفِكْرِ تَثْبُتُ حُجَّتُهُ^(٤)، وَبِآيَاتِهِ احْتِجَّ عَلَى خَلْقِهِ»^(٥).

وعن أبي الحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام أنّه دخل عليه رجلٌ، فقال له: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، مَا الدَّلِيلُ عَلَى حَدَثِ الْعَالَمِ؟ قَالَ: «أَنْتَ لَمْ تَكُنْ ثُمَّ كُنْتَ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ لَمْ تُكُونَ نَفْسَكَ^(٦)، وَلَا كَوْنَكَ مَنْ هُوَ مِثْلُكَ»^(٧).

لماذا أنت عجزت عن تكوين نفسك، وأنت أولى بأن توجد نفسك؟ أليس لأنك ممكن؟ إذاً كلّ الممكنات ينسحب عليها استحالة أن تكونك من موقع إمكانها، والإمكان

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٢٠ / ٢٥٥ ح ١.

٢. بصنعه بما هو صنعه. «منه حفظه الله»

٣. وكما أن الصنع صنعه، فإن العقول من عنده ومن فيضه، فالجميل كله له، والدلالة إنما هي قائمة به. «منه حفظه الله»

٤. يأتي دور المنطق العقلي المتقدم، للاستفادة فوق ما عليه نور الفطرة من آيات الأنفس والآفاق. «منه حفظه الله»

٥. تحف العقول للحراني: ٦٢.

٦. والمكابرة في هذا المجال لا أظنّ أن أحداً يرتكبها فيدّعي أنه هو الذي كوّن نفسه. «منه حفظه الله»

٧. التوحيد للصدوق: ٢٩٣ ح ٣.



حَظَّ كُلُّ مَا عَدَا وَمِنْ عَدَا اللَّهِ، وَالْإِمْكَانُ هُوَ مَعْنَى أَنْ الذَّاتَ وَاقِفَةً بِلِحَازِ ذَاتِهَا فِي نَقْطَةٍ وَسَطٍ بَلَا أَدْنَى مِيلٍ مِنْ دَاخِلِ ذَاتِهَا، بِحَيْثُ لَا مَقْتَضِي لَهَا لِعَدَمٍ وَلَا وَجُودٍ، فَضْلًا عَنْ فَاعِلِيَّةِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ.

[وَعَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ] فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(١)، [قَالَ]: يَعْنِي: أَعْمَى عَنِ الْحَقَائِقِ الْمَوْجُودَةِ^(٢).

وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا هُوَ الْعَمَى فِي الدُّنْيَا، وَالَّذِي يَسْتَتْبِعُ عَمَى آخِرٍ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ الْعَمَى عَنْ مَسَالِكِ السَّعَادَةِ وَصَرَاطِ الْجَنَّةِ^(٣).

العامل الثالث: مراجعة البداية والنهاية

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾^(٤).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾^(٥).

وَالْآيَةُ الْأُولَى تَقُولُ: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾^(٦)، وَمِنْ بَعْدِهَا ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾^(٧).

١. الإسراء: ٧٢.

٢. التوحيد للصدوق: ٤٣٨ ح ١.

٣. خطبة الجمعة (٢٧٢) ٢٧ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ١٦ فبراير ٢٠٠٧م.

٤. الطارق: ٥.

٥. الروم: ٢٠.

٦. الطارق: ٥.

٧. الطارق: ٦-٧.



يكفي هذا الإنسان لأن يدعن الله تبارك وتعالى عقلاً وشعوراً وسلوكاً، أن يراجع بدايته وما قبل البداية؛ ما قبل بدايته الأولى المتواضعة كان عدماً محضاً، وكانت له بداية من تراب أو قبل التراب، وفي مرحلة متقدمة كانت بدايته النطفة، الماء الدافق، يخرج من بين الصلب والترائب.

وهو في هذه البداية لا حراك، لا إرادة، لا فكر، لا شعور، لا تصميم، لا أي مظهر من مظاهر الحياة، وفي كلِّ مراحل السابقة لا يتوهم أنه يملك حولاً ولا طولاً، وإن كان في كلِّ وجوده هو كذلك.

هذه هي تلك البداية التي توقف الإنسان أمام ضعفه ووهنه ومسكنته، وأنه مُدبرٌ لله تبارك وتعالى، وهي تكفي جداً لمن يحمل ذرة من العقل أن يطأطأ برأسه، أن تطأطأ كلِّ حياته الإرادية من أولها إلى آخرها إلى إرادة الله ﷻ.

هذا الإنسان يعلم وجداناً - كما سبق في حلقة متقدمة - أن كلِّ الذين يشتركون معه، وأن كلَّ شيء يشترك معه في فقد الوجود من الداخل لا يستطيعون أن يعطوه من أنفسهم وجوده، ولا يستطيعون أن يعطوه حياته.

ماءٌ خُطِّط، ماءٌ شُحِن بالاستعدادات الفكرية والشعورية، وبالقدرة على الخلق والإبداع، بقدرة الله ﷻ، من صممك؟ من رسم خريطة وجودك؟ من قدرك هذا التقدير؟ من لاءم بين كلِّ أعضائك؟ أجزائك؟ خلاياك؟ ذراتك؟ من صمم ذرتك الأولى؟ من أعطى كلَّ تلك الذرات قابلية الحياة، وقابلية النمو، وقابلية الإبداع؟

إن الآيات الكريمة لتلفتُ نظرنا إلى بداية الطين، بداية التراب الذي ندوس عليه ونمر عليه غير مكترئين، ولقد كنا منه، وإليه سنعود.



ثم تلفت نظرنا إلى مرحلة أخرى هي أقرب إلينا في وجودنا الحالي، وهي مرحلة النطفة، وهي مرحلة يشهدها الأب من ابنه، ولا يستطيع الإنسان إنكارها حين يرى نفسه وهو الآن على هذه القدرات، وعلى هذه الفعاليات، وعلى ما هو عليه من إبداع، واختراع، فليمر أحدنا (نفسه) ماذا كان قبل سنوات يسيرة، أنت قبل عشرين سنة؛ قبل ستة عشرة سنة، قبل أقل من ذلك أو أكثر لم تكن إلا الطين، لم تكن إلا الهباءات المنتشرة، والذرات المتناثرة في هذا الكون العريض، ثم لم تكن إلا النطفة التي لو لم تصل إلى مقرها في الرحم لكانت في خرقة من خرق ترمى في المزابل.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾^(١): النطفة لا تُرى بالعين المجردة، تعج بهندسة الخلق والإبداع، والتكوين العجيب، فيها العبقرية، فيها المهندس الضخم، فيها الفيلسوف المحلق، فيها الإمام الطاهر، فيها الأماني، فيها المشاعر، فيها الطموحات، فيها الإيمان، فيها الروح القتالية، فيها روح الإحسان، فيها مشاعر ومشارب، وأفكار وأفكار، وخواطر وخواطر، وروح تتجاوز الكون كله، ولا تفر إلا حيث تصل بشعورها، وبوعياها إلى الخالق العظيم الواحد الأحد.

تأتي الكلمة عن الصادق عليه السلام لتضعنا أمام صورة مبسطة تزودنا بالإيمان العميق «والعجب من مخلوق يزعم أن الله يخفى على عباده» عقل مفلس، روح منغلقة، قلب صلد، وجدان ميت، عين عمياء تلك التي لا ترى الله ﷻ في كل ذرة من ذرات هذا الكون، وفي كل حركة من حركاته، وفي كل سكنة من سكناته.

«والعجب من مخلوق يزعم أن الله يخفى على عباده وهو يرى -أي الإنسان،

المخلوق - أثر الصنع في نفسه بتركيب يبهر عقله، وتأليف يُبطل حجته^(١)، ولعمري لو تفكروا في هذه الأمور العظام لعينوا من أمر التركيب البين^(٢)، ولطف التدبير الظاهر، ووجود الأشياء مخلوقة بعد أن لم تكن، ثم تحولها من طبيعة إلى طبيعة، وصنعة بعد صنعة، ما يدلهم [ذلك] على الصانع^(٣)، ودلالة كل هذه الأشياء على صانعها إنما هي بصنعه، وبدلالته تبارك وتعالى.

هل اخترت صورتك؟ هل اختار لك أبوك صورتك؟ هل اختار لك إمكاناتك العقلية؟ إمكاناتك النفسية؟ هل قدرك أحد من مثلك هذا التقدير؟ هل كنت أنت الذي قد اخترت موقعك في هذا الكون؟ كيف جئت بنفسك ولم تختار أن تخطط وجودك كما تريد؟ ومن الذي يدعي أنه خططك هذا التخطيط، وقدرك هذا التقدير؟ ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^(٤)، عن علم، عن حكمة، عن تدبير، عن هندسة، عن خبرة، عن إحاطة تامة بكل ذرة من ذرات الكون، وبكل ما فيه. ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٥).

ليست هناك يد أخرى أبدعتك هذا الإبداع، وقدرك هذا التقدير، فلا بد أن يكون كل ركوعك، كل سجودك، كل طاعتك، كل استجابتك، كل حبك، كل شوقك لله وحده

١. وفي نسخة أخرى جحوده. «منه حفظه الله»

٢. إشارة إلى دقائق الصنع التي عرف علماء الإحياء منها شيئاً، عرف علماء التشريع منها شيئاً، عرف الأطباء منها شيئاً، وكل ما عرف الإنسان من عظمة الخلق قليل. «منه حفظه الله»

(٢) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٥٢.

٤. آل عمران: ٦.

٥. آل عمران: ٦.



تبارك وتعالى ﴿اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِيُّ الْمُصَوِّرُ﴾^(١).

من بعد ذلك أَلست العبد الذي تجب عليه طاعة الرب؟ أَلست الحر أمام كل الآخرين من غير الرب؟ والعبد أمام الواحد الأحد؟ وهكذا يريدك الإسلام أن لا تتخذ رباً إلا الله تبارك وتعالى؛ لأنَّه هو الذي خلق، وهو الذي دبّر، وهو المعبود بالحق وحده.

تقول لنا الآية الكريمة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾^(٢).. فكروا في قدرة أخرى قد أخرجتكم من حالة الموت إلى حالة الحياة، ومن حالة العدم إلى حالة الوجود، وبعثت فيكم الروح في لحظة من اللحظات، فكروا في قدرة محدودة، مخلوقة، محدثة تستطيع من داخلها وإرادتها المستقلة غير التابعة لله أن تقدم لكم ذلك.

الآيات الكريمة تحمل أدلة فلسفية، والمعنى الطافح منها هي أنها تستنطق الفطرة لله كتاب داخل الإنسان، لله حجة داخل الإنسان، وآيات التدوين تستنطق هذا الكتاب، تستنطق لغة الفطرة، تستنطق ضمير الفطرة، تستنطق وعي الفطرة وفهمها، ووعي الفطرة يعمل الظالمون دائماً على إلغائه، ولغة الفطرة تعمل الأوضاع السيئة دائماً على قهرها.

الآيات الكريمة تريد أن تضعك أمام ذاتك، أن توفر لك وعي ذاتك، أن توفر لك اكتشاف ذاتك، أن تضعك أمام طبيعة وجودك لتتبوأ المكان الكبير لترتبط بالهدف الصحيح، لا بدّ أن تعرف نفسك، ومن بعد ذلك ستعرف هدفك، وستعرف منهجك الذي يوصلك إلى هذا الهدف، ما لم نعرف أنفسنا سنبقى نجعل قيمتنا، ونجعل هدفنا، ونجعل المنهج الذي يتناسب مع هذه القيمة، ومع هذا الهدف.

١. الحشر: ٢٤.

٢. البقرة: ٢٨.



﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾^(١). نحن أحياء، وقد خرجنا من تراب. ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾^(٢)، من مظاهر إخراج الميت من الحي، هذا الشجر الباسق الذي يستوقد به الناس، ويدخل في العمارة التي تشيدها يد الإنسان، وهو ناتج الحياة التي سرت في البذرة فصارت نبتة، ثم تحولت إلى شجرة سامقة تخدم بجماديتها عمارة الإنسان وصناعته^(٣).

العامل الرابع: التدبر في قانون الزوجية

"تقول الآيات الكريمة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾^(٤)، ﴿فَاطَرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾^(٥)، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾^(٦).

تتحدث الآيات الثلاث عن دائرة من دوائر قانون الزوجية، وهي دائرة الإنسان، وأن الإنسان في الأرض يخضع لهذا القانون في استمرار، وأن هذا القانون من صنع الله تبارك وتعالى.

تتحدث آيات أخرى عن قانون الزوجية في دائرة أخرى وهي دائرة النبات ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٧). وتتعدى

١. الروم: ١٩.

٢. الروم: ١٩.

٣. خطبة الجمعة (٢٧٣) ٥ صفر ١٤٢٨هـ - ٢٣ فبراير ٢٠٠٧م

٤. الروم: ٢١.

٥. الشورى: ١١.

٦. فاطر: ١١.

٧. يس: ٣٦٦.



هذه الآية الكريمة دائرة النبات إلى الدائرة الواسعة من قانون الزوجية، والذي كان يعلم الإنسان له مساحة، ويجهل مساحات أخرى.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾^(١).
ثم تتسع دائرة قانون الزوجية لتشمل كل شيء كما في كتاب الله تبارك وتعالى ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢).

على مستوى الزوجية في داخل الإطار البشري فإنَّ الإنسان نوع واحد، وهو مصنف أصنافاً كثيرة، لكن واحداً من تصنيفات الإنسان قد جاء ليشدّ صنفاً منه إلى الصنف الآخر شداً عجبياً مستمراً طوال القرون، وهو تصنيف الإنسان على مستوى الذكر والأنثى، وإلا فإن أصناف الإنسان كثيرة رغم كونه نوعاً واحداً، وليس بينها ما بين الذكر والأنثى من قوة والانشداد وطبيعته.

ولكن خصيصة متميزة تفرض نفسها على الإنسان من منطلق تنصيفه إلى ذكر وأنثى، وهي هذا الانشداد الدائم، والجوع المستمر من هذا الصنف إلى ذلك الصنف، فيبقى الرجل على غير هدأة، وتبقى المرأة على غير هدأة حتى يلتقي الاثنان، تبقى السكينة مفقودة بمقدار متعب في حياة الرجل، وبمقدار متعب في حياة المرأة حتى يجد كل منهما ضالته في الآخر، لتنبني حياة تقوم على جديد من الاستقرار، وجديد من السكينة، وجديد من الطمأنينة والهدوء النفسي.

إنَّ الاختلاف والاتحاد؛ اتحاد النوع، واختلاف الصنف الذي ولّد مركباً مشبّعاً بمثل

١. الشعراء: ٧-٨.

٢. الذاريات: ٤٩.



هذه الروح الباحثة عن الآخر من الذكر أو الأنثى.

هذا قانون يفرض نفسه على الحياة الإنسانية، من خطّط له؟ من أوجده في الإنسان؟ هل اجتمع الذكر والأنثى في يوم من الأيام ليتفقا على هذا الخلق؟ على هذا الصنع؟ من غير الناس من الممكنات فعل هذا؟ ترجع بك الآيات الكريمة إلى فطرتك، إلى وجدانك، إلى الجواب من داخل ذاتك.

هذه النسبة المتوازنة على مستوى كلّ الأجيال والقرون بين تعداد الإناث وبين تعداد الذكور، بما لا يُعطّل قانون الزوجية، نسبة قد لا تُساوي بين الطرفين وإنما تقارب بينهما على كلّ حال، ولم يأتِ جيل واحد في الهندسة الإلهية الأزلية كلّه أنثى أو كلّه ذكر، ولن تشجّ الحياة يوماً على الرجل أن يجد المرأة، ولن تشجّ على المرأة أن تجد الرجل على أساس ما أوجده الله ﷻ من نسبة موازية لحاجة الحياة بين ما هو تعداد الذكور وتعداد الإناث.

ثم إن التشريع الإلهي ليلتفت إلى زيادة قد تحصل في تعداد الرجال بالنسبة إلى النساء، بحسب ما عليه القانون الأصلي أو بحسب ما تملّيه طوارئ الحروب أو غيرها، يلتفت التشريع إلى هذا الفرق ليتكامل قانون التشريع مع قانون التكوين، فيُتيح التشريع للرجل أن يُعدّد إلى الأربع.

وهنا تناسق لا بدّ أن يلتفت إليه العقل بين قانون التشريع الإلهي وقانون التكوين من صنع الله ﷻ.

لِمَ يجوع الرجل للمرأة، ولِمَ تجوع المرأة للرجل؟ ألقضاء وطر عابر من اللذة؟ أو أن الأمر أكبر من ذلك؟ إنها الهادفية، إنها هادفية القانون، وإن الحياة على الأرض لتحتاج إلى مثل هذا القانون، لتدقّق الأجيال، واستمرار الحياة، وعمارة الأرض، والوصول إلى الغاية

التي أوجد الله ﷻ من أجلها هذا الكون، كل ذلك يتطلّب هذا القانون، فكان هذا القانون، وكان انشداد الرجل للمرأة، وانشداد المرأة للرجل، ويجب أن يبقى هذا الانشداد في التشريع وكما هو مقرر كذلك على خط هذه الغاية، ومن أجل هذا الهدف.

ونكتشف من القرآن الكريم هنا، وعلى مستوى تقريره لقانون الزوجية إعجازاً لا بدّ أن يُغذيّننا بروح الإيمان. متى اكتشف قانون الزوجية العام على مستوى غير الإنسان والنبات ليشمل حتى الذرة؟ من هو رسول الله ﷺ بما هو بشر؟ إنسان تربى في بلد لا تكاد تكون له حضارة^(١).

العامل الخامس: النظر في هدايات الإيمان

"الحديث في منبهات روح التوحيد باستنطاق الفطرة الكنز الكبير في كيان الإنسان، والذي ترجع إليه كل ذخائر الفكر، وهدايات الإيمان، والنفحات العبقّة للشعور الكريم"^(٢). وأصل كل هداية من الله تعالى: قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(٣)، [و] الخلق: فعل الله، وهو مرتبة. والهداية: خلق الله، وهي مرتبة أخرى. وكما أن لا شيء إلا وهو مخلوق لله، فإنه لا شيء من الهداية إلا وهو من الله.

وما خلق الله شيئاً إلا وجعل له غاية، وكل شيء قد هداه الله إلى غايته، لا من شيء في هذا الكون إلا وله موقع، وله دخالة في تكميل الصورة الكونية العامة، وله مشاركة فيما أراد الله ﷻ لهذا الكون من غاية، مشاركة إيصال، وبلوغ بهذا الكون إلى غايته.

١. خطبة الجمعة (٢٧٤) ١٢ صفر ١٤٢٨هـ - ٢ مارس ٢٠٠٧م.

٢. الجمعة (٢٧٥) ١٩ صفر ١٤٢٨هـ - ٩ مارس ٢٠٠٧م.

٣. طه: ٥٠.

ناسب الله تبارك وتعالى بين كل شيء في غايته، وبين خصائص خلاياه وأجهزته، فجاء كل شيء يحمل هداية الله إلى الغاية التي رسمها له، ولا شيء ينحدر عن طريق الغاية التي حددها الله له، حيث أن الله ﷻ لا تدخل علمه الغفلة، ولا النسيان، ولا شيء من الضلال^(١).

"والهدايات على مستويات"^(٢):

المستوى الأول: "الهدى التكويني القسري كما في عمل أجهزة الجسم الداخلي، كما في عمل الجهاز العصبي، الليمفاوي، العضلي، الهضمي الداخلي، كل الأجهزة الأخرى، وكما في عمل القلب، عمل المخ. هذه أجهزة مسيرة تسييراً قهرياً حديدياً وتعمل ضمن قوانين إلهية محددة لا دخل لها فيها، ولا تستطيع الاستجابة الطوعية، أو الامتناع الطوعي عنها. وهذا الكون العريض الذي تسبح في فلكه موجودات لا عد لها ولا إحصاء، كل شيء من ذلك قد حدد مساره، كما حددت غايته، وكل شيء قد هداه الله ﷻ من خلال المسار المحدد إلى الغاية المحددة، هذه هي هداية تكوينية قسرية قهرية"^(٣).

"الآيات الكريمة في هذا المجال وعلى مستوى هذه الهدايات المختلفة تقول لنا: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾^(٤)، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^(٥).. كم من ذرة يحمل هذا الموجود، كم من خلية، ما هي خصائص هذه الخلية، تلك الخلية؟ ما هي وظائف

١. الجمعة (٢٧٥) ١٩ صفر ١٤٢٨هـ - ٩ مارس ٢٠٠٧م.

٢. الجمعة (٢٧٥) ١٩ صفر ١٤٢٨هـ - ٩ مارس ٢٠٠٧م.

٣. الجمعة (٢٧٥) ١٩ صفر ١٤٢٨هـ - ٩ مارس ٢٠٠٧م.

٤. طه: ٥٠.

٥. الرعد: ٨.

هذا الجهاز، ذلك الجهاز؟ كل ذلك بمقدار. والصنع الدقيق المحكم لما خلق الله لا يقوم على الجهل، على الغفلة، على الجراف. هو قائم على العلم، على الحكمة، على التصميم الدقيق، على الخبرة التي لا تحدّها حدود.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾^(١)، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٢)،^(٣).

المستوى الثاني: "الهداية التكوينية الفطرية التي قد ينساق إليها المخلوق على شعور، لكنّه لا يكاد يملك أن يمتنع، كما في قوانين أمة النمل، وأمة النحل، وأمة الطير، فهي مهدية إلى غاياتها بفطر تسوقها سوقا شبه القهري إلى تلك الغايات، وليس النظام والهدايات الذي زوّد به النحل والنمل في إقامة نظام معيشتهم، وعلاقات تناسله، وفيما يبينه من قرى كما في النمل، أو خلايا كما في النحل على حدّ النظام الذي يحكم الصخرة، أو يحكم الشجرة، هناك شعور، هناك درجة من الإدراك في حياة النمل، في حياة النحل، في حياة الطير لا توجد في الصخر، في الحديد"^(٤).

المستوى الثالث: "الهدايات التكوينية الإرادية، كما في أصول الفكر التي غرسها الله ﷻ في وجود الإنسان، وكما في أصول السلوك السوي، والسلوك الذي تقوم عليه استمرارية الحياة مما فطره الله ﷻ في كيان هذا الإنسان، والإنسان الذي زوّد بهذه الأصول، يجد من نفسه الإرادة القادرة على التجاوب معها أو الامتناع عنها.

فطرة التوحيد أصل كبير متغلغل ممتد في كيان الإنسان لا تنفك إنسانية الإنسان

١. الفرقان: ٢.

٢. القمر: ٤٩.

٣. الجمعة (٢٧٥) ١٩ صفر ١٤٢٨هـ - ٩ مارس ٢٠٠٧م.

٤. المصدر نفسه.

عنه، لكن أنت تجد من نفسك أنك تستطيع أن تتجاوز مع أصل التوحيد في الذات أو أن تتمرد عليه، هذه هدايات، ولكنها هدايات ينضم إليها الدور الإرادي عند الإنسان^(١).

”والحديث عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾^(٢). قال: (لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ إِلَّا وَهُوَ يَعْرِفُ مِنْ شَكْلِهِ الذَّكَرَ مِنَ الْأُنْثَى)^(٣). هذا واحد من تطبيقات الهداية الجزئية، مصداق من مصاديق هدايات الله، الإمام عليه السلام من باب التقريب والتوضيح بالمثل يذكر لمحمد بن مسلم مصداقا من مصاديق هدايات الله للأشياء، يقول انظر إلى أصغر مخلوق من المخلوقات الحية التي تقوم على التناسل؛ فإن ذكر هذا النوع أو ذلك النوع لا يخطئ تشخيص أنثاه، لا يخلط بين ما هو ذكر من ذلك النوع وما هو أنثى، والأنثى هي كذلك لا يختلط عليها تشخيص ما هو الذكر من نوعها وما هو الأنثى. فذكر النمل لا يطلب ذكره وإنما يطلب أنثاه ويعرفها، وأنثى النمل أيضا لا تطلب أنثاه وإنما تطلب ذكره وتعرفه، هذا تطبيق لكون الله عز وجل قد أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، تجدون ثم هدى، الآية الكريمة تفصل بـ”ثم“ للتباعد بين المعطوف والمعطوف عليه، والتباعد هنا ليس زمانياً وإنما تباعد رتبة، وأن رتبة الهدى فوق رتبة الخلق، هي نوع آخر من الخلق، وهو خلق كبير. والله العالم.

«قُلْتُ: مَا يَعْنِي ثُمَّ هَدَى؟ قَالَ: هَدَاهُ لِلنِّكَاحِ وَالسِّفَاحِ مِنْ شَكْلِهِ»^(٤).

من علم عملية السِّفَاح لأصغر حيوان، سفاذ الذكر والأنثى؟ هي هدايات الله المغروسة

١. المصدر نفسه.

٢. طه: ٥٠.

٣. الكافي للكليني: ٥ / ٥٦٧ ح ٤٩.

٤. المصدر نفسه.



عند كلِّ هذه الحيوانات.

فأيُّ إنسانٍ يحترم نفسه وعقله يشكُّك في أنَّ هذا الكون وراءه صانع حكيم مدبِّر؟! ^(١).

المستوى الرابع: "الهداية التشريعية، كما في شرائع الأديان المنزلة من السماء فهي هدايات لهذا الإنسان حتى يبلغ غايته، ولا يمكن لهذه الإنسانية أن تبلغ غايتها، ولو استجابت لكلِّ الهدايات الأخرى، إذا تخلّفت عن التجاوب الإرادي مع الهداية التشريعية التي تنزلت على الأنبياء والمرسلين، وآخرها هداية القرآن الشاملة" ^(٢).

العامل السادس: نزول الشدائد

إنَّ القول بفطرية الإيمان بالله تعالى لا تعني بأنَّ الإنسان متوجّه إلى الله في جميع حالاته، بل قد يتعرّض إلى ما يحجب عن فطرته ظهور ونمو تلك النداءات والمعارف الباطنية، ولكن حين ترتفع تلك الحجب، ويشعر بالانقطاع واليأس الكامل عن الأسباب الطبيعية التي كانت تحجبه، تجده سامعاً إلى نداء فطرته، وملتفتاً إلى تلك الحقائق المدفونة بصورة تلقائية إلى الله تعالى، فإنَّ "الله الظاهر كيف يخفى؟ أرايت كيف ننسى الشمس ونحن تحت أشعتها الساطعة؟! منها الغفلة، وأن يغلب على النفس أمر من الأمور. وإذا كانت الشمس تظهر بشعاعها في وقتٍ وتغيب في وقت، وتبدو في رقعة وقد تغيب عن رقعة، وقد يجليها الغمام، فإن أنوار الله حاضرة وبصورة دائمة في داخلك، حاضرة في النبتة الصغيرة، في الشجرة العظيمة، في الحجرة الصماء، في كلِّ شيء في هذا الكون، في كلِّ خلية، في كلِّ ذرة، ولكن كما تغيب عنا ذاكرة الشمس والالتفات إليها، يغيب عنا الالتفات في

١. خطبة الجمعة (٢٧٥) ١٩ صفر ١٤٢٨هـ - ٩ مارس ٢٠٠٧م.

٢. المصدر نفسه.

زحمة هذه الحياة، وزحمة المضلات المفتعلة في هذه الحياة ذكر الله تبارك وتعالى من باب النقص في القابل لا الفاعل^(١).

والآية الكريمة تقول: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾^(٢). الإنسان في حالة الأزمات والورطات الشديدة جداً، كافراً أو مؤمناً، تبحث روحه عن منقذ لا يراه مثله محدوداً عاجزاً أمام الأسباب. والمتصور أن له هنا ثلاث حالات:-

١- إما أن روحه، حسه الباطني، وجدانه العميق في هذا الفرض، يعيش حالة اليأس بعد تقطع الأسباب الظاهرية؛ لأن نفسه في أصلها تبني على أن الحياة قائمة على الأسباب الظاهرية فحسب، إذ لو كان الإنسان يعيش في عمقه الفطري بأن الوجود والحياة معتمد على هذه الأسباب الظاهرية، لكان في حال الورطات الشديدة، وانقطاع الأسباب الظاهرية بالكامل، يصاب باليأس والقنوط، ولا يستغيث ولا يلجأ إلى شيء، والوجدان شاهد بغير ذلك؛ ففي حال تعرض الطائفة للسقوط تتطلع نفوس ركبها إلى مخلص لا تحكمه الأسباب.

٢- أن يلجأ إلى أحد من الناس، أو أي قوة تحكمها الأسباب، والكل يعرف أن هذا غير حاصل.

٣- أنه وهو في ورطة، وليس هناك أي سبب من الأسباب يمكن أن ينقذه، لا يستغيث واعياً بأي شيء من الأشياء من دون الله ﷻ. وإنما يستغيث إذا كان مؤمناً، ويصرخ حالاً: يا الله، وإذا لم يكن مؤمناً، فهو يتجه بروحه إلى منقذ قادر على إنقاذه، يشعر في باطنه

١. خطبة الجمعة (٢٧٦) ٢٦ صفر ١٤٢٨هـ - ١٦ مارس ٢٠٠٧م.

٢. يونس: ١٢.



بأنه قادر على إنقاذه، برغم خذلان كل الأسباب. وهذه هي الحالة الوجدانية التي ينبه عليها القرآن الكريم إذ يقول: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾^(١).

وهذا قد يفلسف في الكلام المجاهد، والفكر الكافر بأن حالة الخوف، وحالة الهلع، تخلق واهمة أن هناك منقذاً للإنسان، والجواب على هذا: أن لو كانت المسألة بهذا المستوى، لما عمّت الحالة كل الناس؛ كان ذلك الإنسان إنسان صحراء، أو كان إنسان حاضرة، كان جاهلاً أو متعلماً، كان أكبر الفلاسفة، ولو كان أكبر الملحددين.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾^(٢). الآيات الكريمة تنبه هذا الإنسان، على أنه يعيش فطرة التوحيد التي تبرز بوضوح في مثل هذه الحالات، التي يصاب فيها باليأس الكامل، الموضوعي، من إنقاذ الأسباب له، فهو هنا لا يعيش حالة اليأس المطلق، ولا يتشبث بالأسباب، إنما تتجه روحه إلى مسبب الأسباب، والقادر على كل سبب، متطلعة للإنقاذ^(٣).

الطريق الثاني: العقل الاستدلالي

"أعطى الله بكرمه الإنسان، وبتشريفه له، العقل الاستدلالي، الذي يأخذ به في مسار علمي برهاني طويل، يبني له به معرفة متراكمة متنامية، تقوم عليها بصيرة واسعة، وسعاده في آخرته ودنياه. وهو نورٌ يمضي به في هذه الحياة، ويسلك به طريقه إلى الحياة الأخرى، مبصراً، راشداً.

١. يونس: ١٢.

٢. الزمر: ٨.

٣. خطبة الجمعة (٢٧٠) ١٣ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ٢ فبراير ٢٠٠٧م.

وليس معنى ذلك استغناء الإنسان بعقله في بلوغ أهدافه، وإنما لأنَّ العقل مع عطائه للإنسان، ودلالاته الرَّاشدة له، له دلالةٌ كبرى، وإراءةٌ واضحةٌ للإنسان في حاجته لأخذ منهج حياته الكامل، المصيب في دائرة الفرد والمجتمع، من الله^(١)، والرجوع في ذلك لرسالاته، فلا بُدَّ للإنسان إذاً من طلب العلم بمنهج الله، والأخذ به حتى يمكن له أن يبلغ أهدافه الكريمة فيها، وأن تتحقَّق له الغاية التي كانت من أجلها هذه الحياة^(٢).

وإليك تطبيقات بثلاثة أدلة على وجود الله تعالى:

الدليل الأول: النظم

”والقضية كما هي فطرية، يشهد بها الكون كله كذلك:

تدل على أنه الواحد(٣)

وفي كل شيء له آية

ليس من حبة رمل، ولا ذرة، ولا شجرة، ولا من شيء كبر أو صغر في هذا الكون، إلا وهو يشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، فالقضية قضية داخل بالنسبة للإنسان، وقضية خارج.. النفس في داخلها تلحُّ على الإنسان بقضية الإيمان، والكون كله بكلِّ أشيائه، بكلِّ كبيره وصغيره يحاصر الإنسان بالأدلة القاطعة على قضية التوحيد.

١. العقل يشعر بالحاجة إلى أخذ منهجه الكامل للحياة من الربَّ ﷻ، وهذا ما يكمل له معرفته ويجعلها مثرية لحياته، بالغة به هدف هذه الحياة. «منه حفظه الله»

٢. خطبة الجمعة (٥٩٢) ٥ جمادى الأول ١٤٣٥هـ - ٧ مارس ٢٠١٤م.

٣. قول شاعر نقله القمي في تفسيره: ٢ / ٣٣٠.



تقول الكلمة عن علي عليه السلام:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الْأُمُورِ^(١)، وَدَكَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُورِ^(٢)، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ

١. كُلِّ مَا دَقَّ مِنْ أَمْرٍ، وَكُلِّ مَا غَمَضَ مِنْ أَمْرٍ لَعَلَّوْهُ وَسَمَوْهُ وَدَقَّتْهُ، وَكَلَّمَا كَانَ مِنْ سِرٍّ وَرَاءَ هَذَا الْكَوْنِ، وَكَلَّمَا كَانَتْ مِنْ قُوَّةٍ أَكْبَرَ مِنْ أَنْ نَدْرِكَهَا فَإِنَّ اللَّهَ تعالى لَتَعَالِيَهُ وَجَلَالُهُ وَجَمَالُهُ وَكَمَالُهُ هُوَ أَخْفَى مِنْ كُلِّ تِلْكَ الْقَوَى الْكِبْرَى وَالْأَسْرَارِ الْعَظْمَى، لِأَنَّهُ يَقِفُ وَرَاءَهَا كُلِّهَا، وَهُوَ الْمُدَبِّرُ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْكَوْنِ مَا ظَهَرَ مِنْهُ وَمَا بَطَنَ.

إذا كان العقل مؤهلاً إلى أن يصل إلى حقائق لقرينها نسبياً، وغير مؤهل للوصول إلى حقائق لبعدها عن أفقه المحدود فإنَّ اللَّهَ تعالى أبعد حقيقة، وأكبر حقيقة تَأْبِيَّاً عَلَى إدراك العقل، فإنَّ العقل إذا كان يقصر عن إدراك حقائق كبرى بعيدة، فإنه أقصر من أن يدرك أكبر الحقائق، وأبعد الحقائق، وأول الحقائق، والحقيقة الأصل وهو اللَّه تبارك وتعالى، وخفاء اللَّه سبحانه خفاء عظمة لجلاله، لجماله والذين لا يمكن لعقل أن يدرك لهما حداً وهما غير محدودين. «منه حفظه اللَّه»

٢. آيات الظهور، دلائل الظهور. «منه حفظه اللَّه»

الْبَصِيرِ^(١)، فَلَا عَيْنٌ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ^(٢)، وَلَا قَلْبٌ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ^(٣)، [إلى أن يقول:] فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلَامُ الْوُجُودِ عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ^(٤)»^(٥).

كل آيات الكون تدل بما تنطق به من شهادة التوحيد، وبما تشتغل به من تسبيح لله ﷻ من خلال دقة الصنع، وإحكام التدبير، وتدقق الوجود على الموجودات، وإعطاء

١. أي قلب كبير ذاك، أي عقل متفتح ذاك، أي بصيرة نافذة تلك تقتصرها فكل ذلك ليس في وسعه كنه الله، أن يدرك كنه صفة من صفاته. «منه حفظه الله»

٢. الأبصار الحسية، والبصائر المعنوية كلها لا تستطيع إدراك الله تبارك وتعالى، وفي الوقت نفسه لا تستطيع البصائر أن تنكره وهو ظاهر فيها، وهو ظاهر في كل شيء تقع عليه، الله ﷻ ظاهر في كل شيء؛ لأن ظهور كل شيء بالله، ما أظهرت الأشياء الله ﷻ إلا بإظهاره لها، الله ﷻ هو المظهر لنفسه تبارك وتعالى من خلال ما خلق، من خلال ما برأ، من خلال ما دبر، ما أحكم، دلالة الأشياء على الله ﷻ منه ﷻ لا منها، دلالة الأشياء على الله ﷻ معطاة لها من الله ﷻ، فهي ظاهرة به، قبل أن يكون ظاهراً بها. «منه حفظه الله»

٣. قلب النبي الأعظم ﷺ وهو لا يعيش ذرة ولا أقل من ذرة من الشك في الله ﷻ، قلب كله يقين، قلب كله نور من نور الله، قلب كله معرفة بالله، لكن ذلك شيء وأن يدرك النبي ﷺ اسماً من أسماء الله الحسنى، صفة من صفات الله العليا بحقيقتها، ذاك شيء آخر، فإن الله غير محدود، والنبي ﷺ محدود، ولا يمكن للمحدود أن يدرك غير المحدود، كنه الله لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب، فوق كل العقول، فوق كل البصائر، فوق كل الرؤى سبحانه وتعالى. «منه حفظه الله»

٤. هناك ألسنة تجحد الله، ولكن وراء هذه الألسن الجاحدة قلوب مقررة بالله ﷻ، ليس هناك من قلب لا يقر بحسب فطرته بالله ﷻ، نعم، تكون غشاوة، تكون ضبابية، يطرأ عمى على القلوب بسوء ما فعلت، ولكن تأتي لحظات لا تملك تلك القلوب إلا أن تثور فطرتها لتقول من خلال صرخة الاستغاثة بالله لا إله إلا الله. «منه حفظه الله»

٥. نهج البلاغة للرضي - تحقيق صالح - ٨٧ ح ٤٩.



الحياة لما هو حيٌّ منها، وللهندسة التي تنتظمها، ولا تحدُّها العقول، والموقع التي اقتضته هندسة الكون لكل جزئية، لكل مجرة، لكل ذرة، لكل خلية فيه، حيث موقع كل شيء موقع متناسب متناسق، مع ما أُعطيهِ من دور في مركبه، وفي هذا الكون الكبير، كل هذه الآيات تدل على أن الإنسان الجاحد، ليس وراء لسانه قلب يجحد في أعماقه، وحيث يأتيه ما يعود به إلى فطرته^(١).

”أجئنا من الطبيعة الخرساء؟ أقررت الطبيعة الخرساء أن تقوم على أساس من هذا النظام الدقيق المحكم الرصين الذي يحكم كل جزئية فيها، وكل خلية وكل ذرة، إلى جنب علاقات ما فيها كله؟ ثم وهل تملك الطبيعة الخرساء الصماء أن تفعل؟!

عن الصادق عليه السلام: «فَأَمَّا أَصْحَابُ الطَّبَائِعِ فَقَالُوا: إِنَّ الطَّبِيعَةَ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا لَغَيْرِ مَعْنَى، وَلَا تَتَجَاوَزُ عَمَّا فِيهِ تَمَامُ الشَّيْءِ فِي طَبِيعَتِهِ^(٢)، وَزَعَمُوا أَنَّ الْحِكْمَةَ تَشْهَدُ بِذَلِكَ، فَقِيلَ لَهُمْ: فَمَنْ أَعْطَى الطَّبِيعَةَ هَذِهِ الْحِكْمَةَ، وَالْوُقُوفَ عَلَى حُدُودِ الْأَشْيَاءِ بِلَا مُجَاوِزَةٍ لَهَا^(٣)، وَهَذَا

١. خطبة الجمعة (٢٦٩) ٦ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ٢٦ يناير ٢٠٠٧م.

٢. يعني نحن نلاحظ الطبيعة متوفرة في كل أجزائها على النظام الدقيق الرصين المحكم، وأن كل شيء قد توافَق في طبيعته مع دوره وغايته، هذا يعترف به الملاحظون للطبيعة. «منه حفظه الله»

٣. هل الطبيعة قدّرت الأشياء تقديرا، وحددتها تحديدا، وأعطتها الوزن المعين، ولأمت بين ما عليه طبيعتها، وما يراد لها من غايتها؟ وهل قدّرت لكل شيء دوره وموقعه؟ ووضعت في الموضع المناسب لنظام الكون العام؟ «منه حفظه الله»

قَدْ تَعَجَّزُ عَنْهُ الْعُقُولُ بَعْدَ طُولِ التَّجَارِبِ^(١)؟ فَإِنْ أَوْجِبُوا لِلطَّبِيعَةِ الْحِكْمَةَ وَالْقُدْرَةَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ^(٢)، فَقَدْ أَقْرُوا بِمَا أَنْكَرُوا، لِأَنَّ هَذِهِ فِي صِفَاتِ الْخَالِقِ^(٣)، وَإِنْ أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ هَذَا لِلطَّبِيعَةِ، فَهَذَا وَجْهُ الْخَلْقِ يَهْتَفُ بِأَنَّ الْفِعْلَ لِلْخَالِقِ الْحَكِيمِ^{(٤) (٥)}.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٦).. آياتٌ لا تُحصى، ولا يملك لها إنسان عدّاً في أصل الخلق، في انبثاقه الخلق من رحم العدم، إن كان للعدم رحم، في دقائق كل مخلوق، وعجائب تركيبه، ولطائف أجهزته، وتناسق وجوده مع غايته، وتناسب صنعه مع وظيفته، وعلاقات ذراته وخلاياه وأعضائه وأجهزته وجميع مؤلفاته، وتكامل دوره مع أدوار المخلوقات الأخرى، وما يعجبُّ به كل جزء من أجزائه،

١. تضم التجارب المعطاة الموفرة للخبرة إلى العقل الكبير، إلى العقل المدبر، المفكر وتراهما يعجزان عن صنع ما عليه نظام الذرة، وما عليه نظام الجزيء الصغير من أي جسم ومن النظام الذي يحكم الجسم كله. «منه حفظه الله»

٢. التي تتجاوز قدرة العقول والتجارب. «منه حفظه الله»

٣. فهم اعترفوا بالخالق إلا أنهم بدل أن يقولوا بأنه الله قالوا بأنه الطبيعة، أعطوا الطبيعة الحكمة والعقل والتدبير والإبداع والهندسة الدقيقة والنظام الفائق الرائع الذي يتجاوز حد العقل البشري، ويتجاوز الخبرة البشرية، أعطوا الطبيعة كل هذا وأنكروه على الله تبارك وتعالى. وما هي الطبيعة؟ شجر، حجر، رمل، أجرام سماوية، إنهم أقروا بالخالق من خلال الإقرار بصفاته ولكنهم خالفوا العقل والفطرة بأن أعطوا عنوان الخالق للطبيعة وهو أمر سفه بوضوح. «منه حفظه الله»

٤. التوحيد للجعفي: ١٢٠.

٥. خطبة الجمعة (٢٧٦) ٢٦ صفر ١٤٢٨هـ - ١٦ مارس ٢٠٠٧م.

٦. الجاثية: ٤.



وكلّ جنبه من جنباته، من أسرار علمية دقيقة، ومخزون هائل من روائع النظام والصنع. كم من نوع دابة، كم من صنف دابة، كم من أفراد دابة تدبّ على وجه الأرض وفي الثرى، تغنى بدرجة من الإدراك والشعور، وفطرة التدبير، والقدرة على السعي المخطّط للرزق، والقيام بالدور الذي أُعدّت له، والتوجّه إلى الغاية التي كانت من أجلها، وقد جُهّزت بكلّ ما له دخل في أداء وظيفتها، والانتهاء بها إلى غايتها، وإتقان ما يتطلّب أمر النظم منها. وأعطيت من جهاز الدفاع للأعداء عن نفسها، والحماية من الأخطار ما يتناسب معها، ويحافظ عليها إلى ساعة أجلها، على حدّ ما هو شأن المخلوق العظيم وهو الإنسان.. كم من هذا كلّ، ومن أسرار الخلق الأخرى مما لا يحصى، ويذهل العارفين علمه؟!^(١).

الدليل الثاني: استحالة وجود المعلول بلا علّة

"تَقُولُ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾"^(٢)، سؤال مطروح على كلّ نفس، وفي كلّ نفس جوابه، قد يُغيب هذا الجواب تحت سَجَف^(٣) الظلمة والركام الشديد من ذنوب المرء، وقد يكون حاضراً فعلياً يبادر صاحبه من داخله.

وإذا كانت هناك سَجَف وظلمات فإنّ الأخطار الكبيرة - كما مر - كافية عند محنتها أن تجلّي كلّ هذه السجف والظلمات ليثور الجواب من الداخل وأن لا خلق بلا شيء، وأن

١. خطبة الجمعة (٢٧٢) ٢٧ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ١٦ فبراير ٢٠٠٧م.

٢. الطور: ٣٥-٣٦.

٣. السجف: الستر. «منه حفظه الله»

لا أحد قد خلق السماوات والأرض غير الله، وأن خلقها قد جاء من فراغ من غير شيء، من غير علة لا مادية، ولا صورية، ولا غائية، ولا فاعلية.

أنا، كل الآخرين خلُقوا من غير أي علة، وولدوا من العدم المحض، وكان العدم أقوى من الوجود فأعطاه، أو كان العدم وجوداً في الوقت نفسه حتى يمكن أن نفترض أن وجوداً ولد من العدم؟! أي عقل، أي فطرة، أي وجدان يُعطي احتمال واحد على بليون لفرضية من هذا النوع؟! ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾^(١)..

فرض آخر: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾^(٢). أفي نفسك احتمال ضئيل بأنك خلقت نفسك؟ أفي نفسك احتمال ضئيل بأن أباك قد خلقك؟ أفي نفسك احتمال ضئيل أن شيئاً يساويك فقداً في الأصل قد أعطاك؟ الحجر، الشجر، الإنسان، الملك، كل ما هو ليس بواجب الوجود، وليس موجوداً في نفسه بنفسه لنفسه، كل هذه الأشياء على قدرك، الملك في ذاته وفي أصله يعيش الفقد كما كنت تعيش، يعيش حالة العدم كما كنت تعيش، يفتقد الوجود من داخله، كل الأشياء تفتقد الوجود من داخل ذاتها، وتفتقد من داخلها، قرار الوجود، فهي دائماً محتاجة إلى وجود لكي توجد في الابتداء، وفي الاستمرار، ليس أنت وحدك الذي لا يأتي الفرض بأنك خلقت نفسك، ولا أقوى قوة في الأرض هي التي تساويك فقط في فقد القدرة، إنما حتى من كان هو أقرب ملك فهو عدم في نفسه لولا فيض من ربه؛ فلا يمكن أن يأتي في الاحتمال أنك مخلوق له بالأصل.

﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾^(٣): هم لا بما هم هم، خذها بما هم ممكنات، بما هم في مستوى

١. الطور: ٣٥.

٢. المصدر نفسه.

٣. الطور: ٣٥.



الممكن، وإذا امتنع على هذا الممكن وهو أنت وأنا أن نخلق أنفسنا امتنع على كل ممكن أن يخلق نفسه فضلاً عن أن يخلق غيره.

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(١). هذا سؤال مطروح على النفس البشرية؛ المؤمنة والكافرة، هذا السؤال لا يمكن لنفس تحترم نفسها أن تجيب عليه بأن الإنسان، أي شيء آخر غير الوجود الحق تبارك وتعالى قد خلق السماوات والأرض، لكن الآية الكريمة تُعَقَّب فتقول: ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾^(٢). السؤالان السابقان يُعرف منهما أن هناك إجابة باطنية مغروسة في النفس عن السؤالين معاً بالنفي، وأن ليس من شيء قد خلق من لا شيء ولا علة له على الإطلاق، وأن ليس من خلق السماوات والأرض هي الممكنات، ومع ذلك تقول الآية عن الكافرين ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾^(٣).

والحصيلة أن من النفوس لا توقن مع ما لها من فطرة الإيمان. الإيمان الفطري حين تعرضه الذنوب، ويعرضه العناد، وتعرضه الأخلاقيات الإسلامية، يبقى مهتزاً، قلقاً، لا يستطيع أن يواجه تحديات الحياة، ولا موجات التشكيك والتضليل، لا يستطيع أن يصمد أمام المحن القاسية فيتوارى في الداخل ويدفن، فلا يمكن لإنسان غير باحث عن الحقيقة متقيد بها أن يمتلك اليقين.

من يطرح السؤال على هذا النوع يجيبون بأنه حقاً ليس من شيء من هذه الممكنات قد خلق من غير علة على الإطلاق، هذا يجيبون به، ولكن هذه الإجابة سرعان ما تتوارى، وسرعان ما تختفي في مقام ترتيب آثار الإيمان، وفي مقام التزام خط الإيمان، وفي مقام

١. الطور: ٣٦.

٢. المصدر نفسه.

٣. المصدر نفسه.

احتضان النفس لقضيته. حتى تمتلك إجابة قوية ثابتة لا تهتز أمام الإعصار لا بدَّ مع الفطرة من تربية إيمانية دقيقة.

ولماذا الإيمان من غير إيقان؟ لسوء الموقف؛ هناك رصيد فطري من الإيمان، إما أن نتعامل معه التعامل المطلوب فيتثبت هذا الرصيد وينمو ويتركز وينتشر نوره في أقطار النفس كلها، ويتحوّل إلى حالة صحوة ويقظة دائمة.

والفرض الآخر أن رصيد الفطرة لا نتعامل معه التعامل المطلوب، ونتنكر له، ونسلك مسلكاً على خلاف مقتضاه وهداياته، وحينئذ يضر صوت الفطرة، يخفت نورها في النفس، تأخذ في الاختفاء، يصيبها اضمحلال في الظهور والتجلي، وحينئذ تكون الحالة السائدة الظاهرية في النفس هي حالة الكفر. فلا غواية إلا ومبتدأها الإنسان، الهداية مبتدأها فيض الله، وتنمو بتربية الله وتوفيقاته، أما الغواية فتبدأ من تمرّد في داخل الإنسان، وتنكر في داخل الإنسان لرصيد الهدايات الأولية الموهوبة له من الله ﷻ.

وتقول الكلمة عن علي عليه أفضل الصلاة والسلام: «وَكُلُّ صَانِعٍ شَيْءٍ، فَمِنْ شَيْءٍ صَنَعَ، وَاللَّهُ لَا مِنْ شَيْءٍ صَنَعَ مَا خَلَقَ»^(١). الأرض تصنع الصاروخ، تصنع القمر الصناعي، الأرض لها مصنوعات كثيرة، ولكن ليس من شيء من مصنوعات الأرض جاء من فراغ على الإطلاق، جاء من مادة يسرها الله، ومن عقل خلقه الله، وإرادة وهبها الله تبارك وتعالى، وهدايات وتوفيقات خاصة. الشيء الذي أكرّره ويتحدّى العالم كله هو أنه فليمتحن العالم نفسه بكل علمائه وقدراته وطاقاته ومواهبه بأن يحاول أن يزيد هذا العالم ذرة من لا شيء، حبة رمل من لا شيء، يستحيل كل الاستحالة على كل هذا العالم أن

١. التوحيد للصدوق: ٤١ ح ٣. رواه الحُصَيْنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.



يَخْلُقُ خَلْقًا جَدِيدًا لَا أَصْلَ لَهُ. «وَكُلُّ صَانِعٍ شَيْءٍ، فَمِنْ شَيْءٍ صَنَعَ»^(١).

«وَاللَّهُ لَا مِنْ شَيْءٍ صَنَعَ مَا خَلَقَ»^(٢)، الله وحده هو الذي صنع هذه المصنوعات كلها، ليس من أصل شيء إلا محض قدرته، وإطلاق إرادته، والمادة التي صنع منها العالم لم تأت من فراغ بلا فاعل، ولم تكتب لنفسها الوجود، وإنما أوجدتها القدرة المطلقة والوجود الحق الغني عن الإيجاد^(٣).

الدليل الثالث: الحدوث والفقر

”عن الإمام علي عليه السلام: «الْحَمْدُ لِلَّهِ... الدَّالُّ عَلَى قَدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وُجُودِهِ -إِلَى أَنْ يَقُولَ: - مُسْتَشْهَدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ»^(٤).. أيها المؤمن، أيها العبد لله..

أمام الإنسان عالم قائم شاخص، يجعله يسأل أهذا العالم حادث أو قديم؟ حادث، بمعنى: أنه لم يكن ثم كان، وقديم، معناه: أنه لم يسبقه وجود، ولا عدم، على الإطلاق^(٥). ولكن أشياء الكون في تغير دائم، ولا شيء منها يحتفظ بوجوده، أو بحال يثبت عليه،

١. التوحيد للصدوق: ٤١ ح ٣.

٢. التوحيد للصدوق: ٤١ ح ٣.

٣. خطبة الجمعة (٢٧١) ٢٠ محرم الحرام ١٤٢٨ هـ - ٩ فبراير ٢٠٠٧ م.

٤. نهج البلاغة للرضي: ٢٦٩ ح ١٨٥.

٥. فكوننا من الأول وهو الحادث أو من القديم؟ «منه حفظه الله»

وما ذلك إلا لأنه لا يملك ذاته ولا أيّ حال من أحواله^(١)، ولحاجته لمن سواه ممن لا يشاركه فقره. وما كان كذلك لا يكون قديماً لأنّ القديم بالمعنى المتقدم لا يكون إلا غنياً بذاته، ومن كان غنياً بذاته، قادراً بذاته، عزيزاً بذاته وليس أحدٌ مثله يُؤثّر ولا يتأثّر، يُغيّر ولا يتغيّر.

وحدوثُ الخلق بمعناه الذي سبقَ، دليلٌ لا مرأى فيه على حاجته إلى الخالق، وأنّه من صنعه وعطائه.

وفناءُ الخلائق وهو أمرٌ مشهود للإنسان، واستمرار الكون وحركته، وتجدّد الأحياء دالٌّ هو الآخر على دوام المدبّر الحيّ القادر العليم الحكيم الخارج عن طبيعة هذه الأشياء وعن حدّ الإمكان الذي يحكمها.

ويستدلُّ الإمام الصادق عليه السلام على الله سبحانه بوجود نفسه^(٢)، لما سُئل: ما الدليل على أن للعالم صانعاً؟ جاء جوابه كما جاء عنه عليه السلام: «مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ لِلْعَالَمِ صَانِعاً؟ جَاءَ جَوَابُهُ كَمَا جَاءَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَكْثَرُ الْأَدْلَةِ فِي نَفْسِي»^(٣)، لَأَنِّي وَجَدْتُهَا لَا تَعْدُو أَحَدَ أَمْرَيْنِ^(٤)».

١. مثلاً الإنسان يخسر الحال الحسن، تذهب ذاته، ولو كان الغني بنفسه لما حدث له شيء من ذلك. «منه حفظه الله»

٢. أي نفس الإمام الصادق عليه السلام. «منه حفظه الله»

٣. أجد أن أكثر الأدلة في نفسي، أجد أن أكبر الأدلة والدليل الحاضر في نفسي. «منه حفظه الله»

٤. نفسك، ونفسك، أشرف نفسك، وأخس نفسك لا تخرج من أحد فرضين. «منه حفظه الله»



إِمَّا أَنْ أَكُونَ خَلَقْتُهَا وَأَنَا مَوْجُودٌ، وَإِيجَادُ الْمَوْجُودِ مُحَالٌ^(١). وَإِمَّا أَنْ أَكُونَ خَلَقْتُهَا وَأَنَا مَعْدُومٌ^(٢)؛ فَكَيْفَ يَخْلُقُ لَا شَيْءٌ^(٣)؟ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمَا فَاسِدَتَيْنِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ جَمِيعاً، عَلِمْتُ أَنَّ لِي صَانِعاً وَمُدَبِّراً^(٤).

الإنسان لو افترض أنه أوجد نفسه يأتيه هذا السؤال: أوجدت نفسك حين هي موجودة، أو حين هي معدومة وأنها لا شيء؟ ولا يوجد فرض ثالث.

لكن كيف يُوجدُ الموجودُ نفسه، بينما الموجود يستحيل أن يُوجد، ولا موضوع لأن يوجد بعد أن كان وجوده مفروغاً منه.

وفرضُ أنَّ النفس أوجدت نفسها في حال كونها معدومة، يردُّه أنَّ ما هو لا شيء، وعدمٌ محض لا يملك أن يخلق شيئاً.

وعليه كان وجود النفس دالاً يقيناً على أنَّ لها صانعاً مدبراً، وهو الصانع الخالق المدبر لكلِّ ما في الكون والوجود مطلقاً ممن هو مثلها في كونه شيئاً له وجود ولكنه ليس حقيقته

١. أنت موجود الآن، يمكن إيجادك مرة ثانية؟! وأنت في حال كونك موجودا هل يمكن إيجادك؟! «منه حفظه الله»

٢. يوم أن كنت معدوماً خلقت نفسي من عدمي! «منه حفظه الله»

٣. الذي هو لا شيء كيف يخلق غيره وكيف يخلق نفسه؟! عدم! «منه حفظه الله»

٤. روضة الواعظين للنيسابوري: ٣١. رأيت كلَّ من الفرضين الذين فرضتهما وجدتهما باطلاً مستحيلًا غير منتجين، فمن بطلانهما لا يبقى إلا أن نفسي قد أوجدها غيري، وهذا الغير لا يمكن أن يكون مثلي في فقر الذات. «منه حفظه الله»

هي حقيقة الوجود كما هو الله سبحانه^(١).

ولأنَّ ظهور كلِّ المخلوقات بخالقها^(٢)، والمربوب بالرَّبِّ، ولولاه لما كان لها نصيبٌ من الظهور فالحق أنه هو الدالُّ عليها، وليست هي الدالُّ عليه^(٣)، ولا تملك نفسٌ أي دلالة على ذاتها، ولا على صفةٍ من صفاته وأسمائه الحسنی، والاستدلال عليه سبحانه بخلقه إنما هو بما أعطى هذا الخلق من دلالة عليه من خلال تجلِّي شيءٍ من عظمته فيه^{(٤) (٥)}.

والانتقال والحركة دالان على الحدوث، ومن جازت عليه الحركة كان مخلوقاً محدثاً محتاجاً إلى المحدث، ولذا استدلَّ إبراهيم عليه السلام بالأقول على الحدوث، كما أشار إليه "الكتاب المجيد في حديثه عن النبي إبراهيم عليه السلام في هذه الآيات المباركات: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ

١. فرق بين كلِّ المخلوقات وبين الخالق أن الله محض الوجود ولا غير، بينما نحن أشياء وحقائق وماهيات صغيرة محدودة أكسبها الله عز وجل وألبسها ثوب الوجود. «منه حفظه الله»

٢. لا يظهر مخلوق إلا بخالقه. «منه حفظه الله»

٣. أنا لا أدلُّ على الله، وإنما الله عز وجل دلَّ عليَّ. «منه حفظه الله»

٤. أنا أرى منك قدرةً محدودة من قدرة الله المطلقة، أنا أرى منك علماً محدوداً من علم الله المطلق، أنا أرى الله عز وجل فيك، أنا أرى فيك الله عز وجل في صورة تجلٍّ محدود بقدرك وليس أكثر. «منه حفظه الله»

٥. خطبة الجمعة (٥٩٤) ١٩ جمادى الأول ١٤٣٥هـ - ٢١ مارس ٢٠١٤م.



المُشْرِكِينَ ﴿١﴾.

[ولنقف عند العقل، العقل الاستدلالي الإبراهيمي من خلال] بعض الإضاءات مما تغني به الآيات الكريمة:-

١. ليلٌ غيرُ العابثين يُرهِفُ الشعور بهدوئه وسكونه، ويستثير التفكير، ويبعث التأمّلات العميقة، وينفصل بالمرء عن العالم القريب، واللحظة الحاضرة العابرة، وصخب الواقع السطحي إلى الآفاق البعيدة من الحياة والوجود، والتخوم الضاربة إلى منتهى الكون المحدود، لتفضي بالتأمّلات والإشراقات إلى ما وراء المحدود، فإذا جنَّ الليل على العاقل نقله إلى حياة جديدة يحياها، منشداً إلى البعيد اللامحدود، بدرجة أكثر قوةً وغزارة مما هو عليه في بياض النهار، على أن حضارة اللهو والمجون اليوم، تملك على الناس كل وقتهم، وتسرق منهم ليلهم والنهار.

٢. يبعد على إبراهيم عليه السلام بما فيه من مشروع نبيٍّ عظيم، من أولي العزم، أن يرى في الممكن واجباً، وفي المخلوق خالقاً، وفي المربوب ربّاً، ومن هنا يحمل قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾، عند طلوع الكوكب والقمر والشمس، على الطرح الفرضي، من أجل مناقشة الفكرة، وبيان بطلانها، في أسلوب حوار راقٍ، بعيد عن استفزاز الطرف الآخر، بما يجعله متشجعاً، ويسدُّ عليه فرص الهداية والقبول بالحق.

٣. بين إبراهيم عليه السلام: أن الربَّ هو محبوب العقل الواعي، ومعشوق القلب الزكي، والمثل الأعلى على الإطلاق الذي تنشد إليه الفطرة النقية، وتتجه دائماً إليه، والأفول - وهو الغياب - آية المملوكية لا المالكية، والعبودية لا الربوبية، والمحدودية لا الإطلاق،

والمقهورية لا القاهرية فكلُّ ما جاز عليه الأفول، وكان غير معتصم من ذاته عن التغير والانفعال وتبدُّل الأحوال فهو مربوب لا رب، ومخلوق لا خالق، ومن الزور أن يُعبد، ومن الباطل أن يتخذ إلهاً.

وقد جاء قول إبراهيم عليه السلام: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾، حكماً معللاً بإسقاط الربوبية، ليس عن الكوكب وحده، ولا عن القمر والشمس، قبل أن يبرزوا ويعودا إلى أفول فحسب، وإنما هو إسقاط لربوبية كل مدَّع للربوبية، وكل ما ومن تدَّعى له إذا كان من الآفلين.

٤. جاءت كلمة: ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ في الكلام المنسوب إلى إبراهيم عليه السلام، لينبّه على أن ما فرضت له الربوبية، وجاز أن يكون من هو أكبر منه فلا ربوبية له، فالربوبية إنما هي لمن هو أكبر وأجل وأعظم على الإطلاق، وليس من دون الله من هو كذلك. فليس إلا ربّ واحد، وهو الأكبر على الإطلاق، والكبير الذي هو أكبر من كل كبير، هو الله وحده، الذي لا استقرار للعقل، ولا سكون للقلب، ولا اطمئنان للنفس إلا بالاهتداء إليه. والشيء لا يقطع بأنه أكبر من كل شيء إلا بأن يخرج من المحدودية إلى الإطلاق، والممكنات كلها أسيرة الحدود، ومنقطعةً بالنهايات.

٥. ما افتراض أنه ربّ، وهو يعتريه الأفول، لا يصح أن تعشقه القلوب، وتهوي إليه الأفتدة، وتتعلق به النفوس ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾، واتخاذهم ربّاً وقوع في التيه، وسقوط في الضلال، وانحراف عن الطريق، وانغمار في الغواية، ﴿قَالَ لئن لم يهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾، وقوله عليه السلام هذا القول، عندما أفل القمر، والتوجه إلى الربّ المكذوب الآفل، عملٌ يبرأ منه العاقل، ويبرأ من فاعله بما هو فاعله، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، وهذا هو تعقيب إبراهيم عليه السلام على أفول الشمس، آخر ما استعرضه من فروض المناقشة.

٦. من كان هو الربُّ الحقُّ، وهو الخالقُ لكلِّ شيءٍ، والمدبرُ لكلِّ شيءٍ، حتى لا يكون مثله شيءٌ، وهو أكبرُ من كلِّ شيءٍ لا يصحُّ في ميزان العقل والفطرة والعدل أن يعدله شيءٌ، وأن تميل عنه النفسُ لشيءٍ، أو تشتغل مع الاشتغال بعظمته خضوعاً وتذلاً وثقة واعتماداً وانصرافاً بشيءٍ.

وقد تحرَّرَ إبراهيمُ عليه السلام من عبودية الآفلين، بإسقاط ربوبيتهم عقلاً وفطرة، ولم يبقَ لربوبيتهم الكاذبة أيُّ ضغطٍ على نفسه، وخرَّ ساجداً لله وحده، موجّهاً وجهه لربه الحقِّ، لا يعطي من نفسه ووقته وما ملكت يداها، ولا من همِّه وأمله لغيره أبداً، ولا يميل مبتغياً من دونه ملتحداً، ولا ينظر لنفسه حتى يكون قد أشرك بربه أحداً.. ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

والآن علينا أن نستذكر أنَّ الشخصيات تتألق وتأفل، الدُّول تقوم وتسقط، النبتة تترعرع وتذبل، الطُّرُوحات الأرضية تظهر وتذوي، [وكذا] المال [و]سلطة المخلوقين [و]قوتهم.

[وإنَّ] بواسق النخل، [و]فارعات الشجر، [و]سامقات الجبال، [و]كلَّ شيءٍ داخل في حدَّ الإمكان، لا يستطيل عالياً إلا ليعود الشيء الضئيل اللصيق، ولا يشتد إلا ليضعف، ولا يتماسك إلا ليتبعثر، ولا يحيى إلا ليموت، ولا يكون إلا لينتهي إلا أن يشاء الله.

إنَّه ما من شيءٍ من دونه ﷻ بمستمسك من داخل ذاته بوجوده أو حياته أو قوته أو غناه، كلٌّ ممكن دائماً في معرض الأفول والتلاشي والاندثار والفناء. فلا إله إلا الله، ولا معبود سواه، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(١)، ﴿وَلَا تَدْعُ

مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ^(١).
 الهالك ليس إلهاً، المحكوم ليس إلهاً. الإله من يهلك ولا يهلك، ويحكم ولا يحكم،
 وإليه مرجع الأشياء كلها في وجودها وفنائها، والأحياء كلها في حياتها وموتها، ولا مرجع
 لمبعوث إلا إليه^(٢).

الطريق الثالث: معرفة النفس

"إنَّ معرفة النفس من الطرق إلى معرفة الله ﷻ، لما بين معرفة النفس ومعرفة الله تعالى
 من علاقة، وإليك النصوص التي تبين هذه العلاقة الموجودة "بين معرفة النفس ومعرفة
 الرب:

- [قال تعالى:] ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٣).
 [وقال تعالى:] ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٤).
 [وقال تعالى:] ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(٥).
 وفي الحديث [عن النبي ﷺ أنه قال:] «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»^(٦).

١. القصص " ٨٨.

٢. خطبة الجمعة (٩٦) ٢٨ ذي القعدة ١٤٢٣هـ الموافق ٣١ يناير ٢٠٠٣م

٣. الذاريات: ٢٠-٢١.

٤. الجاثية: ٤.

٥. فصلت: ٥٣.

٦. مصباح الشريعة المنسوب للإمام الصادق عليه السلام: ١٣.



وفي الحديث الآخر: «أَعْرِفُكُمْ بِنَفْسِهِ أَعْرِفُكُمْ بِرَبِّهِ»^(١).

لو جهل الإنسان بكل ما حوله من هذا العالم، وقضاياه ما كان منه أن يجهل نفسه، وهي حاضرةٌ لديه وهو هي وليس شيئاً غيرها.

والآيات القرآنية الكريمة تُشير إلى ما تُعجُّ به نفس الإنسان من آيات الله التي لا تدعُ مجالاً للشك في معرفته، ولا تغيمُ لدلالاتها التامة بصيرتها عن رؤيته.

ونفسُ الإنسان وجودٌ قائمٌ لا يغيب عنه وليس من خلقه، ولا يد له فيه، وطاقته تفكير لم يوجدها^(٢)، ولم يكن المُقدِّر لها على التفكير، ومشاعرُ تتناوب على داخله ليست من صنعه ولا يملك أن يمنع ورودها، ولا اجتثاث نبتتها في ذاته، ولا الحيلولة دون تأثيرها فيه، ودوافعُ لاهبةٌ تُحرِّك سلوكه ليست من فعله ولا سبيل له أن يلغيها من وجوده، وأشواقٌ كماليةٌ عالية هي بُعدٌ أصيل من أبعاد كيانه ولم يكن له دورٌ في إنباتها فيه وإدخالها عنصراً في عجنته، وإرادةٌ متخيرة ما كان شرفه بها بقدرته.

الإنسان يشهد ذاته شهوداً واضحاً حياً وأنه مزاجٌ من قوى وأبعاد متعددة، وطباعٌ مختلفة تأتلف منها^(٣) لا حيلة لها في خلقها ولا إلغاء شيءٍ منها ولا إبقائها ولا الملاقاة بينها

١. روضة الواعظين للنيسابوري: ٢٠.

٢. نفسنا طاقة تفكير ومشاعر إلخ. «منه حفظه الله»

٣. أي نفسه وذاته. «منه حفظه الله»

في الصورة المنسقة التي تجمعها، ولا التفكيك التكويني لواقع الترابط الذي يحكمها^(١).
ولا تنفك هذه المعرفة بالنفس عن أثرها المحتمي فيها من المعرفة بالرب تبارك وتعالى،
ولذلك فلا عذر لدعوى أحد بأنه لا سبيل إليه لمعرفة الخالق والحاجة إليه^(٢).
وأنه^(٣) غير كل نفس خاضعة لما تخضع له هذه الذات أو تلك من فقر الذات في نفسها
وحاجتها الدائمة لمن يمدّها بكل ما لها من وجود وقوى ومواهب، وما هي عليه من حالة
ائتلاف وتلاق وتنسيق بين مكوناتها^(٤).

ثم إن معرفة النفس على مراتب، وأعماق هذه المعرفة وسعتها متفاوتة، وكلما عمقت
المعرفة بالنفس كانت معرفة صاحبها بربه أعظم، وبشأن خالقه أجل، وما انكشف للنفس
عن أي طريق من الطرق الموصلة سر من الأسرار التي تغني بها خلقها إلا كبر شأن الله
عندها، وزاد تسليمها لعظمة باريها، ولذلك جاء عن رسول الله ﷺ: «أَعْرِفُكُمْ بِنَفْسِهِ

١. كل ذلك لا حيلة له فيه. «منه حفظه الله»

٢. حجة كل نفس مقطوعة، يعني ليست لها حجة، المحجة قائمة عليها في معرفة الرب وليس لها. «منه حفظه الله»

٣. وهو الله تبارك وتعالى. «منه حفظه الله»

٤. أنا أراك فقيراً، وأنت تراني فقيراً مثلك، أنت تعرف من نفسك أنك فقير ذاتا كما تعرف عني أنا فقير ذاتا، فلا تتوقع عندئذ أني خلقتك، ولا أتوقع أنك خلقتني. وكل الكون خاضع لهذا الفقر؛ واقع الفقر الذاتي الذي لا يمكن أن يخرج من ظلمته بنفسه. «منه حفظه الله»



أَعْرِفُكُمْ بِرَبِّهِ»^(١).

فالنفس الإنسانية ناطقة بأنها أثرٌ للخالق العظيم العليّ القدير العليم الحكيم الحيّ الرازق القائم الذي لا يموت^(٢).

وكَلَّمَا عَرَفَتِ النَّفْسُ نَفْسَهَا زَادَ يَقِينَهَا بِرَبِّهَا جَلَّ وَعَزَّ، وَاسْتَسَلَمَتْ مَرِيدَةً إِلَيْهِ^(٣).

وَتَقَدَّمَ مَعْرِفَةُ النَّفْسِ مِنْ نَفْسِهَا مَا يَتَدَاوُلُهَا مِنْ تَقَلُّبِ الْأَحْوَالِ، وَتَبَدُّلِ الْأَوَاضَاعِ الْعَارِضَةِ عَلَى دَاخِلِهَا، وَكَوْنِهَا عَاجِزَةٌ عَنِ التَّحَكُّمِ فِيهَا، وَالتَّصَرُّفِ بِمَا يَخْلُصُهَا مِنْهَا وَقْتَ شَاءَتْ^(٤)، أَوْ إِبْقَائِهَا وَقْتَ مَا رَغِبَتْ، وَأَنْ لَا مَالِكَ لِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ غَيْرِهَا مِنَ الْخَالِقِ أَنْ لَهَا خَالِقًا قَدِيرًا عَلِيمًا مَالِكًا هُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْحَقُّ فِيهَا^(٥).

١. روضة الواعظين للنيسابوري: ٢٠.

٢. كلُّ هذه الأسماء الحسنى تحتاجها كلُّ نفس لأن توجد، لأن تبقى، لأن ينتظم أمرها، وهي أسماء ليست لأحد غير الله العظيم. «منه حفظه الله»

٣. هناك استسلام تكويني لا حيلة لنا فيه، وهناك استسلام إراديٍّ لله عزَّ وجلَّ هو من مسؤوليتنا. «منه حفظه الله»

٤. تأتي علينا أحوال متقلّبة، تتعاور علينا الظروف المؤثّرة، في داخلنا وفي خارجنا، ونحن نعرف من نفسنا أن الحزن الذي يأتي علينا لا نستطيع أن نقتلعه بإرادتنا، أن الفرحة تأتينا من حيث لا ندري، إلخ. «منه حفظه الله»

٥. حيث ترى أنك تحزن، أنك تفرح، أنك تخاف، أنك تأمن، أنك تعزم، أنك تتراجع عن عزمك ولا تملك تفسيراً لهذا من نفسك ولا من غيرك ممن حولك ومن هو مثلك في الفقر الذاتي لا بدّ هنا أن يرجعك العقل إلى الخالق العظيم المتصرف فيك كيف شاء. «منه حفظه الله»

النفس الإنسانية تكون على عزم فعل شيء فلا تجد إلا وقد انتقض عزمها، وتكون على غضب لا تملك ذاتها أمامه فلا تجد إلا وقد هدا غضبها وربما تحول إلى رضا، أو أسف، وتكون الحزينة وإذا بها تصير إلى فرح، وفي كل ذلك لا تعرف لهذا التحول سبباً، ولا تملك وهي التي تعيش هذا التحول تفسيراً من أي سبب قريب أو بعيد على أنه لا شيء إلا بسبب فيكون عليها أن ترجع الأمر إلى مسبب كل الأسباب ومالكها، وإلى من بيده كل أمرها.

عن الإمام الحسين عليه السلام: «إِنَّ رَجُلًا قَامَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، بِمَاذَا عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: بِفَسْخِ الْعَزْمِ، وَنَقْضِ الْهَمِّ؛ لَمَّا هَمَمْتُ فَحِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَ هَمِّي^(١)، وَعَزَمْتُ فَخَالَفَ الْقَضَاءُ عَزْمِي، عَلِمْتُ أَنَّ الْمُدَبِّرَ غَيْرِي»^(٢).

وسئل أبو عبد الله عليه السلام - كما عن هشام بن سالم -، ف قيل له: بما عرفت ربك^(٣)؟ قال: «بِفَسْخِ الْعَزْمِ، وَنَقْضِ الْهَمِّ؛ عَزَمْتُ فَفَسَخَ عَزْمِي، وَهَمَمْتُ فَفَنَقَضَ هَمِّي»^(٤).

فالنفس تهم بالشيء أي تتوجه إلى فعله وترى أن تقدم عليه بدرجة من درجات العزم غير البالغ لكن هذا الهم يتراجع وينتهي لا لسبب تدركه، وتعزم العزم أشده فينحسر

١. الهم أول العزم عند بعضهم. «منه حفظه الله»

٢. التوحيد للشيخ الصدوق: ٢٨٨ ح ٦.

٣. السؤال للإمام الصادق عليه السلام.

٤. التوحيد للصدوق: ٢٨٩ ح ٨. لا يدلني عقل ولا فطرة على أن الذي نقض عزمي أخي، زوجي، قوي أو ضعيف ممن حولي، أحد غير الله. «منه حفظه الله»

هذا العزم عنها وتفقدُه وهي لا تملك لفقدَه تفسيراً ولا تسبباً فيكون عليها أن تعرف أنها المخلوقُ الخاضعُ في كلِّ أمره إلى خالقه، المربوبُ المدبّرُ من ربّه.

والإنسان ليس له استقرار على حال رَغماً عليه^(١). يستوي في ذلك في شأن بدنه وعقله ومشاعره وهمّه وعزمه وإرادته وكلِّ أحواله، وأمر التحوّلات البطيئة والمفاجئة يحكم حياة كلِّ الناس^(٢).

الطريقُ الرَّابِعُ: تزكيةُ النفس

"متابعة شهوات النفس فيها عمى القلب، وانحجابه عن الرؤية، وتزكية النفس وتهذيبها يخلصها من أسر الشهوات، وينفتح بها على الأخذ بالحق، ويجعل لها أنساً به، ويجعلها مشدودةً إليه، طالبةً له.

وفي جوِّ نفسٍ من هذا النوع يتمتع القلب بكامل بصيرته، وينفتح أمامه مدى الرؤية، وترتفع من أمامها الحواجز المصطنعة، فتصحَّ المعرفة، وتكبر، وتزداد في الصفاء.

وبذا تكون تزكية النفس بالنأي بها عن ظلمات المعاصي، وإضاءتها بنور الطاعة سبباً من أسباب أعلى معرفة وهي معرفة الله سبحانه، وزيادتها ونقائها، وأنت هنا تزيد من غناء ملكات الخير والاستقامة في النفس، وتقضي على ملكات الشرِّ والانحراف فيها.

١. من يملك أن يبقي فرحته إلى ما شاء؟! أن يبقي عزمه إلى ما شاء؟! أن يبقي أي شعور من مشاعر نفسه إلى ما شاء؟! لا أحد. «منه حفظه الله»

٢. خطبة الجمعة (٥٩٣) ١٢ جمادى الأول ١٤٣٥هـ - ١٤ مارس ٢٠١٤م.

والتزكية للنفس إنما هو لخيرها، وتقويم للعوج فيها واجتثاث لحالة الفساد، فتعطيها فرصة كبرى للنهوض والصّلاح، والتطلّب للحقّ والعشق له^(١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾^(٢). هذا هو طريق معرفة الله، هناك طريق نسلكه فيأخذ بيدنا إلى معرفة الله تعالى، وهناك طريق آخر نسلكه فيتيه بنا ويزيغ وينحدر بنا عن الصراط، ويقطعنا عن رحلة الكمال، والله لا نجده إلا من خلال رحلتنا إلى الكمال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾^(٣): التقوى طريق معرفة الله. [والتقوى معناها: أن تطهر القلب، وتراعي أحكام الله الواجبات والمحرمات، وكلما راعى أحدنا أحكام الله، وراقب في داخله عظمة الله وجلاله وجماله وكماله، كلما اهتدى أكثر. [ف] لا تقوى إلا بالإيمان بالرسول، ولا إيمان لمن لم يعمل بأوامر الرسول ونواهيه، سواء كانت هذه الأوامر والنواهي من الأحكام الإلهية، أم من الأحكام الولائية أي من الأحكام التي تصدر من رسول الله ﷺ، من خلال موقع الحكومة لا من خلال موقع التبليغ.

الأخذ بالدقة، بأوامر ونواهي القيادة الشرعية، المتمثلة في قمتها العليا في رسول الله الأعظم ﷺ، طريق إلى أن يكتسب الإنسان نوراً من رحمة الله ﷻ، إلى أن تنزل عليه فيوضات معرفة الله ﷻ، أتريد أن تعرف الله: التزم، اتق، افعل ما أمر الله، تحذر مما نهى

١. خطبة الجمعة (٥٩٤) ١٩ جمادى الأول ١٤٣٥هـ - ٢١ مارس ٢٠١٤م.

٢. الحديد: ٢٨.

٣. المصدر نفسه.

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، هذا طريقك الكبير إلى معرفة الله، قبل أن تقرأ الفلسفة، وبعد أن تقرأ الفلسفة، قبل أن تقرأ اصطلاحات العرفان، وبعد أن تقرأ اصطلاحات العرفان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾^(١)، وعدٌ من الله، ووعد الله لا يخلف، ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾^(٢).

الطريق الآخر: طريق الضلال: [قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾^(٣). [نعم، حين نشرع على خلاف شرع الله، [و] حين نركز سلوكاً لا يأذن به الله، [و] حين نبتعد بالمجتمع، ولو خطوة صغيرة تمهيدية للبعد عن الله، فنحن نتخذ إلهانا هواناً، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾^(٤).

[و] حين [أعلم بأن الحكم الشرعي هو [الحكم] الفلاني، وأن الأقرب للتقوى هو السلوك الفلاني، [إذا] تمايلت وحدث عن الحكم الشرعي، فمعناه: أن المتبع في داخلي ليس هو الحكم الشرعي، بل الهوى الذي اتخذته من دون الله إلهاً.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾^(٥).

١. المصدر نفسه.

٢. الحديد: ٢٨.

٣. الجاثية: ٢٣.

٤. المصدر نفسه.

٥. المصدر نفسه.

إذا أراد أحدنا أن يفقد رؤيته الفعلية لربه سبحانه، فليخطو خطوةً في طريق الزيغ والضلال. [فإنه] كلما تخلف أحدنا عن تطبيق حكم شرعي، كلما زاغ قلبه وأظلم، وفقد القدرة على الرؤية، وأصابه العشى والعمى.

[إن] المعصية تستتبع ختماً على السمع والقلب، [و] خاصةً المعصية عن علمٍ تستتبع، فلا يسمع الإنسان يسمع سمع حيوان، تنسد منافذ قلبه وقواه المفتوحة على النور، فلا يرى قلبه من النور شيئاً، ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾^(١). إذن كل مسالك هذا الإنسان للمعرفة قد انغلقت بمعصيته، ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾^(٢)؟ ولا هادي من دون الله سبحانه^(٣).

طرق تزكية النفس:

"ولتزكية النفس.. لمزيد من معرفتها للحق والتعلق به، وتركيز هذه المعرفة والتمسك بها، عدة طرق من وصف الدين وهدى الشريعة، تنتهي بسالكها إلى هذه النتيجة العظمى الراجعة.. من هذه الطرق:

١- ذكرُ الله جلَّ وعزَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(٤)، هو الذي يُصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان

١. الجاثية: ٢٣.

٢. المصدر نفسه.

٣. خطبة الجمعة (٥٠) ١ المحرم ١٤٢٣هـ - ١٥ مارس ٢٠٠٢م.

٤. ماذا يحصل؟

بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا^(١).

وهو القائل سبحانه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(٢)، والقائل جلّ وعزّ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾^(٣).

والآية الأولى تأمر المؤمنين بذكر الله كثيراً وهو ذكر تعظيم وتسبيح وحمد لينالوا صلاةً منه عليهم، وصلاته تبارك وتعالى عليهم هي رحمته بهم، وأكبر رحمة بهم إخراجهم من ظلمات العقل والقلب والروح وجعلهم في نورٍ ومعرفةٍ تقيهم كلّ ضلالةٍ وانحراف.

وعن رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: إِذَا كَانَ الْغَالِبُ عَلَى الْعَبْدِ (عَبْدِي) الْإِشْتَغَالُ بِي، جَعَلْتُ بُغْيَتَهُ (نَعِيمَهُ) وَلَذَّتْهُ فِي ذِكْرِي، فَإِذَا جَعَلْتُ بُغْيَتَهُ (نَعِيمَهُ) وَلَذَّتْهُ فِي ذِكْرِي عَشِقَنِي وَعَشِقْتُهُ، فَإِذَا عَشِقَنِي وَعَشِقْتُهُ رَفَعْتُ الْحِجَابَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ»^(٤).

٢- الصلاة: [عن ضمرة بن حبيب قال: سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ ﷺ: «الصَّلَاةُ مِنْ شَرَائِعِ الدِّينِ، وَفِيهَا مَرْضَاتُ الرَّبِّ ﷻ، وَهِيَ مِنْهَا جُ الْأَنْبِيَاءِ، وَلِلْمُصَلِّي حُبُّ الْمَلَائِكَةِ، وَهُدًى وَإِيمَانٌ، وَنُورُ الْمَعْرِفَةِ، الْحُ»^(٥).

١. الأحزاب: ٤١-٤٣.

٢. التوبة: ٦٧.

٣. البقرة: ١٥٢.

٤. كنز العمال للهندي: ١ / ٤٢٢ ح ١٨٧٢. والحجاب المرفوع هنا حجاب ظلمات النفس، والله ﷻ حجب من عزته وقدرته تلك حجب تمنع من رؤية ذاته تبارك وتعالى. «منه حفظه الله»

٥. الخصال للصدوق: ٥٢٢ ح ١١.

وعن الإمام علي عليه السلام في تفسير مقاطع الأذان والإقامة: «وَمَعْنَى: «قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ» فِي الْإِقَامَةِ، أَي: حَانَ وَقْتُ الزِّيَارَةِ وَالْمُنَاجَاةِ وَقَضَاءِ الْحَوَائِجِ وَدَرَكِ الْمُنَى وَالْوُصُولِ إِلَى اللَّهِ ﷻ وَإِلَى كَرَامَتِهِ وَغُفْرَانِهِ وَعَفْوِهِ وَرِضْوَانِهِ»^(١).

والصلاة بنيتها وأقوالها وأفعالها اشتغال من قلب العبد بذكر الرب، والتفات إلى جلاله وجماله وعظمته.

وتعطي هذه الصلاة بما هي ذكرٌ حيٌّ لله سبحانه للعبد معرفةً بربه، وشوقاً إليه، وتعلقاً شديداً به^(٢).

٣- "الصوم: البطنة تُعْرِقُ النشاطَ الفكري، وتُعَكِّرُ جوَّ الروح، وتنال من صفاء القلب، وذلك على عكس ما يفعله الجوع بالقدر الذي لا يضر، ولا يقعدُ بالإنسان عن الحركة، ويشغل عليه تفكيره.

وإذا كان الجوع في حد ذاته يُعْطِي أثراً إيجابياً للنشاط الروحي والفكري وشفاء القلب، فإنَّ الجوع الهادف والمنطلق من وعي وإرادة، وليس من ضرورة الفاقة والحاجة، ومن روح التقرب إلى الله جلَّ وعزَّ أعظم أثراً، وأكثر بركة، وأطيب مردوداً.

ولا ينشط قلبٌ بذكر الله ﷻ، ولا يأنس به في حال بطنةٍ يعاني منها البطن كما يكون

١. التوحيد للشيخ الصدوق: ٢٤١ ح ١. فمن نتائج الصلاة الوصول إلى الله بمعرفة حقٍّ من حقه، وعظمة من عظمته فمن نتائج الصلاة الوصول إلى الله بمعرفة حقٍّ من حقه، وعظمة من عظمته. «منه حفظه الله»

٢. خطبة الجمعة (٥٩٤) ١٩ جمادى الأول ١٤٣٥ هـ - ٢١ مارس ٢٠١٤ م.



له من ذلك في حال جوع لا يملك على الإنسان لشدته مشاعره.

الإمام علي عليه السلام في ذكر حديث معراج النبي صلى الله عليه وآله، قال صلى الله عليه وآله: «يَا رَبِّ مَا مِيرَاثُ^(١) الْجُوعِ؟ قَالَ: الْحِكْمَةُ، وَحِفْظُ الْقَلْبِ، وَالتَّقَرُّبُ إِلَيَّ^(٢)» - إلى أن قال: - «الصَّوْمُ يُورِثُ الْحِكْمَةَ، وَالْحِكْمَةُ تُورِثُ الْمَعْرِفَةَ، وَالْمَعْرِفَةُ تُورِثُ الْيَقِينَ»^(٣).

والجوع يُورِثُ الحكمة في قلب صاحبه كافراً كان أو مؤمناً وهي على الكافر حجة ووبال، وفي قلب المؤمن نور وبرهان وشفاء ورحمة كما يذكر الحديث نفسه.

٤- "حُبُّ اللَّهِ: حُبُّ الْعَبْدِ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ يُكْسِبُهُ مَعْرِفَةً بِهِ، وَحُبُّ اللَّهِ لِلْعَبْدِ يُنْقِذُ قَلْبَهُ مِنْ ظُلُمَاتِهِ حَتَّى يَسْطَعَ بِنُورِ مَعْرِفَتِهِ سُبْحَانَهُ.

وصحيح أن معرفة العبد بربه تجعله يحبه، وتزيد من شوقه إليه، وتعلقه بذكره ولكن هذا الحب الناشئ من المعرفة يُضيء القلب هو الآخر بمعرفة الله، ويزيد من قوة المعرفة.

عن يونس بن ظبيان [قال]: دَخَلْتُ عَلَى الصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام ... فَقَالَ: «إِنَّمَا أَوْلُوا الْأَبَابِ الَّذِينَ عَمِلُوا بِالْفِكْرَةِ حَتَّى وَرِثُوا مِنْهُ حُبَّ اللَّهِ^(٤)؛ فَإِنَّ حُبَّ اللَّهِ إِذَا وَرِثَهُ

١. وفي نقل: ميزات بدل ميراث. «منه حفظه الله»

٢. أي: إلى الله تعالى. فالجوع يُعْطِي فرصة للانفتاح على الأمر الأهم في حياة الإنسان وهو طلب التقرب إلى الله، ولا يكون ذلك إلا عن معرفة وفي صفاء روح. «منه حفظه الله»

٣. إرشاد القلوب للدلمي: ٢٠٠.

٤. من ذلك العمل بالفكرة.

الْقَلْبُ، اسْتَضَاءَ وَأَسْرَعَ إِلَيْهِ اللَّطْفُ، -إِلَى أَنْ قَالَ:- يَا يُونُسُ، إِذَا أَرَدْتَ الْعِلْمَ الصَّحِيحَ، فَعِنْدَنَا أَهْلُ الْبَيْتِ؛ فَإِنَّا وَرِثْنَاهُ، وَأَوْتَيْنَا شَرْعَ الْحِكْمَةِ، وَفَصَّلَ الْخِطَابِ»^(١)^(٢).

٥- "الانقطاع إلى الله: كلما توقّف القلب عند قوّة المخلوق، وجماله، وغناه، وعلمه متوجّهاً برويته للمحدود، مشتغلاً بما له^(٣) من مواهب باريّه، وما لا يستقل بشيء منه لا يعبر نظره إلى المفيض على العبد^(٤) كلّ ما عنده أعماه ذلك عن رؤية الحقّ تبارك وتعالى^(٥)، وانصرف به عن معاينة عظّمته، وأنساه ذكره، وفي هذا موت القلب، وسبات العقل، وأسْنُ الروح، وانسداد أفق المعرفة.

وكلّما كان اشتغال العبد بالنظر إلى عظمة الله ﷻ، ولم يستوقفه جمال شيء ولا قوته، ولا غناه عما وراءه من عطاء الله وفضله، وما عليه جليل عظّمته وملكه وغناه وجماله مما لا حدّ له كلّما شعّ قلبه بمعرفة الله، واستضاءت بصيرته، وترقّى في قربه.

عن الإمام عليّ عليه السلام: «الْوَصْلَةُ بِاللّهِ تَعَالَى فِي الْإِنْقِطَاعِ عَنِ النَّاسِ»^(٦). والانقطاع هنا

١. كفاية الأثر للخزاز القمي: ٢٥٧.

٢. خطبة الجمعة (٥٩٥) ٢٦ جمادى الأولى ١٤٣٥هـ - ٢٨ مارس ٢٠١٤م.

٣. أي: بما للمخلوق.

٤. كلّ نظره إلى عظمة المخلوق، وإلى جمال المخلوق، منقطعاً عن رؤية من وراء المخلوق، وما وراء المخلوق من العظمة غير المحدودة للخالق، هذه نظرة وهي النظرة السائدة عندنا وفي الكثير. «منه حفظه الله»

٥. يعميه ويزيد في عماه. «منه حفظه الله»

٦. عيون الحكم والمواعظ لليثي: ٥٢.

ليس مقاطعةً في تعامل وعشرة، وإنما هو عدم انحباس للتفكير والمشاعر والإعجاب والاندهاش في إطار المخلوق المحدود، والانطلاق بالتفكير والمشاعر والانبهار والاندهاش والخوف والرجاء والحب في اتجاه الخالق^(١).

٦- "ولاية أهل البيت عليهم السلام: لا الله تعالى ولا أهل البيت عليهم السلام يرضون لأحد من عباد الله أن يقف بنظره وولايته تقديره وتقديسه وحبّه وخوفه ورجائه عند أحد من خلقه كانوا أهل بيت الرسالة أو غيرهم من ملائكة الله المقربين إليه^(٢).

ولكن لأنّ أهل البيت عليهم السلام معرفتهم طريق إلى معرفة الله سبحانه، ومحبتهم تنتج محبته، وهي تعبير عن حبه ومن إنتاج حبه، وطاعتهم كذلك، والنصرة لهم نصرّة لدين الله كانت مودتهم وولايتهم مزية للنفس مهذبة لها، موسّعة لرؤية القلب، مطهرة له بما يُكسبه المزيد من معرفة الله ويبقيها لديه، ويفتح عليه أبواب القرب الإلهي، والرحمة من الله الجواد الكريم.

عن الإمام الرضا عليه السلام: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى اللَّهِ بِغَيْرِ حِجَابٍ، وَيَنْظُرَ اللَّهُ إِلَيْهِ بِغَيْرِ حِجَابٍ، فَلْيَتَوَلَّ آلَ مُحَمَّدٍ وَلْيَتَبَرَّأْ مِنْ عَدُوِّهِمْ، وَلْيَأْتِ بِإِمَامٍ مُؤْمِنٍ مِنْهُمْ؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِ بِغَيْرِ حِجَابٍ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ اللَّهُ بِغَيْرِ حِجَابٍ»^(٣).

١. خطبة الجمعة (٥٩٥) ٢٦ جمادى الأول ١٤٣٥هـ - ٢٨ مارس ٢٠١٤م.

٢. هذا أمر يرفضه أهل البيت عليهم السلام.

٣. المحاسن للبرقي: ١ / ٦٠ ح ١٠١.

وإنَّ العبد من عبيد الله ليقيم من إسرائفه في ذنبه وإثمه وإعراضه عن ربه بينه وبين أن يرى الله وهو أظهر من كل ظاهر وأحضر من كل حاضر حجباً دون هذه الرؤية.

وولاء أهل البيت عليه السلام الذي يعود لولاء الله سبحانه الذي لا يخالفون إرادته ولا يخرجون عن طاعته يرفع هذه الحجب، ويُعيد للقلب طهره ونقاوته.

أما الله سبحانه فيعلم بحال القلوب صحيحها وسليمها، ولكن نظر الرحمة ^(١) الخاصة منه إنما هو للقلوب التي لا تقبح بما هي عليه من ظلمة وزيف عن الحق، وانحراف وضلال ^(٢). ويبقى على العبيد للاحتفاظ بأي نعمة، والازدياد منها، ودفع أي نعمة والتخلص منها أن يلجأ دائماً إلى الله ولا ينقطع قلباً ولساناً وعملاً عن دعائه والاستعانة به.

فدوام المعرفة والتطلع إلى زيادتها وهي النعمة الكبرى على العبد مع عبادته ومجاهدته لتزكية نفسه أن يلجأ إلى الله، ويتعلق بمنه وكرمه.

عن الإمام الصادق عليه السلام من دعاء علمه زرارة: «اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي نَفْسَكَ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي نَفْسَكَ لَمْ أَعْرِفْ نَبِيَّكَ، اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي رَسُولَكَ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي رَسُولَكَ لَمْ

١. يرفع الحجاب بين الله والعبد من الجهتين، نعرف كيف يرتفع الحجاب بمقدار من جهة العبد عن الله ﷻ، لكن كيف يرتفع الحجاب من جهة الله عن العبد؟! الله على علم كامل بالعبد.

يرفع الحجاب بين الله والعبد من الجهتين، نعرف كيف يرتفع الحجاب بمقدار من جهة العبد عن الله ﷻ، لكن كيف يرتفع الحجاب من جهة الله عن العبد؟! الله على علم كامل بالعبد. «منه حفظه الله»

٢. ما يرتفع من جهة الله عن رؤيته العبد هو مانع الذنب عن النظر إليه بعين الرحمة الخاصة. «منه حفظه الله»



أَعْرِفْ حُجَّتَكَ، اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي حُجَّتَكَ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي حُجَّتَكَ، ضَلَلْتُ عَنْ دِينِي»^(١).

من لم يعرف أنَّ الله ﷻ عظيم عليم حكيم رحيم بعباده لم يعرف رسوله، أو لم يعرف ما هو وصف الرسول وعصمته، وشأن الرسول وحقه، ووجوب الأخذ بكل ما جاء به وطاعته.

ومن لم يعرف الرسول وموقعه ومقامه ومهماته، وعصمته لم يعرف ماذا يطلب فيمن يخلفه في إمامته وقيادته للأمة وللإنسانية جمعاء وعصمته^(٢)، وأمانته على دين الله، ولم يهتد له، وصار إلى من لا يليق بهذا المنصب الإلهي الشامخ ووظائفه الثقيلة.

ومن ضيَّع الطريق إلى حجة الله على خلقه بعد نبيه ﷺ ولم يهتد له، وصار إلى غيره ضلَّ عن الدين وضيَّعه وفلَّت الدين من يده^(٣).

وهنا يستعين الإمام عليه السلام بالله في معرفته ولا يتكل على عقل وتزكية نفس ومجاهدة مما يجد فيه، ويرى عليه أن يأخذ به عارفاً بأن كل الأسباب إنما هي بتسبيب الله سبحانه،

١. الكافي للكليني: ١ / ٣٣٧ ح ٥.

٢. هو لا يعرف أن الرسول معصوم، لا يعرف ما هي مهمات الرسول ﷺ، لا يعرف شروط إمامته، أهل سيِّد من هو الإمام، وبأي مواصفات هو الإمام؟ فمن جرؤ على سلب العصمة مثلاً عن النبي ﷺ هل يرى أن الإمام لا بد أن يكون معصوماً؟! لا. «منه حفظه الله»

٣. دين بلا إمام حق ناقص، ولا بد أن يشوه، ولا بد أن يضل أتباع الدين في غياب الأخذ بهدى الإمام الحق. «منه حفظه الله»



وأن عطاءه فوق كل حساب^(١).

الطريق الخامس: التجلي النوراني

"من المعرفة؟ لا وجود لشيء، ولا حياة، ولا علم، ولا أثر إلا بالله ﷻ، فلا يتوهم أن أحداً يملك من ذاته أن يعرف الله ﷻ بأي مستوى من المعرفة؛ فإنه لا معرفة بالله سبحانه إلا من الله، وبفضله ورحمته"^(٢). "وعن الصادق عليه السلام: «إِلَّا أَنَّهُ قَدْ احْتَجَّ عَلَيْكُمْ بِمَا قَدْ عَرَفْتُمْ مِنْ نَفْسِهِ»^(٣)، وما كان الله ﷻ أن يحتج على العباد بما لم يعرفهم به من نفسه، فلولا أن ألهمهم معرفته، وفتح لهم أبواب العقل والقلب على مزيد من تلك المعرفة، وبث الآيات الكونية التي تملأ كل زاوية من هذا الكون، وتظهر في كل ذرة من ذراته لما كان يحتج على أحد، ولا يطالب أحداً بمعرفته وعبادته.

وعنه عليه السلام: «إِنَّمَا عَرَفَ اللَّهُ مَنْ عَرَفَهُ بِاللَّهِ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ بِهِ فَلَيْسَ يَعْرِفُهُ، إِنَّمَا يَعْرِفُ غَيْرَهُ - إلى أن قال: - وَلَا تُدْرِكُ مَعْرِفَةُ اللَّهِ إِلَّا بِاللَّهِ»^(٤) (٥).

و"بمن المعرفة؟ بمن اعرف ربي؟ بالسماء اعرف ربي؟ بما أنبت؟ بما خلق؟ بما أحيأ؟ «بك

١. خطبة الجمعة (٥٩٥) ٢٦ جمادى الأولى ١٤٣٥هـ - ٢٨ مارس ٢٠١٤م.

٢. خطبة الجمعة (٣٧٩) ٨ شعبان ١٤٣٠هـ - ٣١ يوليو ٢٠٠٩م.

٣. الكافي للكليني: ١ / ٨٦ ح ٣.

٤. التوحيد للصدوق: ١٤٢ ح ٧.

٥. خطبة الجمعة (٣٧٩) ٨ شعبان ١٤٣٠هـ - ٣١ يوليو ٢٠٠٩م.

عَرَفْتُكَ، وَأَنْتَ دَلَّلْتَنِي عَلَيْكَ، وَدَعَوْتَنِي إِلَيْكَ، وَلَوْ لَا أَنْتَ لَمْ أَدْرِ مَا أَنْتَ»^(١). [فإنَّ الخلق والنظام والعلم والعطاء والكمالات المحدودة المتفاوتة، انعكاسات لنور الوجود الإلهي المطلق، لا بالصورة المطلقة التي لا يطبقها المحدود.

أنت ترى انعكاساً لنور الله، أنت ترى في عظمة الجبال، في جمال الورد، في دقة الصنع، في إحكام التدبير، انعكاساً، شعاعاً، من إشعاع الوجود الإلهي المطلق.. فأنت به تراه^(٢).

و"عن علي عليه السلام: «الظَّاهِرُ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاظِرِينَ، وَالْبَاطِنُ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ»^(٣)، فليس من يملك نظراً إلا وهو مقهور على الإقرار بالله تعالى، وليس شيء من القلوب ما ينكره، ولكنه الخفي، الذي لا تصله العقول والقلوب، إذا أرادت أن تصل إلى كنه ذاته تبارك وتعالى، فإنَّ عِزَّتَهُ التي لا تُنال، وكبريائه وعظمته وجلاله وجماله لا يسمح بأن تراه العيون القاصرة، والقلوب والعقول المحدودة، وهو لا حدَّ له تبارك وتعالى. ولو لم تكن إلا النفسُ بلا خارج مطلقاً.. بلا أرض ولا سماء، ولا مخلوق آخر دونها، لكان الله عزَّ وجلَّ ظاهراً لها بخلقها، وعجائب آياته فيها، وما كان لها من سبيل إلى الإنكار والمجحد^(٤).

١. إقبال الأعمال لابن طاوس: ١ / ٦٧. من دعاء رواه أبو حمزة الثُمالي، عن زين العابدين (صلواتُ الله عليه).

٢. خطبة الجمعة (٥٠) ١ المحرم ١٤٢٣هـ - ١٥ مارس ٢٠٠٢م.

٣. نهج البلاغة للرضي: ٣٢٩ ح ٢١٣.

٤. خطبة الجمعة (٣٧٩) ٨ شعبان ١٤٣٠هـ - ٣١ يوليو ٢٠٠٩م.

و"يقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١) وكلَّ يومٍ يكتشف العلم جديداً من أسرار خلق السماوات والأرض، وتتجلَّى له في مطالعته آيات تذهل العقول، وتضطرها إلى الإذعان بعظمة فوق التصور لما خلق الله تبارك وتعالى، وإن كانت هذه القلوب، وإن كانت هذه العظمة لا تمثل إلا الانعكاس المحدود لعظمة الخالق التي لا يحدها حدٌّ، ولا تقف عند نهاية على المخلوق المحدود، وكلَّ ما اكتشفه الإنسان إلى اليوم، وما سيُضاف إلى ذلك من اكتشافات لأسرار الكون في جولة الحياة لهذه الإنسانية، إنما هو القليل الضئيل بالقياس إلى ما يغني به الكون من أسرار، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^{(٢) (٣)}.

وفي إطار هذا الطريق يُمكن الإشارة إلى الآتي من التجليات:

الأول: تجلّي الذاتية

كتجلّي أن الله تعالى فردٌ لا مثيل له، كما يُستفاد مما ورد "[عَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: (سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ عليه السلام): أَنَّ رَجُلًا قَامَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، فَقَالَ لَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا عَرَفْتُ رَبِّكَ؟ فَقَالَ عليه السلام: بِفَسْخِ الْعِزْمِ، وَنَقْضِ الْهَمِّ، لَمَّا أَنَّ هَمَمْتُ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ هَمِّي، وَعَزَمْتُ فَخَالَفَ الْقَضَاءُ عِزْمِي، فَعَلِمْتُ أَنَّ الْمُدَبِّرَ غَيْرِي"^(٤). وهل ذلك الربُّ المدبّر مثلي؟ ويساويني في فقد ذاتي؟ وفي الفقر الذاتي؟ يستحيل، فالمدبّر غيري وهو فوق ما أتصور ومن أتصور، فوق كلِّ المحدودين لكونه غير

١. آل عمران: ١٩٠.

٢. الإسراء: ٨٥.

٣. خطبة الجمعة (٢٧٢) ٢٧ محرم الحرام ١٤٢٨هـ - ١٦ فبراير ٢٠٠٧م.

٤.

محدود وغنياً بذاته، لا يسترشد الوجود والحياة والعلم، وكل الكمال من غيره^(١).

الثاني: تجلّي الخالقِية

كتجلّي أن الله ليس في الوجود خالق أصيل غيره، ولا فاعل مُستقلّ غيره، وأنّ الأسباب مخلوقة له، فـ"قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾^(٢).. الأرض ساكنة موات، وموتها هو سرّ سكونها، لا حركة ولا أي مظهر من مظاهر الحياة، أرضٌ قاحلة جافّة، ينزل عليها الماء بقدر الله فتواقعها هزة الحياة، وتتفتّق عن حياة تملأ السمع والبصر، لتُغذي أحياء الأرض المتحرّكة عليها.

لحظة تتفتّق فيها الأرض عن الحياة هي لحظة خلق عجيب تتكرّر في الوقت القصير بلايين المرّات على هذه الأرض، فالأرض لا تكفّ في أي لحظة من اللحظات عن الشهادة على قدرة الله عزّ وجلّ، على الخلق والإحياء بعد الموت.

من يتقدّم من خلق الله يُرجع إلى نفسه هذه الظاهرة من الحياة، وليقول عن نفسه بأنّه المصدر الأوّل الذي يحدث الحياة بعد الموت على وجه الأرض؟!

ليس من أحدنا وهو يرجع إلى نفسه في هذا الأمر إلا وتقول له نفسه: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾^(٣). الماء لا يستغني عنه نبات ولا حيوان ولا إنسان،

١. خطبة الجمعة (٢٧٦) ٢٦ صفر ١٤٢٨هـ - ١٦ مارس ٢٠٠٧م.

٢. فصلت: ٣٩.

٣. الواقعة: ٦٨.

وإذا شحّ قامت حروب فضلاً عن أن يتلاشى وينفذ إنه لا حياة لمخلوقات الأرض بلا ماء أبداً، هذا السر من أسرار الحياة، هذا السبب من أسباب بقاء الإنسان على وجه الأرض، بيد من عطاؤه؟ بيد من خلقه؟ بيد من قوانينه؟ أهنالك يد غير يد الله تملك شيئاً من هذه الظاهرة، وهذا السبب؟!

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾^(١). ولماذا لا تنزلونه أنتم؟ لأنكم لستم الوجود القادر على كل شيء، لستم الوجود الخلاق بالأصل، لستم الذين تملكون بالأصل ظاهرة الخلق والموت والحياة، لأنكم صفر في ذاتكم، عدم في ذاتكم، وهذا يستوي فيه معكم كل مخلوق حتى أعظم الملائكة وأعظم الأنبياء، فلا خالق ولا رازق لهذا السبب من أسباب الحياة ككل الأسباب إلا الله ﷻ^(٢).

الثالث: تجلّي الربوبية

كتجلّي أن الله تعالى مُدَبِّر كل شيء وصانعه، كما يشير إليه من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتَى تُؤَفِّكُونَ﴾^(٣). تبقى الحبة وهي على استعداد الحياة سبات الموت، وتبقى النواة وهي على قابلية الحياة كذلك، حتى يأتيها إذن الله تبارك وتعالى لأن تتفتق عن حياة، ولأن تسلك درب النمو، ودرب العطاء، ودرب الإنتاج فيكون ذلك.

١. الواقعة: ٦٨-٧٠.

٢. خطبة الجمعة (٢٧٦) ٢٦ صفر ١٤٢٨هـ - ١٦ مارس ٢٠٠٧م.

٣. الأنعام: ٩٥.



﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾^(١) حبة التفاح وزنت وزناً خاصاً لتعطي تفاحاً، وكل أصل الفاكهة وزناً خاصاً ليعطي ذات تلك الفاكهة، وكل حيوان منوي لإنسان أو حيوان، وزن الوزن الخاص، وقدر التقدير الخاص، ليعطي الناتج المناسب معه، الجنس مقدر، النوع مقدر، الصنف مقدر، الشخص مقدر، كل شيء موزون بقدر في علم الله، وحكمة الله، وإبداع الله.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرثُونَ﴾^(٢) أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾^(٣)، هناك الظاهر السطحي للزراعة بوضع البذرة في الأرض وسقيها وإسمادها، وهناك حقيقة الزرع، وحقيقة الإنبات وهي توليد الحياة في النبتة، وإعطائها ظاهرة الحياة بعد الموت، الحقيقة الكبرى في الزرع لا يمكن أن يدعيها أحد، وأنه صانع لها غير الله تبارك وتعالى.

أما الظاهرة السطحية والتي يمارسها الإنسان فإن الإنسان لم يمارسها كذلك إلا بعباء الله، وتوفيق الله، وفاعلية من الله.

[عَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ عليه السلام: أَنْ رَجُلًا قَامَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، فَقَالَ لَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا عَرَفْتُ رَبِّكَ؟ فَقَالَ عليه السلام: بَفَسْخِ الْعِزْمِ، وَنَقْضِ الْهِمَمِ، لَمَّا أَنْ هَمَمْتُ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ هَمِّي»^(٤).

فإذا أنا لا أملك تدبيري، أنا لا أصنع نفسي، أنا لا أنزل وجودي بصورة متدفقة وأتحكم فيه كما أريد، وإلا لما حال بيني وبين همي شيء، بينما أجدني أغلب على نفسي،

١. الحجر: ١٩.

٢. هذا الذي تزرعون. «منه حفظه الله»

٣. الواقعة: ٦٣.

٤. الخصال للصدوق: ٣٣ ح ١.

ويحول بيني وبين أن تفعل إرادتي، وأن يبقى همّي من يحول، فإذا لست يملك نفسه. وقد يصل الهم إلى حدّ العزيمة، والعزيمة قد تكون أنضج درجات إرادة الفعل، أو هي كذلك ومع ذلك يكون التراجع، ولو كنت الذي أملك نفسي لما حال بيني وبين ما عزمته عليه شيء، وقد تبقى العزيمة، وإرادة الفعل إلا أن الأسباب تحول بيني وبين ما أريد، فأنا لا أملك داخلي ملكاً أصلياً، ولا أملك الخارج^(١).

"تقف مع علي بن أبي طالب عليه السلام في جملة من كلماته عن الأرض، لنجد أين علم علي عليه السلام من زمانه، وأين الغيب الذي يحمله علي عليه السلام من النظريات الواهية الواهمة عن الأرض يومذاك، إنه الغيب ينطق على لسان علي عليه السلام، وكيف لا، وهو الذي زقه رسول الله صلى الله عليه وآله علم الوحي زقا.

قارنوا بين كلمات علي عليه السلام وبين ما عليه آخر النظريات، أنضج النظريات عن الأرض، والقراءة سريعة.

«أَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اسْتِغَالٍ»^(٢)، الله عز وجل كما تقدّم لا يقوم خلقه على المعاناة، لا يقوم تدبيره الكون على الممارسة، وعلى المكابدة، والتعب، إنما أمره بين الكاف والنون يقول للشيء كن فيكون، وتدبير الكون قائم على طريقة كن فيكون، إدارة الكون ليست إدارة تشريعية وإنما هي إدارة تكوينية أي تقوم على الفيض، تقوم على الخلق، تقوم على التكوين، تقوم على الإيجاد، الكون في كل لحظة خاضع للإيجاد الجديد، خاضع للفيض المتدفق الجديد.

١. خطبة الجمعة (٢٧٦) ٢٦ صفر ١٤٢٨هـ - ١٦ مارس ٢٠٠٧م.

٢. نهج البلاغة للرضي: ٢٧٤ ح ١٨٦.



«وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ»^(١): ليس على قرن ثور، كما في النظرية الواهية، هي راسية، ثابتة مثبتة، ولكن لا على قرار، إنها الجاذبية فحسب، أرساها على صخرة، والصخرة على قرن ثور وما إلى ذلك، هذا لا يوجد في فهم علي عليه السلام.

«وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمٍ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمٍ، وَحَصَّنَهَا مِنَ الْأَوْدِ^(٢) وَالْأَعْوِجَاجِ، وَمَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ^(٣) وَالْإِنْفِرَاجِ»^(٤).

في كلمة أخرى له عليه السلام:

«فَأَنهَدْ^(٥) جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا، وَأَسَاخَ^(٦) قَوَاعِدَهَا فِي مَتُونِ أَقْطَارِهَا»^(٧) - إلى أن قال - وَجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَادًا، وَأَرْزَهَا^(٨) فِيهَا أَوْتَادًا، فَسَكَنْتَ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ^(٩) بِأَهْلِهَا،

١. المصدر نفسه.

٢. والأود هو الاعوجاج. «منه حفظه الله»

٣. والتساقط والتفتت. «منه حفظه الله»

٤. نهج البلاغة للرضي: ٢٧٤ ح ١٨٦.

٥. أنهده: رفعه وأعلاه. «منه حفظه الله»

٦. ثبت. «منه حفظه الله»

٧. الجبال ممتدة في عمق الأرض لتثبيتها وترتفع أيضا لتثقلها. «منه حفظه الله»

٨. وثبتها. «منه حفظه الله»

٩. الإمام عليه السلام يقول الأرض متحركة ليست ثابتة، ولكن وهي متحركة وفي حال حركتها، وحيث تجدها

متحركة من حيثية، مستقرة من حيثية أخرى، لا تميد بأهلها. «منه حفظه الله»



أَوْ تَسِيخَ بِحَمْلِهَا، أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا»^(١).

الكلمة الأخرى: «رَفَعَ السَّمَاءَ بِغَيْرِ عَمَدٍ، وَبَسَطَ الْأَرْضَ عَلَى الْهَوَاءِ بِغَيْرِ أَرْكَانٍ»^(٢).

في قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾^(٣)؛^(٤) «جَعَلَهَا مُلَاطِمَةً لَطَائِعِكُمْ مُوَافِقَةً لِأَجْسَادِكُمْ، لَمْ يَجْعَلَهَا شَدِيدَةَ الْحَمِي وَالْحَرَارَةِ فَتُحْرِقْكُمْ، وَلَا شَدِيدَةَ الْبَرْدِ فَتُجَمِّدْكُمْ، وَلَا شَدِيدَةَ طِيبِ الرِّيحِ فَتَصْدَعَ هَامَاتِكُمْ، وَلَا شَدِيدَةَ الثَّنَنِ فَتُعْطِبْكُمْ الْحِ»^(٥).

هذا تفسير علي عليه السلام لمسألة علمية اختلف عليها العلماء السابقون اختلافاً كبيراً، ولم يصل الإنسان إلى حقيقة هذه القضية إلا بعد شوط كبير طويل من العلم، وبعد أن تجهز بأسلحة الرؤية النافذة للفلك البعيد، وتوفر على دراسات كبيرة وفرت له رؤية تنال الواقع^(٦).

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(٧).. الرزق يحتاج إلى إله، يحتاج إلى متصرف في الكون،

١. نهج البلاغة للرضي: ٣٢٨ ح ٢١١. تنخسف، وحملها ما عليها، ما عليها من عمارة، ما عليها من مدينة. «منه حفظه الله»

٢. الدروع الواقية لابن طاووس: ٩٢.

٣. يفهم الإمام عليه السلام من كلمة فراش بمعنى أن الأرض لا تشبه الكرة؟ لا، ليس بهذا المعنى، وتفسيره للفراش بمعنى الملازمة للطباع، الخ. «منه حفظه الله»

٤. البقرة: ٢٢.

٥. التوحيد للصدوق: ٤٠٤ ح ١١.

٦. الجمعة (٢٧٥) ١٩ صفر ١٤٢٨ هـ - ٩ مارس ٢٠٠٧ م.

٧. فاطر: ٣٣.



إلى مدبر له، إلى مالك لكل ذرة من ذراته، إلى واضع لقوانين هذا الكون، متحكم فيها، مسيطر عليها، الرزق يقوم على الخلق، على الإيجاد، على التكوين، الرزق ليس تمشية معاش جاهز، الرزق أن يولد حيوان، أن يحيا نبات، أن يسقط مطر، أن تمتلك الأرض خصوبة، قابلية الإنماء، أن تتعاون قوانين وقوانين على تولد ظاهرة الحياة في الأرض بإذن الله تبارك وتعالى، الرزق يحتاج إلى إبداع دائم، وإلى صنع مستمر، وإلى فاعلية قائمة، وإلى إرادة حية قادرة، هذا هو الرزق.

في اليوم الواحد كم يأكل هذا العالم؟ كم يلبس؟ كم يشرب؟ كم يبني؟ من أين كل هذا؟ هذا قائم على الصنع، على الإيجاد، على الخلق، أملك أحدنا أن يجيب بأن الرازق غير الله؟! فليستنطق أحدنا نفسه بنفسه: هل من رازق غير الله؟ هل من خالق غير الله؟

والآية الكريمة تربط بين الخلق والرزق ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾^(١). الآية الكريمة تؤكد العلاقة بين القدرة على الخلق والإبداع وبين الرزق ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤَفَّكُونَ﴾^(٢).

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾^{(٣) (٤)}.

١. فاطر: ٣٣.

٢. فاطر: ٣٣.

٣. الملك: ٢١.

٤. خطبة الجمعة (٢٧٤) ١٢ صفر ١٤٢٨هـ - ٢ مارس ٢٠٠٧م.

الرابع: تجلّي التشريع

كتجلّي التشريع الكامل الدقيق، فإنّ "ملايين العلاقات وبلايينها، والتي تدخل في وزنك وفي تقديرك، وفي ما يصلحك وما يفسدك، من يعلمها إلا الله.

وأَيُّ مشرع يستطيع أن يستحضرها لحظة تشريعه بكاملها؟

من هو المشرّع الذي يستطيع أن يستحضر بلايين العلاقات، التي تربط الذات الإنسانية الواحدة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ليشرع لهذا الإنسان؟

[إنّ] عقلية رسول الله ﷺ لم يوكل إليها أمر التشريع بصورة مطلقة، ولو علم الله ﷻ أنّ رسوله ﷺ بذاته المقدّسة، قادر أصلاً على وضع التشريع الكامل للإنسان، لأرسله، وأوكل له مهمة وضع التشريع من غير وحي آخر.

لكنه قال له: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾^(١)، نعم يأتي من رسول الله ﷺ التوجيه، وقد يأتي الحكم أيضاً في مورد من الموارد، لكنه يهdy من ربه ﷻ.. مرة ينزل عليه جبرئيل عليه السلام، ومرة لا ينزل عليه جبرئيل عليه السلام، ولكن كلّ وحي يتلقاه ﷺ من عند ربه، ولا ينسب شيء مما جاء به ﷺ إلى ذاته.

ما يلزمنا جميعاً أن نوّكد عليه، بالنسبة لأنفسنا وأهلينا ومجتمعنا والعالم، هو هذا الأمر؛ يعني أن يكون مردّ أمر هذا الإنسان وتشريعه وتوجيهه وتربيته وقيادته لله ﷻ، وذلك بأن يتلقّى الهدى منه عن طريق رسوله الأكرم ﷺ، وميراث الوحي الذي لم يورث رسول الله ﷺ أحداً من هذه الأمة، مهما كان مثلما ورثه أهل بيته

المعصومين عليهم السلام، فعندهم هدى الله وكلمته ومنهجه وشرعه، والأطروحة المنقذة، والنظام الذي يبحث عنه العالم.

[إِنَّ الْعَالَمَ] يشرق ويغرب هنا وهناك، ويجمع فلاسفته ومفكره، فلا يجد عندهم النظام الذي لو طُبِّقَ لأَسْعَدَ البشر دُنياً وآخرة، فإلى هذا الهدى وهذه المدرسة، ولنعطِ عمرنا كله لهذه المدرسة، ولأء وإخلاصاً وجهاداً وتوعية وبثاً ونشراً^(١).

الطَّرِيقُ السَّادِسُ: الْعِلْمُ النَّافِعُ

”أما بعد فإنه ما من معرفة تبلغ شرفاً ورفعةً وأهميةً وعلوًّا، مبلغ ما عليه معرفة العباد لله سبحانه، وإنَّما تشرف المعارف، بمقدار ما تساعد على معرفته سبحانه، وتثبتها، وترسخها، وهي سرُّ القوة والاستقامة والسعادة عند الإنسان.

وعن علي عليه السلام: «مَعْرِفَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَعْلَى الْمَعَارِفِ»^(٢).

وعنه عليه السلام: «ثَمَرَةُ الْعِلْمِ مَعْرِفَةُ اللَّهِ»^(٣).

فعلمٌ لا يؤدي إلى معرفته سبحانه كأنه لا ثمرة له، وفاقد للغاية الكريمة للعلم^(٤).

”وللكسب العقلي دور في الإيمان بعدد من مسائل العقيدة تأسيساً، وفي قضية التوحيد تأكيداً وتثبيتاً، وتتلقَّى فروع الدين من الوحي المتنزل على الرسول صلَّى الله عليه وآله، والواصل إلى

١. خطبة الجمعة (٧) ٢٤ صفر ١٤٢٢ هـ - ١٨ - ٥ - ٢٠٠١ م..

٢. عيون الحكم والمواعظ لليثي: ٤٨٦ ح ٨٩٨٩.

٣. غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي: ٣٢٦.

٤. خطبة الجمعة (٣٧٨) ١ شعبان ١٤٣٠ هـ - ٢٤ يوليو ٢٠٠٩ م.

المكلفين منه ﷺ أو من غيره بطرق العلم، والنقل الخاصة المعتبرة المنتهية إلى قول المعصوم عليه السلام^(١).

”عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل: قيل له -أي: لأبي عبد الله عليه السلام-: «فهل يكتفي العباد بالعقل دون غيره؟ قال: إن العاقل -لدلالة عقله الذي جعله الله قوامه وزينته وهدايته- علم أن الله هو الحق، وأنه هو ربُّه، وعلم أن لخالقه محبةً، وأن له كراهيةً، وأن له طاعةً، وأن له معصيةً، فلم يجد عقله يدُّه على ذلك^(٢)، وعلم أنه لا يوصل إليه إلا بالعلم وطلبه، وأنه لا ينتفع بعقله، إن لم يُصب ذلك بعلمه، فوجب على العاقل طلب العلم والأدب الذي لا قوام له إلا به»^(٣).

ولنقف عند الحديث الشريف الذي يرينا ما يفتينا به العقل وهو هبة من الله لنا، وما نحتاج إليه معه بلوغاً للغاية.

أ- قوام الإنسان في حياته، وما به استقامة هذه الحياة ورشدها بالعقل وهو زينته وميزته من بين سائر ما على الأرض من أنواع جمادٍ وحيوانٍ مسخرات له.

ب- علم العقل العباد أن الله هو الحق وهو أصل الوجود كله، وأن لا ربَّ لهم وللكون

١. خطبة الجمعة (٣٧٩) ٨ شعبان ١٤٣٠هـ - ٣١ يوليو ٢٠٠٩م.

٢. يعني على تفاصيل ما هو طاعة، وتفاصيل ما هو معصية، العقل لا يملك هذا، لا يملك أن يشخص ما هو أمر الله هذا في كل مورد مورد، وما هو نهيه. «منه حفظه الله»

٣. الكافي، الكليني، ج ١، ص ٢٩.



سواه.

ج- أفاد العقلُ العبادَ بأنَّ اللهَ ﷻ محبٌّ للحقِّ والخير، كارهٌ مبغضٌ للباطل والشرِّ، وأنَّ اللهَ ﷻ حقٌّ الأمر والنهي لعباده وأنَّ من رحمته بهم أن يأمرهم وينهاهم، وأنَّ ما أمر به عليهم أن يأخذوا به، وما نهى عنه عليهم أن ينتهوا عنه ويدعوه.

د- مع ذلك ليس للعباد من عقلهم ولا لأيِّ شيء من ذواتهم ما يعرفهم بكلِّ ما هو متعلِّق لأمر الله ونهيه.

هـ- عندئذ يكون التطلُّع إلى منهج الحياة المتمثِّل في الشريعة العليمة السديدة من وحي الله وتبليغ الرسل المصطفيين، وعليهم أن يسعوا السعي العلمي لتلقِّي هذه الشريعة وفهمها، وأن يُقيموا كلَّ حياتهم على أساسها، وطبقاً لأحكامها فهذا هو الطريق الوحيد المضمون للبلوغ بالإنسان نضجَه وتحقيق فلاحه وسعادته^(١).

١. خطبة الجمعة (٥٩٢) ٥ جمادى الأول ١٤٣٥هـ - ٧ مارس ٢٠١٤م.

الفصل السادس: آثار معرفة الله تعالى

”تترتب على معرفة العبد، ودرجة هذه المعرفة، آثار كريمة تُقَوِّى بها نفسه، وتغنى وترقى أيما رقى، وتنهض أيما نهوض:

١- محبته سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(١).

لا يبلغ حبّ أحد لأحد مهما بلغ ذلك الحبّ مقدار ما عليه حبّ العبد المؤمن بالله العارف به لربه إذ ما من كمال لأحد ككماله^(٢)، ولا إنعام كإنعامه، ولا إحسان كإحسانه.

وعن الإمام علي عليه السلام: «الشَّوْقُ خُلَصَانُ الْعَارِفِينَ»^(٣).

وعنه عليه السلام في خطبة له في وصف الملائكة: «وَوَصَلَتْ حَقَائِقُ الْإِيمَانِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، وَقَطَعَهُمُ الْإِيقَانُ بِهِ إِلَى الْوَلَهِ إِلَيْهِ»^(٤)، وَلَمْ تُجَاوِزْ رَغْبَاتُهُمْ مَا عِنْدَهُ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ،

١. البقرة: ١٦٥.

٢. أنت تحبّ الكمال، أنت تحبّ في أيّ من الخلق درجة ما له من كمال، درجة ما ترتقبه منه من عطاء، درجة ما عليه إحسانه إليك، وهل يبلغ أحد من كل ذلك ما لله سبحانه؟! «منه حفظه الله»

٣. عيون الحكم والمواعظ للبيهي: ١٧ ح ٩٢٣.

٤. الوله: ذهاب العقل، والتحير من شدة الوجد. «منه حفظه الله»

قَدْ ذَاقُوا حَلَاوَةَ مَعْرِفَتِهِ، وَشَرَبُوا بِالْكَأْسِ الرَّوِيَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ سُيْدَاءِ^(١) قُلُوبِهِمْ وَشَيْجَةً^(٢) خِيفَتِهِ^(٣).

وعن الإمام الحسن عليه السلام: «مَنْ عَرَفَ اللَّهَ أَحَبَّهُ»^(٤) ^(٥).

٢- خشيته جل وعز:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٦).

عن الرسول صلَّى الله عليه وآله: «مَنْ كَانَ بِاللَّهِ أَعْرَفَ كَانَ مِنَ اللَّهِ أَخَوْفَ»^(٧).

وكيف لا يخشى من لا حدَّ لقدرته، ولا شيء يخفى على علمه، ولا مهرب لأحد من ملكه؟!

ولا يخشى من الله تبارك وتعالى ظلم أو خطأ في علم أو تقدير، أو تجاوز في العذاب، إنما يخشى من الله قدرته وعلمه وعدله^(٨).

١. سويداء القلب: حُبَّتُهُ. «منه حفظه الله»

٢. الوشيجة: عرق الشجرة في الأصل، وتستعار للمبالغة في الخوف. «منه حفظه الله»

٣. نهج البلاغة للرضي: ١٣٠ ح ٩١.

٤. مجموعة ورام لورام: ١ / ٥٢.

٥. خطبة الجمعة (٥٩٦) ٤ جمادى الآخر ١٤٣٥ هـ - ٤ أبريل ٢٠١٤ م.

٦. فاطر: ٢٨.

٧. جامع الأخبار للشعيري: ٩٦.

٨. خطبة الجمعة (٥٩٦) ٤ جمادى الآخر ١٤٣٥ هـ - ٤ أبريل ٢٠١٤ م.



٣- شدة الرجاء:

عن رسول الله ﷺ: «قَالَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ، حَقٌّ لِمَنْ عَرَفَكَ أَنْ لَا يَقْطَعَ رَجَاؤُهُ مِنْكَ»^(١).

وعن الإمام علي عليه السلام: «يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَرْغَبَ فِيمَا لَدَيْهِ»^(٢).

ما من خير يحتاجه العبد ويصلح حاله، وتمتد إليه أمنيته إلا وخزائن الله التي لا تنفذ غنية به، وفوق ما يحتاجه عباده، وفوق كل الأمنيات.

وحاجة العبيد معلومة لله، ودعاؤهم مسموع، وكرمه فوق ما يأملون فماذا من أسباب الرجاء الممتد مفقود في حقه سبحانه أو قاصر عند عارفه حتى يقف لهم أمل دونه، أو يتجاوزه أمل؟! أو ينقطع فيه رجاء؟!^(٣).

٤- طاعته سبحانه:

للطاعة أسباب، وما من سبب من أسبابها إلا والطاعة لله واجدة له بما لا تجده طاعة لأحد من دونه تماماً وقوة وأصاله؛ فالخير كله من عنده، والرجاء كله فيه، والخوف الحق منه، ولا كمال، ولا جمال، ولا جلال لأحد ككماله وجماله، وجلاله، ولا شيء لأحد من ذلك على محدوديته إلا من عطائه، وله وحده الكمال المطلق، والجمال غير المتناهي،

١. قرب الإسناد للحميري: ١١٩ ح ٤١٧.

٢. غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي: ٧٩٦.

٣. خطبة الجمعة (٥٩٦) ٤ جمادى الآخر ١٤٣٥ هـ - ٤ أبريل ٢٠١٤ م.



والجلال غير المحدود.

وتتمثل طاعة العبد لله سبحانه بإتيان ما أوجب وأمر، والكف عما حرم ونهى، وعن الإمام علي عليه السلام: «مَنْ عَرَفَ كَفَّ»^(١)، فمعرفة سبحانه تكف عارفه عن كل معصية وكل قبيح كما تدفعهم لكل طاعة وجميل^(٢).

٥- التحرر من الدنيا:

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «مَنْ سَكَنَ قَلْبُهُ الْعِلْمُ بِاللَّهِ أَسْكَنَهُ الْغِنَى عَنْ خَلْقِ اللَّهِ»^(٣). فهو قلب لا يشتري مطلقاً، لا يجد الخلق كل الخلق ما يشترونه به، وإبراهيم عليه السلام في الرواية وهو يقذف إلى النار، عرضت عليه الملائكة أن تقضي له حاجة فلم يجد في الملائكة من يقضي له حاجة، ولم يجد حاجة إلى مخلوق بعد أن سكن قلبه العلم بالله.

[وعنه عليه السلام أنه قال: «مَنْ صَحَّتْ مَعْرِفَتُهُ، أَنْصَرَفَتْ عَنِ الْعَالَمِ الْفَانِي نَفْسُهُ وَهَمَّتُهُ»^(٤).
لم يعد يقتتل اقتتال الحشرات على النفايات.

[وعن زين العابدين عليه السلام أنه قال في دعاء له: «وَأَجْعَلْنَا مِنَ الَّذِينَ اشْتَغَلُوا بِالذِّكْرِ عَنِ

١. عيون الحكم والمواعظ للبيهي: ٤٢٨ ح ٧٢٦٩.

٢. خطبة الجمعة (٥٩٦) ٤ جمادى الآخر ١٤٣٥هـ - ٤ أبريل ٢٠١٤م.

٣. عيون الحكم والمواعظ للبيهي: ٤٦٣ ح ٨٤١٥.

٤. غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي: ٦٦٤.



الشَّهَوَاتِ، وَخَالَفُوا دَوَاعِيَ الْعِزَّةِ - العِزَّةُ الكاذبة - بِوَأَصْحَاتِ الْمَعْرِفَةِ»^(١).. مَنْ ذَكَرَ لَمْ تَسْتَعْبِدْهُ شَهْوَةٌ، لَمْ تَأْسِرْهُ شَهْوَةٌ، لَمْ يَضْعَفْ أَمَامَ شَهْوَةٍ»^(٢).

وعنه "عَلَيْهِ السَّلَامُ": «إِنَّ جَمِيعَ مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، بَخْرَهَا وَبَرَّهَا، وَسَهْلَهَا وَجَبَلَهَا، عِنْدَ وَلِيِّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَأَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِحَقِّ اللَّهِ كَفِيَءِ الظَّلَالِ»^(٣) (٤).

الدنيا وعالمها الفاني كبيران عظيمان، ربحهما يبطر ويُجنّ ويخرج عن التوازن، والخسارةُ فيهما والمصيبةُ من مصائبهما، تُحطِّمُ النَّفْسَ، وَلَا تُبْقِي صَبْرًا عِنْدَ مَنْ وَقَفَ بِنَظَرِهِ عِنْدَهُمَا.

أَمَّا بَصِيرَةُ عَرَفَتْ اللَّهَ، فَصَاحِبُهَا بِمَنْجَاةٍ مِنْ ذَلِكَ الْجَنُونِ وَالْإِهْيَارِ، وَنَفْسُهُ أَقْوَى وَأَعْلَى مِنْ أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا، وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِخَيْرِهَا وَشَرِّهَا، سَرَائِهَا وَضَرَائِهَا.. لَا تَسْتَعْبِدْهُ، لِأَنَّهُ يَسْتَقِلُّ شَأْنُهَا أَمَامَ مَعْرِفَتِهِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَيَزْهَدُ فِيهَا، وَهُوَ لَا يَرَاهَا إِلَّا

١. بحار الأنوار للمجلسي: ٩١ / ١٢٧ ح ١٩.

٢. خطبة الجمعة (٥٠) ١ المحرم ١٤٢٣هـ - ١٥ مارس ٢٠٠٢م.

٣. وفرق بين الظلال وبين الفيء، الفيء خصوصه بما بعد الزوال لأن الظل فيه يرجع من جهة إلى جهة أخرى، أما الظلال فهو ما قبل الزوال، فالفترة قصيرة جدا بين أن يصل الظل إلى حد الزوال، وبين أن يميل إلى ما بعده، فالدنيا كلها بما فيها كفيء الظل. «منه حفظه الله»

٤. تحف العقول للحراني: ٣٩١.

كظلُّ ما أسرع ما يفيءُ ويرجعُ^(١) عما هو عليه، من جهة الغرب إلى الشرق، ولا مكث له في مكانه، وإنما هو دائماً في انتقال، من جهته الأولى إلى جهته الثانية^(٢)»^(٣).

٦- الشعور بالغنى والكرامة:

عن الإمام عليٍّ عليه السلام: «مَنْ عَرَفَ اللَّهَ تَوَحَّدَ»^(٤).

المعرفة بالله لما تُعطيه من شعور بالكرامة، وما تؤدي إليه من شرف الذات، ورفعة الذوق، وسمو النفس، وعظيم التطلع إلى الكمال تحمي النفس عن الدنو من الأجواء الملوثة، والمخالطة للنفوس المتدنية^(٥).

فأهل معرفة الله تبارك وتعالى يربأون بأنفسهم عن مخالطة أهل معصيته، الغارقين في مخالفة دينه، لا يقبلون أن يذوبوا في أهل الدنيا من طلبائها المحكومين لهواها.

ولو كانت الدنيا ملؤها هذا النوع من الناس لهان على أهل المعرفة الحقّة أن ينعزلوا عن الالتصاق بهم، وأن لا يطلبوا ودّهم ولكن في غير تخلٍّ عن واجبهم الديني المرتبط

١. كما تقدّم من لحظة ما قبل الزوال إلى لحظة ما بعد الزوال. «منه حفظه الله»

٢. والدنيا دائماً في رحيل، وفي اتجاه الآخرة، وكلنا في سعي دائم إلى حيث النهاية. «منه حفظه الله»

٣. خطبة الجمعة (٥٩٦) ٤ جمادى الآخر ١٤٣٥هـ - ٤ أبريل ٢٠١٤م.

٤. عيون الحكم والمواعظ لليثي: ٤٥٢ ح ٨١٠١.

٥. التوحد يعني أن أنفرد، أن أنعزل، لكن ما هي هذه العزلة؟. «منه حفظه الله»

بالناس، أو نسيانٍ لمسؤولياتهم^(١).

وعنه [أي: أمير المؤمنين] عليه السلام: «مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ لَمْ يَعْتَدِ بِالْخَلْقِ»^(٢).

لا يركض وراء رضا أحدٍ ليس فيه رضا الله، ولا يُفرحه ثناء الخلق، ولا يُحزنه أن ذمّوه ما دام على طريق ربّه، واثقاً بأنّه لم يحدّ عن هذا الطريق^(٣).

٧- التسليم لقضاء الله والرضا به:

الإمام الباقر عليه السلام: «أَحَقُّ خَلْقِ اللَّهِ، أَنْ يُسَلِّمَ لِمَا قَضَى اللَّهُ ﷻ مِنْ عَرَفَ اللَّهُ ﷻ»^(٤).

العارف بالله لا شكّ عنده في قدرته أو علمه، أو حكمته، أو عدله، ورحمته وإحسانه فلا يبقى من بعد ذلك إلّا أن يُسلّم لقضائه ما وافق منه النفس وما لم يوافقها لجهلها وما أدرك مصلحته أو لم يدرك مصلحته.

وليس هذا التسليمُ تسليمُ المضطر الذي لا حيلة له وإن رأى في ما جرى به قضاء الله ظلماً وشرّاً لا مفرّ منه^(٥). وإنما هو التسليم عن نفس راضية تعلم أن قضاءه ﷻ لا منفذ

١. فرق بين أن أقوم بمسؤولياتي الدينية اتجاه الناس، وأن لا أودّ باطلهم، فرق بين أن أقوم بمسؤولياتي الدينية اتجاه الناس، وأن لا أودّ باطلهم. «منه حفظه الله»

٢. موسوعة العقائد الإسلامية للريشهري: ٢ / ٢٩٠ ح ٣٧٢٨.

٣. خطبة الجمعة (٥٩٧) ١١ جمادى الآخر ١٤٣٥ هـ - ١١ أبريل ٢٠١٤ م.

٤. الكافي للكليني: ٢ / ٦٠ ح ٩.

٥. ليس أمر هذا التسليم هذا الأمر. «منه حفظه الله»



في ^(١) الحق والعدل والحكمة للمؤاخذه عليه، وأنه لا أحسن منه، ولا يمكن لقضاء أن يجري حسنه ودقته ^(٢).

ونقرأ في هذا عن الإمام زين العابدين عليه السلام من دعاءٍ نسب إليه: «كَيْفَ أَحْزَنُ وَقَدْ عَرَفْتُكَ؟!» ^(٣).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ بِاللَّهِ أَرْضَاهُمْ بِقَضَاءِ اللَّهِ ﷻ» ^(٤).

وعن رسول الله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: «عَلَامَةُ مَعْرِفَتِي فِي قُلُوبِ عِبَادِي حُسْنُ مَوْعِدٍ قَدَرِي، أَنْ لَا أُشْتَكِيَ، وَلَا أُسْتَبْطَى، وَلَا أُسْتَخْفَى»» ^(٥).

تتنفي في ضوء معرفة العبد لله سبحانه كل أسباب الشكوى من قضائه وقدره، وكل أسباب الاستبطاء والتأذي من تأخر ما يتمنى العبد، أو أن يكون عند النفس أنه سبحانه

١. أي في نظر الحق والعدل والحكمة. «منه حفظه الله»

٢. من عرف الله ﷻ كانت هذه النتيجة نتيجةً من نتائج معرفته، من عرف الله ﷻ كانت هذه النتيجة نتيجةً من نتائج معرفته. «منه حفظه الله»

٣. العدد القوية لدفع المخاوف اليومية لرضي الدين الحلي: ٢٤.

٤. الكافي للكليني: ٢ / ٦٠ ح ٢. يعني ما جرى من قضائك علي لا يحزنني كما يقول الإمام زين العابدين عليه السلام لأني أعرف أن ليس فيه إلا مصلحتي، وأنه ليس خارج العدل وخارج الإحسان. «منه حفظه الله»

٥. كنز العمال للهندي: ١ / ١٢٩ ح ٦٠٦.



ليس حاضر العلم أو القدرة والإرادة والتدبير^{(١) (٢)}.

٨- استبشار الوجه وحزن القلب:

عن الإمام علي^{عليه السلام}: «الْعَارِفُ وَجْهَهُ مُسْتَبْشِرٌ مُتَبَسِّمٌ وَقَلْبُهُ وَجَلٌ مَحْزُونٌ»^(٣).

وعنه^{عليه السلام}: «كُلُّ عَارِفٍ مَهْمُومٌ»^(٤).

أما استبشار وجه العارف فلأن هذا الاستبشار من خلق الإسلام إذا لم يكن مما يشجع على المعصية، وأما وجل القلب وحزنه فلما يشعر به المؤمن العارف من تقصيره في حق الله وإن عظمت طاعته له.

والحديث الثاني من الحديثين السابقين ناظر إلى ما عليه حال قلب العارف دون وجهه. وتستطيع أن تقول بأن العارف مسرور القلب لما يعمر به قلبه من الأمل في الله ورجاء عفوهِ ورحمته، وجميل إحسانه، وهو حزين القلب لشعوره بتقصيره، وخوفه من عدل ربه. وربما حصل للمؤمن من خير دنياه مما لا تلمة منه في دينه لذلك تنبسط أسارير وجهه ولكن ذلك لا يستغرقه، ولا يؤدي به إلى نسيان عظيم الإحسان من ربه، والنظر إلى قلة شكره فيحمل من قلة الشكر من نعمة الرب هم تقصيره، فتلك قلوب حية لا

١. من عرف الله ^{عز وجل} كان الله دائماً حاضراً في قلبه، في عقله، في تفكيره. «منه حفظه الله»

٢. خطبة الجمعة (٥٩٧) ١١ جمادى الآخرة ١٤٣٥هـ - ١١ أبريل ٢٠١٤م.

٣. عيون الحكم والمواعظ للبيهي: ٦٠ ح ١٥١٥.

٤. عيون الحكم والمواعظ للبيهي: ٢٧٦ ح ٦٣٤١.



يفارقها ذكر الله، ولا تلهو عن النظر إلى عظمته^(١).

٩- التعلّق بالدعاء وكثرته:

عن الإمام عليّ عليه السلام: «أَعْلَمُ النَّاسِ بِاللَّهِ أَكْثَرُهُمْ لَهُ مَسْأَلَةٌ»^(٢).

وعنه [الإمام الصادق] عليه السلام: «إِلَهِي كَيْفَ أَدْعُوكَ وَقَدْ عَصَيْتُكَ وَكَيْفَ لَا أَدْعُوكَ وَقَدْ عَرَفْتُ حُبَّكَ فِي قَلْبِي»^(٣).

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «يَا مَنْ أَنْسَ الْعَارِفِينَ بِطَيْبِ مُنَاجَاتِهِ»^(٤).

إنك لا تدعو من لا ترجوه^(٥)، ولا ترجو من لا قدرة له على الاستجابة للخير الذي تطلبه، أو لا يسمع نداءك واستغاثتك، ولا يصله دعاؤك، أو لا يتسع لك كرمه.

ولكنك تدعو وتعاود الدعاء، وتطلب كل ما تتمنى من الخير ممن علمت بقدرته، وأيقنت بعلمه بحاجات الطالبين وفقير المفتقرين ودعاء الداعين، وبأنّ عطاءه يشمل المحسن والمسيء والمطيع له من عباده والعاصي له، وأنّ كرمه واسع لا يضيق، فمعرفة الله عزّ وجلّ تطمّع عارفه في كثرة الدعاء والتوجه إليه عند كل مفزع من الشر، وكل مطمع في الخير.

١. خطبة الجمعة (٥٩٧) ١١ جمادى الآخر ١٤٣٥هـ - ١١ أبريل ٢٠١٤م.

٢. عيون الحكم والمواعظ للبيهي: ١٢٢ ح ٢٧٩٥.

٣. الأمالي للصدوق: ٤٢٨ ح ٥٧٨.

٤. بحار الأنوار للمجلسي: ٩١ / ١٥٧ ح ٢٢.

٥. هل رأيت نفسك تدعو من لا ترجوه، إذا فعل أحد هذا فقد ارتكب سفهاً. «منه حفظه الله»



والعارفون بالله تمنعهم معرفتهم من أن يتسلَّل إليهم اليأس من استجابة الله لدعائهم بكفاية الشرِّ والخروج من الورطات والهفوات، ونيل الخير وقضاء المآرب.

ثم فيما يجدون به سبحانه من أنسٍ من طيب مناجاته ولذيد الانقطاع إليه لا يفارقون دعاءه، ولا يصبرون عن مناجاته، فهي لذةٌ ليس مثلها عندهم لذة، وهي النعمة الكبرى^(١).

١٠- الأُنسُ بالله تعالى:

عَنْ جَمِيلِ بْنِ دَرَّاجٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «إِنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ ﷻ أَنْسٌ مِنْ كُلِّ وَحْشَةٍ»^(٢).. نحن نطلب الأُنس في الأهل والأصدقاء، [و] في أن نجتمع حولنا من الرأي العام أكبر قدر ممكن، ولكن ما يؤنس من الوحشة هو غير ذلك.

[وإنَّ] القلب الذي يفقد الرؤية لله و[يفقد] معرفته [به سبحانه]، لا يمكن أن يأنس الأُنسَ الكامل [وهو] بعيد عن معرفة الله ﷻ. [ف] كن في الظلمة الظلماء، [و] كن الوحيد الشريد، [و] كن في السجن المطبق، [و] كن في ظرف الفقر المدقع، وقلبك مفتوحٌ على معرفة الله، ستشعر بالأُنس والعزة والفخار والثقة التامة.

وافقد معرفتك بالله، واسكن القصور، وكن من تكون في رغدك، فإنك لن تكون الإنسان الذي يعيش قلبه الأُنس الحقيقي وعلى أتمه.

«إِنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ ﷻ أَنْسٌ مِنْ كُلِّ وَحْشَةٍ، وَصَاحِبٌ مِنْ كُلِّ وَحْدَةٍ، وَنُورٌ مِنْ كُلِّ

١. خطبة الجمعة (٥٩٧) ١١ جمادى الآخرة ١٤٣٥هـ - ١١ أبريل ٢٠١٤م.

٢. الكافي للكليني: ٨ / ٢٤٧ ح ٣٤٧.

ظُلْمَةٌ، وَقُوَّةٌ مِنْ كُلِّ ضَعْفٍ، وَشِفَاءٌ مِنْ كُلِّ سَقَمٍ»^(١). سقم الأرواح، سقم القلوب، سقم الصدور.

نعم أولئك هم العارفون بالله يعيشون الأنس، لا تقررص قلوبهم وحشة، يجدون دائماً صاحباً مؤنساً، ورفيقاً وفيّاً هو الله ﷻ، لا يعيشون وحشة الظلمة، لأن معرفة الله لهم نور من كل ظلمة، لا يعيشون حالة الضعف، لا في حال الهزيمة ولا في حال النصر، وللنصر ضربٌ من الضعف، وللهزيمة نوع آخر من الضعف، وللغنى ضعف ولل فقر ضعف، يدخل به هذا الظرف أو ذلك الظرف على النفس، والنفس الناجية من الضعف في كل الظروف وفي كل الحالات، هي نفسٌ آمنت بالله، عرفتته، عاشت الأنس به، «وَقُوَّةٌ مِنْ كُلِّ ضَعْفٍ، وَشِفَاءٌ مِنْ كُلِّ سَقَمٍ»^(٢)، من حالات الحقد.. حالات الحسد.. حالات التذمر، الخ. قلبٌ غسله نور الإيمان، وطهر المعرفة، فلم يبق يعاني من سقم ولا مرض^(٣).

وعن النبي ﷺ أنه قال في دعاء له: «يَا مَنْ لَا يَبْعُدُ عَنْ قُلُوبِ الْعَارِفِينَ»^(٤). الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، ما له من قلب لا يبعد عنه الله، وكان من تلك القلوب، قلب الحسين عليه السلام^(٥).

١. المصدر نفسه.

٢. الكافي للكليني: ٨ / ٢٤٧ ح ٣٤٧.

٣. خطبة الجمعة (٥٠) ١ المحرم ١٤٢٣ هـ - ١٥ مارس ٢٠٠٢ م.

٤. البلد الأمين والدرع الحصين للكفعمي: ٤٠٤.

٥. خطبة الجمعة (٥٠) ١ المحرم ١٤٢٣ هـ - ١٥ مارس ٢٠٠٢ م.

الفصل السابع: الولاية التكوينية

معنى الولاية التكوينية

"معنى الولاية التكوينية لله ﷻ، هو: أن خلق كل شيء من عطائه، وأن شيئاً ما كبر أو صغر، لا يمكن أن يأتي من غير الله ومن غير عطائه، وأن ديمومة كل شيء واستمراريته، في أصل وجوده، وفي صورة نظامه الداخلي، وفي ما يربطه من نظام جزئي، أو شامل كامل، كل ذلك إنما يكون بديمومة العطاء من الله ﷻ، وباستمرارية الفيض من الله ﷻ، فكوننا كله لو انقطع عنه المدد الإلهي لحظة، لغرق في بحر ظلام العدم، هذا الكون بأراضيه، وبما في السموات والأرض وما بينهما، إنما يعيش في كل لحظة من لحظاته، بفيض من عطاء الله ﷻ، الذي لا ينقطع ولا ينضب، لا نضب من معين والله معينه.

قلبك ينبض بالله، [و]عينك تطرف بالله، [و]لسانك ينطق بالله، [و]كل خلية من خلاياك، وكل ذرة من ذرات وجودك تستمر في نظامها الخاص، بفيض من الله.. بعطاء من الله يتدفق أنا بعد الآن.. هذا من ولاية الله التكوينية.

هذا الوجود [و]هذا الكون، أصل وجوده وديمومته، إنما بفيض الله ﷻ وبعطائه، فالكون كله ممسوك في قبضة الله [و]محكوم بقدره، يُقدر وجوده وحجمه ووقته، ويُقدر منه كل شيء..

تقول الآيات الكريمة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ

اللَّهُ مِنْ وَلِيِّ وَلَا نَصِيرٍ^(١)، [ف]لو ارتفعت يد القدرة الإلهية عن هذا الكون [لما كان له] ولي ولا نصير.

هذا الكون لا تدبره أمريكا ولا روسيا، ولا يدبره أكبر ملوك أساساً وأصلاً، إنما هو تدبير الله ﷻ، فحينما ترى وجوداً ونظاماً ودقةً في [هذا] النظام، فأنت تنظرُ اللهَ ﷻ، وتنظرُ يدَ القدرةِ الإلهية، والتنظيمَ الإلهي، والحكمةَ الإلهية، والعنايةَ الإلهية.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢)؟

اسألوا أنفسكم، وأنتم مسلمون، [فهل] تنطق أنفسكم بهذا العلم أو لا تنطق؟ وأنا لا أحصر السؤال في المسلم، لأن الآية الكريمة تطرح السؤال على الناس، قبل أن تتلوث فطرتهم، وتطرحة عليهم حتى بعد أن تتلوث، إذا حاولوا الغوص ببعض العناء إلى داخل ذواتهم.

[إنه] ما من نفسٍ تستنطق ذاتها الأصل، إلا وتجد في تلك الذات شهادة أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك^(٣).

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^(٤). فتشوا، [و]أعطوا لخيالكم أن يمتد، ولإدراكاتكم أن تتحرك، ولخيالكم أن يسرح، فإنه لن يعثر على ولي ونصير من دون الله سبحانه، [وقد أشار تعالى إلى ذلك

١. البقرة: ١٠٧.

٢. البقرة: ١٠٧.

٣. خطبة الجمعة (٤) ٢ صفر ١٤٢٢ هـ - ٢٧-٤-٢٠٠١ م..

٤. البقرة: ١٠٧.



بقوله: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصُمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^{(١) (٢)}.

أقسام الولاية التكوينية

القسم الأول: الولاية التكوينية الشاملة الأصل

"الحديث عن الولاية التكوينية الشاملة المستوعبة لهذا الكون، وكل شيء فيه، وكل ذرة من ذراته، وشأن من شؤونه، وأثر من آثاره. وهذه الولاية أصلاً وأساساً إنما هي لله وحده، لا يستقل بها أحد من دونه في أي شيء من هذا الكون، ولا يُشركه فيها أحد أبداً، وهي ولاية الخلق والرزق والتدبير والحفظ وإعطاء الوجود ابتداء واستمراراً، وإقامة النظام الكوني حدوثاً وبقاءً فبالإضافة إلى ما تقدم من آيات قرآنية بهذا الصدد، نرى بمنظومة أخرى من الآيات في المجال نفسه بصورة عابرة:

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾^(٣).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾^(٤).

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٥).

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ

١. الأحزاب: ١٧.

٢. خطبة الجمعة (٤) ٢ صفر ١٤٢٢ هـ - ٢٧-٤-٢٠٠١ م..

٣. المؤمنون: ١١٦.

٤. الأنعام: ١.

٥. الملك: ٢.

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾
﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٢).

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ (٣).
﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (٤).

الكون وما شمل، والظلمات والنور، والموت والحياة، والإرادة والتدبير، وحفظ الوجود وإيصال الأشياء إلى غاياتها الوجودية، وامداد النظام بما يبقيه، ويحافظ على صيغته، وصيغة كل جزيء وكل دقيقة فيه، وما ينزل على شيء من رزق، وما يقدر من أقوات وما به من معاش الأحياء، والضر والنفع كل ذلك بقدرته من قدرته سبحانه ويفيض من فيضه، وبحكمه وتقديره وحكمته.

فهي سلطة عامة شاملة مطلقة في الخلق والتكوين والصنع الإدارة والتدبير الفعلي لا يخرج منها شيء ولا يكون بدونها شيء، ولا يمتنع منها شيء، ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (٥).

وهذه الولاية التكوينية الشاملة المهيمنة الأصل يتفرد بها الله الواحد الأحد الفرد

١. يونس: ٣.

٢. الذاريات: ٥٨.

٣. الفتح: ١١.

٤. الزمر: ٤٢.

٥. الروم: ١٧-١٨.



الصمد، ولا يشركه فيها أحد من خلقه وما خلق أبداً أبداً، كيف وكل شيء من دونه مفتقر إليه، مستجد من فضله وعطائه؟!^(١).

القسم الثاني: الولاية التكوينية التابعة

"هناك ولايات تكوينية تابعة، تتحدّر من تلك الولاية الأصل، وتكون برفدها، وهي محكومة لها، مقدّرة بتقديرها، مفيّة بغاية من تحديدها، والآيات الكريمة الآتية، تقدّم لنا أمثلة من هذه المرتبة من الولاية التابعة، المحكومة، المحدودة، الناقصة:

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾^(٢).

﴿نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾^(٣).

﴿وَجَعَلْنَا لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾^(٤).

﴿قُلْ يَتُوبَاكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وَكَّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾^(٥).

﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٦).

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرَىٰ

١. خطبة الجمعة (٥) ١٠ صفر ١٤٢٢ هـ - ٤-٥-٢٠٠١ م.

٢. فصلت: ٣١.

٣. فصلت: ٣٢.

٤. النساء: ٧٥.

٥. السجدة: ١١.

٦. الأعراف: ٢٧.

الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴿١﴾.

تلاحظون من الآيات الكريمة التي طرحتها الآن كلها، إنها ترجع هذه الولايات القاصدة الناقصة المحدودة إلى الله ﷻ، كل واحدة من هذه الآيات تنطق بهذا الإرجاع، وبالمدد الإلهي، وبالعطاء الإلهي، لتؤكد شديداً على أن ولاية تكوينية في الكون، ولو على ذرة واحدة من ذرات هذا الكون، لا تكون إلا بإذن الله ومده ورफده" (٢).

الولاية التكوينية قاعدة الولاية التشريعية:

"تمثل الولاية التكوينية الشاملة المطلقة، قاعدة في المطروح القرآني، والنظر العقلي، وحكم الوجدان، والارتكاز العقلاني، والفهم القانوني، تبتني عليها الولاية التشريعية المطلقة، لنفس من له الولاية التكوينية الحق ذاتاً وأساساً، مختصة به، مقصورة عليه، كما تنطق به آيات الذكر الحكيم التي يربحاً استعراضها لحديث آخر" (٣).

و"القرآن الكريم يربط بين الولاية التشريعية والولاية التكوينية، وأن من له الملك له الحكم، لا تحكم ما لا تملك، الملك لغيرك والحكم لك، قضية غير عقلية، ولا عقلانية ولا قانونية، ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٤).

١. المائدة: ١١٠.

٢. خطبة الجمعة (٥) ١٠ صفر ١٤٢٢ هـ - ٤-٥-٢٠٠١ م.

٣. خطبة الجمعة (٦) ١٧ صفر ١٤٢٢ هـ - ١١-٥-٢٠٠١ م.

٤. الأنعام: ١٤.



﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١).

أكتفي بهاتين الآيتين.. تجدون ربطاً واضحاً في الآيتين الكريمتين، بينما يقرره العقل والبرهان والوجدان وتعيشه الفطرة في داخلنا، من أن المرجعية لهذا الكون على مستوى الخلق والتدبير والرزق والإرادة إنما هي الله ﷻ، لأي قدرة يرجع هذا الكون حدوثاً وهذا الكون بقاء، لأي قدرة ترجع قيام السماوات والأرض الآن، بأي قدرة يعيش العالم حياته ووجوده في هذه اللحظة، الوجدان والبرهان والفطرة، كل ذلك تقول أن المرجعية في هذا الأمر للقدرة التي ليس فوقها قدرة، للوجود الذي ليس قبله وجود، للوجود الذي لا يفتقر إلى غيره، فهذه ولاية تكوينية، إذا قال العقل أن هذا الكون كله يقوم بإرادة الله ومدد الله ورفد الله، فهل يقول بعد ذلك أن تعزل الله ﷻ عن الأمر والنهي لعباده، وأن تتلقى الشريعة من غيره، أو أن العقل يقول من يتلقى الكون منه وجوده، من يتلقى الإنسان منه حياته وأسباب حياته وبقائه، لا بد أن يتلقى منه توجيهاته وأوامره ونواهيه"^(٢).

سبب الولاية التكوينية

"ولاية تكوينية [عليك]، لأنك مملوكٌ بالكامل لله ﷻ.

وغيرك الذي يريد أن يتولى أمرك، أيضاً هو مملوكٌ بالكامل لله ﷻ، [وإن] السماوات والأرض وكل الملائكة والرسل وكل عظيم، هو مملوكٌ لله ﷻ. و[إن كان] كل شيء مملوك لله [تعالى]، فمن أين يأتيك مدد النصر من دونه [جلّ جلاله]؟!]

١. البقرة ٢١.

٢. خطبة الجمعة (٦) ١٧ صفر ١٤٢٢ هـ - ١١-٥-٢٠٠١ م.

إنَّ الفطرة تقرر وتبدأ بمسألة طاعة الله [تعالى] وعدم طاعة غيره، من هذه النقطة، [وإنَّ] النفوس تنطق وتشهد، شهادة قائمة في داخلها، بهذه الولاية، [و]إذا كانت تعيش هذا الشهادة، فـ[من] هنا تبدأ نقطة الانطلاق، على ضوء العقل والمنطق، وأن لا إله في مجال التشريع والحكم ومتابعة إرادة الغير، إلا لله. [و]لا ألوهية إلا لله ﷻ.

[و]ما دام لا ألوهية إلا لله ﷻ، فهذا يقود، عقلاً، إلى انحصار الولاية التشريعية، وولاية الحكم، وولاية سياسة العالم، ليس بالمعني الضيق للسياسة، [وإنما بمعنى:] سياسة الحياة، أي: صناعة الحياة وتوجيهها [ها] بالمساحة الإرادية، [و] صناعة المجتمعات هو نطاق السياسة الذي تحدث عنه الإسلام.

وقد آل أمر الحكومات الوضعية أيضاً، أن تضع يدها على ضمير الإنسان ووجدانه ومقدارته، لتدخل فيها صنعا يخسف ويشوه ويخرّب داخل الإنسان.. ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سَوْءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(١).

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾^(٢).
﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا﴾^(٣).

لا توجد ولاية مستقلة لشيء في هذا الكون لأحد غير الله ﷻ، وأيضاً لا توجد شراكة

١. الأحزاب: ١٧.

٢. الرعد: ١١.

٣. الإسراء: ١١١.



في ولاية الله من أحدٍ على أي شيء من هذا الكون، فالمنفي قضيتان:

١. قضية أن تكون هناك ولاية مستقلة من دون الله على شيء، بحيث يخرج هذا الشيء عن ملك الله وتديره وتصرفه.

٢. ثم لا توجد أي مشاركة في ولاية الله على أي شيء.

فله الولاية وحده، [و] لا توجد، ولن توجد قوة ممكن أن تفرض نفسها على الله، وكل شيء عدم من دونه^(١).

[إن] "الله المالك الحق، يقود العباد قوداً عقلياً، وعلى مستوى تفكيرهم الحر وإرادتهم، قوداً سلساً هادئاً رقيقاً ليناً، إلى أن يؤمنوا به ﷻ، وإلى أن يتقبلوا ولايته في التشريع والحكم.. يستنطق فطرتهم وعقولهم.. [ويقول لهم:] ألا تشهد عقولكم وفطرتكم بأن الولاية الحق لله وحده؟

يوقفهم على هذه القضية الأم الأساس، لينقادوا بعد ذلك، في ضوء عقلهم وتفكيرهم الحر، مسلمين وعارفين المصير الرابع، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا﴾^(٢) (٣).

١. خطبة الجمعة (٤) ٢ صفر ١٤٢٢ هـ - ٢٧-٤-٢٠٠١ م..

٢. الإسراء: ١١١.

٣. خطبة الجمعة (٤) ٢ صفر ١٤٢٢ هـ - ٢٧-٤-٢٠٠١ م..

الفصل التاسع: العدل

حقائق العدل

وفي الحديث عن العدل أشار إلى حقائق عديدة:

الأولى: "الله عَزَّوَجَلَّ أَوَّلُ عَادِلٍ"^(١).

الثانية: "الله عَزَّوَجَلَّ أَكْمَلُ عَادِلٍ"^(٢).

الثالثة: "الله تعالى "عدله لا يدخله خلل، ولا يتغير ولا يزول"^(٣).

الرابعة: "الله تعالى "لا يغلبه على عدله غالب، ولا يصرفه عنه صارف، وهو نافذ في كل شيء ولا رادّ له، ولا يمتنع عنه ممتنع"^(٤).

الخامسة: "وكلّ دين ووحى من عنده، وكتاب من كتبه، وفعل من فعله من إحياء وإماتة، ورزق ومنع، وبسط وقبض، ومرض وصحة، وما سوى ذلك، صدق وعدل، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾"^(٥) (٦).

١. خطبة الجمعة (٤٥٦) ١٤ رجب ١٤٣٢هـ - ١٧ يونيو ٢٠١١م.

٢. المصدر نفسه.

٣. خطبة الجمعة (٤٥٦) ١٤ رجب ١٤٣٢هـ - ١٧ يونيو ٢٠١١م.

٤. المصدر نفسه.

٥. الأنعام: ١١٥.

٦. خطبة الجمعة (٤٥٦) ١٤ رجب ١٤٣٢هـ - ١٧ يونيو ٢٠١١م.



أهمية العدل

"بعدل الله كان الوجود، وبه قيامه ودوامه، وبعدل الله كانت الحياة نشوءها واستمرارها، ولا يقوم شيء، ولا يدوم إلا بعدله.. يقول الإمام علي عليه السلام: «الْعَدْلُ أَسَاسُ بِهِ قَوَامُ الْعَالَمِ»^(١).

وعنه عليه السلام: «الْعَدْلُ أَقْوَى أَسَاسٍ»^(٢).

وعنه: «الْعَدْلُ حَيَاةٌ»^(٣).

وفي ربط واضح بين إقامة العدل، وانتعاش الإسلام وتقدمه في حياة الناس، وتهيؤ الأجواء لظهور عظمته، والاعتناء به، واحتضانه تقول الكلمة عنه عليه السلام: «الْعَدْلُ حَيَاةُ الْأَحْكَامِ»^(٤).

وانظر إلى عظمة كلمة في المورد، عن إمام معصوم آخر من أئمة آل محمد صلى الله عليه وآله، وهو الإمام الكاظم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾^(٥) قال: «لَيْسَ يُحْيِيهَا بِالْقَطْرِ»^(٦)، وَلَكِنْ يَبْعَثُ اللَّهُ رِجَالًا، فَيُحْيُونَ الْعَدْلَ، فَتُحْيَا الْأَرْضُ لِإِحْيَاءِ الْعَدْلِ، وَلِإِقَامَةِ

١. بحار الأنوار للمجلسي: ٧٥ / ٨٣ ح ٨٧.

٢. غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٩.

٣. غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٦.

٤. عيون الحكم والمواعظ لليثي: ١٨ ح ١٦.

٥. الحديد: ١٧.

٦. القطر بالفتح: المطر. أي: ليس يحييها بالمطر فقط.



الْحَدِّ لِلَّهِ أَنْفَعُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْقَطْرِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً»^(١).

لئن كانت الأرض تحيي بالمطر، ويكثر به منها العطاء إلا أن الظلم يعصف بكل خيرها، وينحرف بوظيفته، ليتحول سوءاً وشرّاً وأذى، وتردياً، واستكباراً واستعباداً، وتمزقاً وفِتْناً، وبطراً وتيهاً، وضلالاً وفساداً وشقاء في حياة الناس.

أما العدل فيكثر به:

- الخير خير الأرض.
- وخير الناس، وتستقيم به النفوس.
- وتطيب القلوب.
- وتطهر الأرواح.
- وتنشط العقول.
- وتشتد العزائم.
- وتنطلق قوى الإعمار.
- ويعم الأمن.
- وتغزر البركات.
- وتهنأ الحياة.

وتقول الكلمة عن عليٍّ عليه السلام: «عَدْلُ السُّلْطَانِ خَيْرٌ مِنْ خِصْبِ الزَّمَانِ»^(٢).

إذا لم يكن عدل واستطالت الثروة وكانت بيد فئة متنفذة ضيقة عملت بالفساد في

١. الكافي للكليني: ٧ / ١٧٤ ح ٢.

٢. بحار الأنوار للمجلسي: ٧٥ / ١٠ ح ٦٧.

الأرض، وخلق الفتن والعداوات، وصارت تستطيل بها على الناس، وتصادر أمنهم، وتسرق منهم كل فرص النمو، وتغتال إنسانيتهم وأخلاقيتهم، وتحجبهم عن رؤية الحق، ومعرفته ربهم، ونفسهم، وتعمي قلوبهم، وتذلهم في داخلهم كل ذلك من أجل أن لا تقوم لهم قائمة، ولا يستطيعوا أن يحدوا من جشع الفئة المتنفذة، وحتى يبقى الطريق مفتوحاً لمزيد من التعمق المالي والشهرة الكاذبة والترف الباذخ لنفوس فارغة لا تفتأ تطلب من هذا المزيد لتملاً شيئاً من فراغ لا يملأه المال.

وملهاة المال عند هذه الفئة تشغلها عن إنسانيتها، وتفرغها من قيمها وأخلاقيتها، وتحولها إلى وجود مادي تافه في كل تفكيره ومشاعره وحساباته وتطلعاته وفيما يفعل ولا يفعل، وما يؤمن ولا يؤمن، وما يريد ولا يريد.

وفي ظلّ واقع الظلم والاستبداد تضعف الأكثرية، ويقل إنتاجها ويسودها كثير من الأمراض، وتشعر بملالة الحياة، وتفقد الأمل، وتشعر بعداوة الآخر، وترتفع عندها درجة التوتر، ولا تجد بداً من الصدام.

وستبقى الأرض في موات وإن كثرت خصوبتها، وفي فقر وإن عظم غناها ما دام يحكمها الظلم الذي يجاري طمع أهل السلطة والنفوذ، فإن طمعاً مفتوحاً من شخص واحد في الأرض كل الأرض لا تقنعه الدنيا وإن اجتمعت كلها بيده.

ولن تحي الأرض، وتغنى الحياة، وينبسط الخير، ويجد كل الناس الكفاية وما يحتاجون، ويحصل على قناعتهم إلا بظهور الحق، وبسط العدل، وسيادة الدين، ودولة المتقين.. عن الإمام العسكري عليه السلام لعمة حكيمه بنت محمد بن علي بن موسى الرضا عليه السلام: «بَيْتِي اللَّيْلَةُ عِنْدَنَا؛ فَإِنَّهُ سَيُولَدُ الْمَوْلُودُ الْكَرِيمُ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ الَّذِي يُحْيِي اللَّهُ سُبْحَانَهُ



بِهِ الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا»^(١).

فبإقامته العدل، وأخذه بالحق، وإشادته للدين، واتباعه للهدى ستحيي الأرض، والعقول، والأرواح، والنفوس، وعندئذ يطغى الخير، وتعظم البركات، وترتفع الشكوى، وتختفي الحاجة^(٢).

موارد العدل المعدول عنه

المورد الأول: "لا عدل في العدل بين المتفاوتين، ولا إنصاف في التفاوت بين المتساويين.. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾"^(٣)، فليس من العدل أن تساوي بين عظيم وحقير، وكفو وغير كفو، وظالم ومظلوم، وقوي وضعيف، ولا أن تقدم عدلاً على عدله، ولا مساوياً على مساويه"^(٤).

المورد الثاني: "ولا عدل بغير اتباع الحق وتحكيمه، وكل الحق في دين الله، ولا هدى إلا في هداه، [قال تعالى]: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾"^(٥).
[وقال]: ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى﴾"^(٦). وكل ما قيل عنه هدى على خلاف هدى

١. حلية الأبرار في أحوال محمد وآل الأطهار عليهم السلام لابن سليمان البحراني: ٦ / ١٧٥ ح ١.

٢. خطبة الجمعة (٤٥٦) ١٤ رجب ١٤٣٢هـ - ١٧ يونيو ٢٠١١م.

٣. الأنعام: ١.

٤. خطبة الجمعة (٤٥٦) ١٤ رجب ١٤٣٢هـ - ١٧ يونيو ٢٠١١م.

٥. الأعراف: ١٥٩.

٦. الأنعام: ٧١.



الله، فإنَّما هو ضلالٌ^(١).

العدل أمرٌ مطلوب

”وقد أراد الله لعباده أن:

- يقيموا العدل.

- يأخذوا بالقسط.

- ويقولوا الصدق.

- ولا يعدلوا عن الحق.

[قال تعالى]: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢).

[وقال تعالى]: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾^(٣)^(٤).

١. خطبة الجمعة (٤٥٦) ١٤ رجب ١٤٣٢هـ - ١٧ يونيو ٢٠١١م.

٢. النحل: ٩٠.

٣. النساء: ٥٨.

٤. خطبة الجمعة (٤٥٦) ١٤ رجب ١٤٣٢هـ - ١٧ يونيو ٢٠١١م.

الباب الثاني: معرفة النبوة

الفصل الأول: معنى النبي

الفصل الثاني: حاجة البشرية إلى النبوة

الفصل الثالث: أهداف النبوة

الفصل الرابع: مثبت النبوة

الفصل الخامس: وجوه إعجازية القرآن

الفصل السادس: شروط النبوة وإن توفر المعجز

الفصل السابع: تساؤلات حول الإعجاز والمعجز

الفصل الثامن: العصمة

الفصل الأول: معنى النبي

معنى النبي

"النبي: لفظ مأخوذ من نبأ، أو من نبا، وعلى الأول: سُمِّيَ أنبياء الله كذلك، لتلقيهم النبأ من الله سبحانه، وعلى الثاني: لارتفاع قدرهم الذي أهلهم لذلك. وما من رسولٍ من رسل الله ﷺ، إلا وقد تلقى نبأ ما أرسل به منه سبحانه" ^(١).

عدد الأنبياء

"وأشهر الروايات في عدد الأنبياء والمرسلين، هي رواية أبي ذر، عن النبي ﷺ - كما يذكر ذلك صاحب الميزان - وهي: «إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ مِئَةٌ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرِينَ أَلْفَ نَبِيٍّ، وَالْمُرْسَلُونَ مِنْهُمْ ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثَةٌ عَشْرَ نَبِيًّا» ^(٢). أما أولو العزم وهم سادات الأنبياء فهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ وعلى جميع أنبياء الله ورسله الطاهرين» ^(٣) ^(٤).

١. خطبة الجمعة (٤٣٥) محرم الحرام ١٤٣١هـ - ٣١ ديسمبر ٢٠١٠م.

٢. تفسير الميزان للطباطبائي: ٢ / ١٤١. والعدد المذكور رواه المجلسي تدوّن في رواية بسند إلى عبد

العظيم الحسيني، عن أبي جعفر الثاني عليه السلام: بحار الأنوار للمجلسي: ١٣ / ٤٠٥ ح ٢.

٣. الكثير من الروايات ذكرت هذه الأسماء، منها ما رواه الكليني تدوّن في رواية مُسندة إلى عبد الرحمن

بن كثير، عن أبي جعفر عليه السلام، الكافي للكليني: ١ / ٢٢٤ ح ٢.

٤. خطبة الجمعة (٤٣٥) محرم الحرام ١٤٣١هـ - ٣١ ديسمبر ٢٠١٠م.

الفصل الثاني: حاجة البشرية إلى النبوة

”لعلَّ أول سؤال يناسب طرحه في مجال الحديث عن النبوة والرسالة، هو حول حاجة البشرية إلى ذلك.

وحتى تستغني الأرض عن هدايات السماء لإنسانها، في سيرته الإرادية على مستوى الفرد والمجتمع، ولا يتنزل وحي، بغض النظر عن ذلك، لا بدَّ من أمور:

١. أن يعرف الإنسان نفسه، وغيره من النَّاس، بكامل أبعاد تكوينه، ودقائق وجوده وحياته، لأنَّ من لم يعرف أيَّ موضوع، لا يعرف حكمه، وهذه المعرفة لا يدعيها أحد من الناس، وكبار العبقريات البشرية، تُمضي حياتها كاملة للتعرف على زاوية من زوايا الذات البشرية، أو زوايا الكون العريض، فلا تنتج يقيناً شاملاً نهائياً ثابتاً مشتركاً، لا تختلف عليه في تلك الزاوية.

٢. أن يعرف كلَّ بيئته من إنسان وغيره، وكلَّ شيء في الكون يؤثر على أيُّ بعد من أبعاد ذاته، وسيرته، لأنه غير مفصول في كلِّ ذلك عن محيطه، ومؤثرات الأرض والسماء الكثيرة المعقدة.

وأيْن البشرية كُلُّها، فضلاً عن أبعادها من هذه المعرفة الممتنعة؟!

٣. أن يعرف علاقته بالله، وشأن الله، وما لله عليه، وكيف يؤدِّيه، وكيف ينال رضا ربِّه، والاختلاف بين النَّاس في هذا دائم، وبعض هذه الأمور غيب يستحيل على الإنسان التوفر عليه، والإلمام به.



٤. أن يعرف غاية وجوده، والهدف الرئيس من حياته الذي عليه أن يكرس حياته في سبيل الوصول إليه، وكان الناس ولا زالوا يعيشون الانقسام الواسع، الحاد، في غاية الوجود والحياة للإنسان.

٥. أن يعرف المصير بعد الموت بكل تفاصيله، والآخرة المرتقبة بكل دقائقها، لأنه لا بد من موت، وأكفر كافر لا يستطيع أن ينفي احتمال الآخرة نفيًا كليًا، لا حسًا ولا عقلاً، وعلى الإنسان إما أن يملك يقين: أن الآخرة أمرٌ خيالي، وهو يقين متعذر، أو أن يضع لها حساباً في منهج حياته، وكيفية تصريف عمره.

٦. أن يعرف تأثير أحداث الماضي، وإن بعد عن حاضره، وما سيأتي به المستقبل، وإن طالت بينه وبينه المسافة مما سيواجهه، ومن أهل الأرض من يحيط بكل ما حمله الماضي، ويغيب المستقبل الغامض المكنون؟!

٧. أن يعرف كل مصالح الأفعال ومفاسدها، ووزن كل مصلحة ومفسدة، ويملك مقارنة دقيقة بين كل مصلحة ومفسدة، وبين المفاسد فيما بينها، وبين المصالح كذلك ليختار المصلحة ويتجنب المفسدة، ويدرك المفسدة الأكبر بالمفسدة الأصغر عند الضرورة، ويتوفر على المصلحة الأعظم بالتضحية بالمصلحة الأقل عند التضاحم، وما أكثر اختلاف الناس حتى نخبهم في كل ذلك!!

٨. ويحتاج الإنسان ليستقل بوضع منهج الحياة وما تحتاجه من تشريعات وأحكام فردية، وأسرية، واجتماعية، عامة، وأمية أن يتجرد من حب الذات الضاغطة لرعاية مصالح الشخص نفسه، والقبيلة والوطن، والقوم والأمة مما ينتمي إليه على حساب الآخر. ولا إنسان بمعصوم في نفسه هذه العصمة بكاملها.

كل هذه الأمور مجتمعة هي التي يقوم عليها استغناء الإنسان عن منهج السماء



وتشريعات الله، وتنزل الوحي لهدايته وقيادة حياته، ووضعه على طريق غايته، وواضح جداً أن ليس كل الطرق وإن تباينت وتعارضت وتهافتت مؤدية إلى الغاية الحميدة الواحدة، والسعادة المنشودة^(١).

ولو تمّ إيمان الإنسان بحاجته إلى الهدايات التشريعية من الله، والمنهج العليم من عنده، ولكن علم مع ذلك أن الله سبحانه مهمل له، متخل عنه، لا رحمة له به، أو لا علم له بأحواله، وما يصلحه، وما يفسده، وينفعه ويضره، وما يتناسب مع تكميله، ويتنافى معه، أو لا يريد كماله، أو لا قدرة له ولا طريق لإيصال منهجه، وتبليغ أحكامه، أو إيجاد النفوس القادرة على تلقي وحيه، وحمل رسالته، وأداء أمانته؛ فإن للإنسان حينئذ أن لا يتطلع نحو السماء لعلاج مشكلته، وأن يدخل في كل المحاولات الفاشلة طلباً في الحل اعتماداً على نفسه، وأن يستسلم لواقع القصور والجهل الذي لا يجد مفرّاً منه.

ولكن الله تبارك وتعالى فوق كل الاحتمالات المطروحة، وهو أعزّ وأجلّ من كل ذلك، وهو العليم الخبير القادر الحكيم الرحمن الرحيم.

فتحتّم على ذلك أنه لا يتناسب مع جلال الله وجماله وكمالته ورحمته ولطفه وحكمته وقدرته وعلمه، إلا أن يوحى إلى المصطفين من عباده المنهج المنقذ للإنسان، والدين الحق، والأحكام اليقينية الصالحة التي تحقق للإنسان المسؤول عن الاستجابة لها ما يطيقه وجوده من السعادة في الدنيا وفي الآخرة، ويريمه من الكثير الكثير من متاعب الحياة، ويحفظ له قيمة حياته، ويضمن له غايتها.

ولأن النظام الناجح، والمنهج القادر، لا يكفي وحده لحل المشكلة البشرية في الأرض،

١. فصار أن لا بدّ من تعميق الطريق الموصل إلى الغاية. «منه حفظه الله»

في غياب القيم المستوعب للمنهج، الأمين عليه، المخلص له، الكفوء للقيام بمسؤولياته، غير المتخلف عنه أسند الله هذا الأمر للقادة من رسله المصطفين، وأئمة دينه المنتجبين حيث لا يقوم مقامهم أحد من الناس، بلحاظ حجم المسؤولية ومتطلباتها، وما تفرضه من تأهل. أمّا مع تعذر قيادتهم الفعلية لظلم أهل الأرض، فتكون القيادة من مسؤولية وصلاحيّة الأقرب إليهم وإلى الرسالة التي كلفوا بها مستوى في كلّ الأبعاد^(١).

١. خطبة الجمعة (٤٣٥) محرم الحرام ١٤٣١هـ - ٣١ ديسمبر ٢٠١٠م.

الفصل الثالث: أهداف النبوة

عدد من الأمور نتطرق إليها في إطار الحديث عن أهداف النبوة والرسالة:

(الأمر الأول): الأهداف الأساسية

الهدف الأول: إتمام الحجة لله على عباده

”لله سبحانه حجة العقل العلمي والعملية، وهو نور الفطرة الهادي للعباد إليه، والدالُّ بصورة إجمالية على طريقه، والفتاح لباب القلوب على دينه، والمشير إلى الغاية السامية الكريمة من خلق الإنسان ووجوده وحياته، والكمال الذي يجب أن ينفق من أجله وقته، وطاقته وكل مواهبه.

لكن حاجة الإنسان مع كل ذلك إلى الهدايات التفصيلية، والمنهج الحياتي الشامل، والتربية عليه وتطبيقه، والتذكير بالفطرة، واستثارة مكنونها، والبلورة الأشد لها، والبناء الفوقي عليها، وحمايتها من أوضاع التعكير، والتضليل، والطمس، والتهميش، وعجز الإمكانات البشرية عن القيام بكل ذلك كما سبق في الحديث عن ضرورة النبوة جعل إتمام الحجة الإلهية على الناس هدفاً من أهداف النبوة والرسالة التي لا بد منها.

تقول الكلمة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْذُوهُمْ مِثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيَذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِغِ»^(١)، وتقول

١. نهج البلاغة للرضي: ٤٣ ح ١.

الكلمة الأخرى عنه ﷺ: «بَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ لئَلَّا تَجِبَ الْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ^(١) إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ»^(٢).

فإتمام الحجة لله على عباده، هدفٌ جليٌّ من أهداف الرسالة، وإرسال الرسل، ووصول خبر دعوتهم إلى أي مسمع يُقطع عذرُ كلِّ معتذر، ويسدُّ باب حجةٍ يحتج بها عبدٌ أسرف على نفسه، وأمةٌ ضيعت طريق هداها^(٣).

الهدف الثاني: التوحيد العام الخالص

والمقصود به: أن توحَّدَ الإنسانية، فردُّها ومجتمعها ربَّها الحقُّ، الذي لا ربَّ لها غيره، في فكرها ومشاعرها وكلِّ مساحات حياتها، وتخصه بالعبادة والطاعة، ولا تشرك به شيئاً، وترجع إليه في كلِّ هداها وتشريعها، ومنهج حياتها، وما تأخذ به من هدف، وتسعى إليه من غاية.

ولأنه لا طريق للإنسان إلى شيء من الرحمة والنعمة والكرامة والمكانة اللائقة، والكمال والسعادة -وكلُّ ذلك هدف الخلق عند الله للإنسان- إلا بتوجهه إلى ربِّه وإنشداؤه إليه، وتعلقه به، والعكوف على عبادته، والانفصال عن كلِّ الأرباب الزائفة من دونه، والاستقامة على طريقه، والوفاء بعهدته وميثاقه تحتم أن يكون التوحيد هدفاً أساساً للنسبة والرسالة، وعمل الرسالات منصبا عليه، وقاطعاً للطريق على معارضيهِ من الدَّاعين للعبادة

١. وهو لسان الأنبياء. «منه حفظه الله»

٢. نهج البلاغة للرضي: ٢٠٠ ح ١٤٤.

٣. خطبة الجمعة (٤٣٦) ٢ صفر ١٤٣٢هـ - ٧ يناير ٢٠١١م.



العبادة والطاعة لغير الله من غير إذنه، والأخذ منه من غير أمره.

وأمر من هذا الهدف واضحٌ جليٌّ، وشواهدُه حاضرةٌ في ذهن كلِّ فكرٍ مسلم، ويأتي ذكر بعض النصوص تبرُّكا وتشرفاً.

[قال تعالى]: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾^(١).

[وقال]: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٢).

[وعن] رسول الله ﷺ من كتابه إلى أهالي نجران [أنه قال]: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ^(٣)، وَأَدْعُوكُمْ إِلَى وَلَايَةِ اللَّهِ مِنْ وَلَايَةِ الْعِبَادِ»^(٤).

وعن الإمام علي عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، لِيُخْرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ عِبَادِهِ إِلَى عِبَادَتِهِ^(٥)، وَمِنْ عُهُودِ عِبَادِهِ إِلَى عُهُودِهِ^(٦)، وَمِنْ طَاعَةِ عِبَادِهِ إِلَى طَاعَتِهِ، وَمِنْ وَلَايَةِ عِبَادِهِ إِلَى وَلَايَتِهِ»^(٧)، وإذا تم ذلك صحت كلُّ أوضاع الحياة والإنسان،

١. النحل: ٣٧.

٢. الأنبياء: ٢٥.

٣. جئتمكم أنقلكم من عبادة العباد إلى عبادة الله. «منه حفظه الله»

٤. مكاتيب الرسول ﷺ لميانجي: ٢ / ٤٨٩.

٥. أن حتى لو أتى الخير وكان ذلك قربة لك ما عبدتُ الله. «منه حفظه الله»

٦. تحترم عهود العباد لاحترامك عهد الله ﷻ. «منه حفظه الله»

٧. الكافي للكليني: ٨ / ٣٨٦ ح ٥٨٦.



وربح منقلبه^(١).

(الأمر الثاني): الأهداف المنبثقة من التوحيد

"تقدم أن الهدف الأساس لكل الرسائل الإلهية، هو: التوحيد الذي لا سبيل لسعادة الإنسان دونه، وأن هناك عدداً من الأهداف المنبثقة منه، والمتحركة في إطاره، والمؤدية إليه"^(٢). "أهداف تابعة إيصالاً إليه، وتطبيقاً له، ونتائج من نتائجه. ومما يدخل في فتح القلوب والأرواح والنفوس بدرجة أكبر على قضية التوحيد، وتفعيلها في حياة الإنسان وحياته ما يأتي:

١. تعليم الكتاب والحكمة:

[قال تعالى]: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٣).

في ضوء علم الكتاب وأنواره، وحكمته، ودروس الوحي الخبيرة بكيان الإنسان، والدور التربوي الماهر المثابر المخلص لحملة الرسائل الإلهية، وموقع القدوة المشع الذي يتمتعون به؛ في ضوء كل ذلك تتنبه القوى المدركة، والأشواق الكريمة، والفترة الطاهرة، وحب الكمال، وصوت التوحيد في داخل النفس البشرية، مما يشد الناس فكرهم وشعورهم وحركتهم إلى خط التوحيد، والتعلق به، والوفاء له، واستقذار غيره، وتطبيق ما سواه.

١. خطبة الجمعة (٤٣٦) ٢ صفر ١٤٣٢هـ - ٧ يناير ٢٠١١م.

٢. خطبة الجمعة (٤٣٧) ٩ صفر ١٤٣٢هـ - ١٤ يناير ٢٠١١م.

٣. الجمعة: ٢.



٢. وضع الإصر والأغلال:

[قال تعالى]: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(١).

تضع الجاهلية، وانفصال الأرض عن السماء على فكر الإنسان، وشعوره، وبصيرته، وروحه وقلبه وإرادته، وحركته الصاعدة أثقالاً، وقيوداً وأغلالاً، وتثير في خط رؤيته شبهات، وتلوث نفسه بالأوضار، وتحجب نظره إلى الحق، وتقعد بإرادته عن متابعته، وتصدُّ عن ذكر الله، وتشغل حياته بالتفاهات والتضليلات، وتتلاعب بمشاعره، وتخدعه وتغرر به، وتنسيه قيمته وكرامته، وتشرع له ما يبتعد به عن استقامته وكمالهِ، وما فيه مصلحته وهداه وسعادته، فتتفه حياته، وينحدر مستواه، وتضيع قيمة وجوده.

ويأتي دور الأنبياء والرسل الكرام (صلوات الله وسلامه عليهم)، ورسالتهم القادرة لكسر حالة الجمود، ومسببات الإقعاد، وحالة المصادرة لحركة التحرر من أسر الأرض والهوى والشيطان من أغلال وقيود، وإزاحة الشبهات، وتخليص النفس من الأوضاع والأثقال المبطنة للنمو الطيب، المعيقة للحركة الكريمة، والضلالات والسخافات والألاعيب بالعقول والقلوب والأرواح مما يحجب عن الله، ويقطع طريق عباده إليه.

وهذا الهدف كسابقه، وكلل الأهداف المنضوية تحت هذا القسم، تمثل صعوداً في مستوى الإنسان، وقيمة جديدة له، وحلاً لمشكلاته، وتكميلاً له، وهي تعلقه في الوقت نفسه لدرجة أكبر من توحيده لربه، والإخلاص في عبوديته له، ومعرفته بحقه، والشوق

إليه، والاستغناء به، لأنَّ هناك تلازماً لا ينفكُّ بين تصحيح أوضاع الإنسان فيما يتصل بتفكيره وشعوره ورؤيته وإرادته وسلوكه وأوضاع حياته والارتفاع في مستوى جديته، وسلامة نفسيته، وقلة العوائق والشبهات في طريقه، والملهيات المضلة له وبين قربه من التوحيد الحق الصادق الخالص الذي هو سرُّ كماله وسعادته^(١).

٣. تزكية الأخلاق:

وتزكية الأخلاق التي قدَّمها القرآن الكريم في الذكر في معرض الحديث عن الرسول ﷺ على تعليم الكتاب والحكمة مرةً، وجاء بذكرها بعده أخرى تعني جهداً ضخماً، وهدفاً عالياً يجعل النفس البشرية مهينة بعد قصورها بسبب التردّي الخلفي لاحتضان فكرة التوحيد، والاندماج بها، والسير في خطّها^(٢)، ويعطيها القدرة العملية على تحمّل تكاليفها، وهي تكاليف التقدم في معراج الكمال الذي تدعو إليه، وتأخذ بالبشرية كلّها في اتجاهه.

٤. رفع الاختلاف:

[قال تعالى]: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^(٣).

الاختلافات الجذرية، والتمزقات الخطيرة، والتباينات الشاسعة، والانقسام الخطير

١. خطبة الجمعة (٤٣٦) ٢ صفر ١٤٣٢هـ - ٧ يناير ٢٠١١م.

٢. السير في خط فكرة التوحيد ليس سهلاً يحتاج إلى رفع مستوى، ورفع مستوى الأخلاق فيه إعداد لأن أسير وتسير في خط التوحيد. «منه حفظه الله»

٣. البقرة: ٢١٣.



داخل جسم البشرية قدرٌ لا بدَّ منه حين يكون التخلُّف عن هدى الله، والانفصال عن نور السماء.

وهذا الواقع مُلهٍ وشاغلٌ وصارفٌ للإنسانية عن وظيفتها المشتركة في الخلافة في الأرض وحركة الإعمار، ومعرفة الله وعبادته، والسير إليه، وكم يصدُّ الاشتغال بالخلافات إجمالاً عن ذكر الله، وكم يميل بخطى الإنسان إليه عن خطه!!

وبهذا كان إنهاء الخلافات الرئيسة الضخمة خاصة ما مسَّ العقيدة، وما يترشَّح عنها، وما اتَّصل بسلامة منهج التفكير عند الإنسان وعدمها، وسبب سفك الدماء، وهدر ثروات الأرض، وسبب إفسادها هدفاً مطلوباً لرسالة الرسل، ودور الأنبياء والمرسلين في الناس^(١).

وكُلِّما تصحَّح جوُّ هذه الخلافات، وخفَّت حدِّتها، وتخلَّص عقل الإنسان ونفسه من تأثيراتها وسلبياتها كُلِّما وجدت قضية التوحيد نفوساً منفتحة، وعقولاً مستقبلية، وقلوباً متلقية، وكانت الأرواح أكثر استعداداً للعروج، وأقدر على استذواق الجمال، وأسرع للكمال.

وإنهاء الخلاف الذي يساعد على تصحيح أوضاع الإنسان، واستقامته، ويهيئ الأجواء المناسبة لنضجه وزكاته وكماله إنما هو بالرجوع إلى الحق، والأخذ به، والتمحور حوله.

٥. قيام الناس بالقسط:

[قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

١. فكان دأبهم صلوات الله وسلامهم عليهم أجمعين ردُّ الناس في هذه الأمور الكبرى وغيرها إلى الصحيح . «منه حفظه الله»



بِالْقِسْطِ^(١).

قيام المرسلين بالقسط لا جدل فيه، ولا شكَّ يعتريه، ولكنَّ هدف الرسالات يتجاوز ذلك بأن يقوم النَّاسُ أنفسهم بالقسط^(٢)، ويكون الأخذ بالعدل سيرة المجتمع البشري العام. وكلُّ من العدل والظلم يمكن أن يغطِّي كلَّ مساحات الفكر والشعور والعلاقة والعمل، والظلم مُفرِّق، معطل، مضعف، منهك، شاغل، مثير للخلافات والحروب، متلف للطاقات والثروات، قاضٍ على روعة الحياة وحلاوتها، مُنسٍ لله، مثيرٌ للشكِّ في عدله^(٣)، خارجٌ على إرادته، مخالفٌ لشرعه، يخلق طاغوتية واستضعافاً في الأرض، وآلهة مزيفة، وعبيداً بلهياً حقراء.

فكان على الرُّسل أن يسعوا جاهدين للقضاء على الظلم، و[القضاء على] الإخلال بالموازين المعنويَّة والماديَّة معاً، وحالات الجور والميل عن الحقِّ، وأن يقيموا القسط، ويثبتوا العدل، ويحملوا النَّاسَ على الأخذ بموازين الحقِّ.

ولا يكون هذا إلا بالرجوع إلى الله، والسير في طريق توحيده، وتحكيم أحكام شرعه، وصدقُ العبودية والطاعة له^(٤).

على أن حياة القسط، وقيام العدل في النَّاسِ وعلى أيديهم يأخذ بيدهم إلى الله،

١. الحديد: ٢٥.

٢. وليس ليقوم الأنبياء بالقسط. «منه حفظه الله»

٣. سياسة الظلم في الأرض تُنسي كثيراً من الناس عدل الله، ظلم الحاكم، ظلم الإنسان للإنسان كثيراً ما يأخذ بأفكار الناس إلى أن الله ﷻ ظالم. «منه حفظه الله»

٤. مستحيل أن تقوم حياة العدل في الناس من غير ارتباط الفكر البشري والضمير البشري والوجدان البشري بالله والعبودية له. «منه حفظه الله»

وينفتح بهم على توحيده، ويؤهلهم بدرجة عالية لاستقبال أنوار قدسه، وطلب القرب إليه^(١).

(الأمر الثالث): الهدف الأعلى

"ونتيجةً للتوحيد، وتحقق الأهداف السابقة للرسالات الإلهية في حياة الناس، يتم الهدف الغاية: بأن يأمنوا بأمن الأبد، بهدایتهم سُبُلَ السَّلام المؤدية إلى الصراط المستقيم، في السعي إلى الله، وأن يحياوا الحياة الطيبة الدائمة، دنيا وآخرة، بكل أبعاد ذاتهم الإنسانية، ما كان ظاهراً منها وباطناً، وما يرجع إلى بدن أو روح، وأن يخرجوا من الظلمات إلى النور، ومن النقص إلى الكمال^(٢).

وبانتهاء السعي إلى رضوان الله، وبحياة إنسانية الإنسان بأعلى وأعمق أبعادها حياة كريمة طيبة دائمة، وخروج النفس من كل ظلماتها، ومن النقص إلى الكمال تتم السعادة، وتحقق الغاية من الخلق، ويكمل الفلاح والنجاح المنشود للمفطرة.

تقول الآيات القرآنية الكريمة في ذلك:

١. ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾^(٣). إنَّ كلَّ ما في المنهج الإلهي الذي ارتضاه الله ﷻ للإنسان والحياة سبل سلام لا يضلُّ عن شيء منها الآخذ بمنهج الله، المتبع لمواطن رضاه، المتجنب لموارد سخطه، وهي سُبُلُ تصبُّ جميعاً في صراط مستقيم إليه، وتأخذ بالإنسان

١. خطبة الجمعة (٤٣٧) ٩ صفر ١٤٣٢هـ - ١٤ يناير ٢٠١١م.

٢. ومعنى الإخراج من الظلمات إلى النور هو الإخراج من النقص إلى الكمال. «منه حفظه الله»

٣. المائة: ١٦.

في اتجاه ذلك الصراط، وفي ذلك كمال الناس وسعادتهم، وهو ما يريده ويرضاه لهم خالقهم، ومن أجله قد خلقهم، وسبل السلام المؤدّي سلوكها إلى صراط الربّ المستقيم منتهية في النتيجة إلى دار السلام والأمن العام الشامل الكامل الدائم الذي لا يمسه شيء من خوف أو فزع أو قلق أو ترقب سوء، أو انشلام أو عدم لأنه بضمان من الله، وفي عنايته، وحراسته، وتديره، وهو الذي يتولّى أهله، ويحفظهم من كلّ تهديد، ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ، لَهُمْ دَارَ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١) (٢).

٢. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٣).

كلّ دعوة الله، ودعوة رسله لما لا تقوم ولا تحيا الأبدان والعقول والنفوس والأرواح إلا به؛ وما يمكن أن يحيا شيء من ذلك في انتهاج منهج غير منهج الله، وما دعا إليه، وأمر به، أو هدى، أو أذن فيه.

وما يموت بعد من أبعاد إنسانية الإنسان، ولا يتعطّل، أو يُصاب بالشلل، والانحراف ما التزم خطّ ما دعا الله إليه عباده ورسوله، وارتضاه من منهج.

والحياة التي تُعطىها هذه الدّعوة والمنهج عند الاستجابة لهما والتقيد بهما حياة راقية كريمة هنيئة في مساحة الدّنيا المحدودة، والآخرة الممتدة معاً^(٤).

١. الأنعام: ١٢٦-١٢٧.

٢. خطبة الجمعة (٤٣٧) ٩ صفر ١٤٣٢هـ - ١٤ يناير ٢٠١١م.

٣. الأنفال: ٢٤.

٤. خطبة الجمعة (٤٣٧) ٩ صفر ١٤٣٢هـ - ١٤ يناير ٢٠١١م.



٣. ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾^(١)، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾^(٢).

هداية الكتاب والرسول، وحي السماء وتربية الناس في ضوئه، والأخذ بأخلاقيات الدين الحق، اتباع أحكام الله ﷻ وتشريعاته يخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ أي ظلمة تفسد على العقل تفكيره، وعلى القلب اهتدائه، وعلى الروح رؤيتها، وعلى النفس استعدادها للاستجابة للحق والإذعان له، وشوقه والتعلق به، ويخرجهم من ظلمة النقص وفقد الكمال، وتعطل حالة النمو في القابليات الكريمة في كيان الإنسان إلى نور فعلياتها التام الذي به كمال هذا المخلوق وسعاده.

والآيات الأربع الأخيرة تتحدث عن أقصى غاية لخلق الإنسان، والهدف الأخير لوجوده، والذي لا يتحقق إلا بدور الرسل والرسالات والاستجابة من الناس، وأخذهم بما دعا إليه رسل الله وجاهدوا في سبيله، والغاية القصوى من خلق الإنسان ومن إعطائه العقل والإرادة هي كماله وسعاده.

وفي قبال منهج الله، ودعوة رسله، ودورهم، ودينه وتشريعه والوصول إلى الغاية المطلوبة لوجود الإنسان التي يحققها هذا الطريق يوجد اتجاه معاكس يجمع كل ما فارق هذا الطريق من جاهليات وطاغوتية وطواغيت، ونتيجته إخراج الناس من النور إلى الظلمات كل أنواع الظلمات؛ من ظلمة للعقل والقلب والنفس والروح، وحتى الظلمات التي تسيطر على جنات حياة الإنسان المادية من أمن وغذاء وصحة، وتفسد الأرض

١. إبراهيم: ١.

٢. إبراهيم: ٥.



والبيئة، وتنشر الخراب.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُهُمُ
الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ﴾^{(١) (٢)}.

١. البقرة: ٢٥٧.

٢. خطبة الجمعة (٤٣٧) ٩ صفر ١٤٣٢هـ - ١٤ يناير ٢٠١١م.

الفصل الرابع: مثبت النبوة

المثبت الأول: المعجز

"لا تثبت النبوة، ولا ما هو أدنى منها، بمجرد الدّعى كما هو واضح، ومن اعتمد على الدّعى فقط، فقد تساهل بشأن الحقائق، وضيع الطريق، ولا تثبت النبوة إلا بالمعجز، أو ما يقوم مقامه، وباستكمال الشّروط المعتبرة، وانتفاء الموانع المعطّلة"^(١).

معنى المعجز

"المعجز: عمل خارق للعادة بوصفٍ خاص.

وأقول شرحاً لهذا التعريف: بأنّ الأعمال التي تُنجز على أيدي النّاس، إمّا أن تكون خاضعة للعادة أو خارقة لها، وما كان من أعمال النّاس خارقاً للعادة، يدخل فيه السحرُ وأعمال أصحاب الرّياضات النفسية والروحية، وتدخل فيه الكرامة، والمعجز. والسّحرُ والكهانة وأعمال المرتضّين، يمكن تعليمها وتعلّمها، وتكون مسبقةً بالتعلّم والتّمرين والممارسة، ويمكن أن تبطل.

وهذا على خلاف الكرامة والمعجز، فإنهما لا يخضعان للتعليم والتعلّم، ولا يأتيان عن هذا الطريق، ولا يمكن لقدرة المخلوقين أن تبطلهما، أو تأتي بما يعارضهما، ويردّ على

١. خطبة الجمعة (٤٣٨) ٧ ربيع الأول ١٤٣٢هـ - ١١ فبراير ٢٠١١م.



التحدّي بها^(١).

معنى المعجز المثبت

”ليس كل عمل خارق للعادة، ويستعصي على التعليم والتعلّم أن يأتي بمثله أو يُبطّله، وهو المعجز، كافياً لإثبات النبوة.

فالمعجز لا تثبت به النبوة إلا بأن يكون مقروناً بدعواها^(٢)؛ فمن أتى بمعجز من غير أن يدعي النبوة لا تثبت به النبوة؛ حتى أنه اصطُح على الأعمال الإعجازية للأئمة عليهم السلام وسائر الأولياء ممن لا يدعون النبوة عنواناً آخر وهو عنوان الكرامات لا المعاجز.

ولا يكون المعجز مثبتاً لدعوى النبوة وصدقها إذا جاء بصورة تخالف تأييدها، وذلك كما في تحدّي مسيلمة الكذاب لتصديق دعواه النبوة من أنه إذا مسح على رأس الأقرع شُفي حالاً من قرعه، إلا أنه من ناحية عملية كان إذا مسح على رأس الصحيح أصابه القرع، دون العكس^(٣).

معجزة القرآن الكريم

”لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أكثر من معجزة يستعرضها الباحثون في نبوته لكنّ المعجزة المعاشة ما دامت الأرض، والتي لا تتحوّل إلى تاريخ يحتاج التصديق به إلى تواتر، أو يتمّ الانقطاع عنه ببعْد الزمان هي القرآن الكريم الذي لم يزل ولا يزال ينادي في الإنس والجنّ بأن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

١. خطبة الجمعة (٤٣٨) ٧ ربيع الأول ١٤٣٢هـ - ١١ فبراير ٢٠١١م.

٢. يأتي شخص بمعجز ولا يدعي النبوة لا تثبت له النبوة. «منه حفظه الله»

٣. خطبة الجمعة (٤٣٨) ٧ ربيع الأول ١٤٣٢هـ - ١١ فبراير ٢٠١١م.



والقرآنُ بهذا التحديِّ الصَّارخِ الدائمِ يُمثِّلُ صمتَ العالمِ أمامه وعجزهم عن مجاراته، أو المحاولاتِ اليائسة للردِّ عليه دليلاً عاماً على إعجازه، وصِدْقِ نبوَّةِ الرسول ﷺ ورسالته التي ينادي بها، ويدعو إلى التسليم بها.

فالنَّاسُ إما مختصُّ مبدعٍ في الأدبِ وفنونِ التعبيرِ وإحكامه ودقته وروعته وسموه وفصاحته وبلاغته، ويمجد نفسه وكذلك أمثاله وعلى مرَّ القرونِ عاجزين عن الإتيانِ بمثلِ الكتابِ الكريمِ، بل بعشرِ سورٍ أو سورةٍ واحدةٍ من مثله فيضطر للإذعانِ عقلاً بإعجازه، والتسليمِ بالنبوَّةِ التي يُثَبِّتها لمن أتى به على أنه مُوحىٌ إليه من عند الله، ودليلاً له على نبوته.

وإمَّا غير مختصٍّ ولا معرفة له بفنونِ التعبيرِ وأساليبه ولا قدرة له على التمييزِ بينِ مستوياته، وهذا القسمُ من النَّاسِ يكشفُ له عن إعجازِ القرآنِ عجزُ كلِّ أصحابِ الفنِّ في أجياهم المختلفة عن الردِّ عليه، والإتيانِ بمثله مع توفُّرِ الدواعي لهذا الردِّ؛ حيث إن الحربَ على الإسلامِ لم تفتُرْ في يومٍ من الأيامِ ولا زال الذين يشنُّون هذه الحربَ يدفعون ثمناً باهظاً في سبيلها، ويتكلَّفون الكثير من المتاعب، بينما يُغنيهم عن كلِّ ذلك، ويُسقط الإسلامَ بصورةً كاملةً أن لو أتوا بمثلِ القرآن^(١)، أو بعشرِ سورٍ أو سورةٍ واحدةٍ من مثلِ سورة، فليس لعدم الردِّ إلا سببٌ واحد وهو العجز، وأنَّ القدرةَ البشرية لا تملك أن تُنتجَ

١. حرب الاتحاد السوفيتي وأمريكا والعالم الكافر كلّهُ وما يبذلونه في سبيل هذه الحرب على الإسلام يُغني عنها أن يأتوا بمثل القرآن، وهناك عرب مختصّون في الأدب مسيحيون، يهود، وأمريكا تستطيع أن توظّف، روسيا تستطيع أن توظّف، وكلّ هؤلاء لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن. «منه حفظه الله»

هذا القرآن، أو تكررّه، أو تُثنيّه" ^(١).

سلامة القرآن من بروز صورة الإنسان في سطورهِ:

"عُمر تنزّل القرآن الكريم ثلاث وعشرون سنة، شهدت كثيراً من التحوّلات، والظّروف المتقلّبة التي عاشها الرّسول ﷺ، منها: الفقر والغنى، والنصر والهزيمة، والخوف والأمن، والحرب والسّلم، وموقع الزّعامة والقيادة وغيره، وقلّة التجربة، وتراكمها، ومن شأن ذلك كلّهُ أن ينعكسَ على القرآن عقليّةً متفاوتة، ومشاعر نفسيّة مختلفة، ومستويات إنسانيّة متباينة، وأن تظهر في الكتاب صورة الإنسان المطبوع بطابع الظّروف المختلفة، والمختلف مستوى في بداياته ونهاياته، وأن يبدو قوياً مرّة، ضعيفاً أخرى، واثقاً حيناً مهزوماً ولو بعض حين، مقدماً تارة متراجعاً تارة ثانية، وأن يكون في نصره غيره في هزيمته، وفي غناه غيره في فقره، وفي كثرته غيره في قلّته، وأن تراه يُسند لنفسه النّصر، ويبرّئها من التقصير، ويفخر بما تحقّق على يده من إنجازات وانتصارات، إلّا أنّك لا تجد شخصيّة هذا الإنسان الذي مهما قاوم الظّروف، وتصنّع أمامها، لا بدّ أن تفرض نفسها عليه، ولو كان القرآن من وضع إنسان، لبرزت صورة هذا الإنسان في سطور القرآن، خاصّة مع هذا العمر الطويل لتنزّله" ^(٢).

شموخ المضمون القرآني:

"لا تجد عقيدة دينيّة أدقّ وأصفى وأرقى من العقيدة في التّصوّر القرآني، وفي القرآن استعراض لأصول الفكر البشري، ومصادر المعرفة عند الإنسان من عقل وحس وإلهام

١. خطبة الجمعة (٤٤٢) ٥ ربيع الثاني ١٤٣٢هـ - ١١ مارس ٢٠١١م.

٢. خطبة الجمعة (٤٤٦) ٣ جمادى الأول ١٤٣٢هـ - ٨ أبريل ٢٠١١م.



ووحى، وأسس المنهج العلميّ من اعتماد العلم، وعدم الرُّكون إلى الشكّ والظنّ في نفسه، وأسس المنهج العمليّ من التركيز على قيمة السعي، ونوعيته، وهدفه، وربط الجزاء به، وأسس التعامل الاجتماعيّ من العدل والإحسان ورفض الظلم والعدوان، والتفاضل على أساس العلم، والعمل الصالح، والقصد الكريم، وفي القرآن الأسسُ المتينة لكلّ الأنظمة الحياتية الصالحة التي يحتاجها الإنسان من عبادة، وتربية وتعليم، وسياسة واقتصاد، ونظام بيئي وغير ذلك من الأنظمة الأخرى.

ومع توالي القرون، وتقدّم الحركة العلميّة في حياة الإنسان، والقفزات العالية للفكر الإنسانيّ لم تصمّد علمياً أي مناقشة للفكر القرآني، ولم يتقادم هذا الفكر على مرّ القرون، وبقيت البشرية محتاجة في هداها واستقامتها والتخلّص من أزماتها إلى الرجوع لهذا الكتاب العظيم.

هذا الكتاب بهذه العظمة، والشمولية، والفكر القويم، والطرح المتقدم، والسبق الدائم من السّفه جدّاً وغير المنطقي أن يُنسب إلى عبقرية واحدة، أو مجموعة من العبقریات البشرية في بيئة ثقافية متقدّمة فضلاً عن البيئة البدائية التي عاشها رسول الله ﷺ.

وعندك من تاريخ البشريّة وحاضرها والإنتاج الفكري على مرّ القرون وهو إنتاج يعرضه الكثير من الخطأ والصواب ما يُثبت هذه الحقيقة.

القرآن الكريم الذي لم يشذّ في شيءٍ مما جاء به عن الفطرة أو العقل، ولم يقع في خطأٍ علميٍّ في ما تناوله على الإطلاق مع كثرة ما تناوله من موضوعات متنوعة، وحقائقٍ مختلفة، ولم يُغفل بُعداً من أبعاد ذات الإنسان، ولم يُهمل مساحة من مساحات الحياة، ولا مصلحة من مصالح الدنيا والآخرة، ولا شأن الفرد والمجتمع والدولة، ولا رعاية إنسانٍ أو حيوان، أو بيئة، ولا علاقة من علاقات الحياة، وحدّد المنطلق، وعيّن الغاية، ورسم المنهج،

وأصاب ولم يُخطئ في كل ذلك، وبقي سباقاً في طرحه لكل الزمان والمكان وما أصابه تقادم، وظلّ معطاءً في كل القرون، ولم ينفذ عطاؤه، وهو باقٍ كذلك.

القرآن بهذا الواقع الكبير، والغنى المفتوح، والسبق الثابت يستحيل أن يكون من وضع محمد بن عبد الله ﷺ أو أي قدرة بشرية أخرى^(١).

المثبت الثاني: سيرته ﷺ

”شخصية الرسول ﷺ وسيرته الثابتة على الصدق والتواضع والزهد وجديّة العبادة، وحمل كل أهله على ذلك، بلا أن يتأثر بظروف فقر أو غنى^(٢)، أو قوة أو ضعف، وانتصار وهزيمة، دليل على صدق النبوة، والصلة الصادقة بالله، والبعد عن الأغراض الدنيوية بصورة نهائية.

وللرسول ﷺ في سيرة أقرب المقربين إليه، من أهل بيته عليه السلام^(٣)، دليل صدق لا يردّ، فكان هذا البيت العظيم منصرفاً عن الدنيا إلى الآخرة^(٤)، مضحياً في سبيل الله طوال حياته، وفي الوقت الذي لم تكن تلوح فيه فرصة من فرص الحكم والسلطة^(٥). كان هذا البيت في كل تاريخه، يدفع أبهظ الأثمان في سبيل بقاء الدين وعزّه وثباته.

١. المصدر نفسه.

٢. كما أن القرآن ثابت في خطّه، الرسول ﷺ هو الآخر ما غيرته الظروف أبداً. «منه حفظه الله»

٣. بنته الصديقة، ابن عمّه علي بن أبي طالب عليه السلام، الأئمة المعصومين عليه السلام. «منه حفظه الله»

٤. صاحب الدنيا لا يبني بيتاً هكذا، لا يجعل أهله كلّهم مضحين في سبيل الله عز وجل وفي الوقت الذي لا طمع لهم في سلطه. «منه حفظه الله»

٥. هذا له دلالاته الخاصة. «منه حفظه الله»



فهل يمكن للرَّسُول ﷺ، وهو العاقل الحكيم في كلِّ أموره، أن يدفع بأقرب النَّاس إليه في هذا الاتجاه^(١)، وهو طالب دنيا لا آخرة، وممن يستبيح الكذب على الله سبحانه؟! ^(٢) «(٣)».

١. اتجاه التضحية، وتحمل الآلام، المتاعب، مع اليأس من المردود الديني؟! «منه حفظه الله»
 ٢. أترى الرَّسُول ﷺ شخصية تستبيح الكذب على الله ﷻ وهو على ما هو عليه من فهم وذكاء لا يُنكره أحد ويحاول أن يخسر هو وكلُّ من يحبُّ دنيا وآخرة؟! إذا كان الرَّسُول ﷺ في اتجاه أن يبني مجداً دنيوياً فإن عليه أن يتبدَّخ، وكان عليه أن يحارب بكلِّ صورة من أجل تركيز الحكم في من يجب.
 «منه حفظه الله»

٣. خطبة الجمعة (٤٤٦) ٣ جمادى الأول ١٤٣٢هـ - ٨ أبريل ٢٠١١م.

الفصل الخامس: وجوه إعجازية القرآن

إنَّ للقرآن وجوهاً إعجازيةً متعددةً منها الآتي:

الوجه الأول: تحدي كل البشر

"تقدّم أن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى الخالدة للإسلام ونبّه الكريم ﷺ، والإعجاز الأول للقرآن هو تحديّ العامّ الثابت للبشرية كلّها، ومنّ تستطيع أن تستعين به من دون الله هو أن يأتوا بقرآن مثله، أو حتى بعشر سور، بل وحتى سورة واحدة من مثله ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١)^(٢).

وقال تعالى: ﴿يَس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾: "الله تبارك وتعالى يُقسم هنا بالقرآن الحكيم، [والقرآن هو الكتاب] الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، قرآن أحكمت آياته، لم يأت بكلمة فضول، لا يدخله النقص في معنى أو لفظ، اطروحة تامة، كاملة، شاملة، مخططة تخطيطاً إلهياً لحياة الإنسان، حياة فردّه ومجتمعه، هي رسالة واطروحة مفتوحة على كلّ الأجيال، تغطي حاجة العالم في كلّ تطوراتها، تتقدم كلّ تطورها، ولا يتقدمها تطورها، تعجز العقول البشرية أن تنتج مثل هذا القرآن، وقد تحدّى القرآن نفسه البشرية كاملة، بأن تأت بسورة واحدة من سوره هناك، تحدّي للإنس والجن، على أن

١. البقرة: ٢٣.

٢. خطبة الجمعة (٤٤٣) ١٢ ربيع الثاني ١٤٣٢هـ - ١٨ مارس ٢٠١١م.

يأتوا بمثل هذا القرآن، هناك تحدّي لأن تأتي البشرية بعشر سور من مثله، بأن تأت بسورة من مثله، ذلك القرآن الحكيم الذي يجمع كل أصول الفكر الصحيح، ويلتفت لكل مكونات النفس البشرية، ويتوفّر على المنهج الكامل الذي يحقق غاية الإنسان، وغاية خلقه من ربه.. يقسم الله تعالى رب الكتاب بالكتاب الحكيم، وحكمة الكتاب من حكمة الله، ولا حكمة كحكمة الله، وعلم الكتاب من علم الله، ولا علم كعلم الله، ولطف الكتاب من لطف الله، ولا لطف كالطف الله.

وتشريع الكتاب من تشريع الله القائم على علمه وحكمه ولطفه وخبرته بالأمر ﷻ، وهي أمور الحكمة، [و]حكمة الله وعلمه [سبحانه]، لا يمكن لمحدود أن يصل إليها، لأنها غير محدودة، لا متناهية، لا يصل إليها علم أحد، وعلم كل من دونه ﷻ، إنما هو قليل من علمه، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً^(١).

الوجه الثاني: تحدّي الإخبارات الغيبية

وهي إخبارات غيبية جازمة حاسمة، وليست استقرابات أو أموراً ظنية، وتوقعات تسوق إليها بعض المقدمات العلمية، وتسمح بها المطالعة الموضوعية المتميزة بالخبرة، والمتّصفة بالدقة^(٢).

وما يميّز هذه الإخبارات أنها تُطرح للتحدي بصورة يرتبط بصدقها القرآن والنبي والإسلام^(٣)، وبحيث يقوم على تخلف هذا الصدق انهيار بناء الدعوة، وكل صدقية للرسول والإسلام، وتذهب كل الجهود التي كلّفها الجهاد الطويل والكفاح المرير في بناء

١. خطبة الجمعة (١٠) ١٥ ربيع الأول ١٤٢٢هـ - ٨-٦-٢٠٠١م..

٢. المعجزات فوق كل ذلك. «منه حفظه الله»

٣. بحيث لو سقطت سقط كل ذلك. «منه حفظه الله»



هذا الدين هدرًا لحظة تبين كذب واحدٍ من هذه الإخبارات^(١).

والنتيجة الخارجيّة أن مرور الزمن لم يكشف إلا عن صدق الغيبيات المستورة عن العقول مما أخبر به الكتاب الكريم، وتحققها على مرأى ومسمع من إنسان الأرض.

وهذه بعض الغيبيات التي أخبر بها الكتاب الكريم وشهد الواقع تحققها:

١. ما ذكرته الآية الكريمة: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

ولقد تحقق النصر المخبر به على نحو الجزم وفي المدة المعيّنة للروم المسيحيين كما تحقق نصر المؤمنين بالإسلام في هذه المدة نفسها وتمت فرحة المؤمنين كما أنبأت الآية بها عندما كانت من الغيب المستور.

٢. ما أخبر به الكتاب العزيز من مصير أبي لهب وامراته وموتهما على الشرك الذي تستحق به النار؛ وذلك في قوله عزّ من قائل: ﴿سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾^(٣). وقد مات أبو لهب وزوجه على الشرك فعلاً، ليكون مصيرهما النار.

١. إخبارات غيبية في القرآن الكريم لو كذب واحد منها لذهب الإسلام كلّ هباءً، أرايت الخطورة؟ أرايت كم علق القرآن الكريم من جهود الإسلام والمسلمين ومن صدقيته على قيمة المعجزة؟ وهذا يعني أن طرح أي أمر بدعوى أنه إعجاز وفيه تحدّي يعني أنه أمر بالغ الخطورة لا يطرحه كذلك إلا صاحب يقين تام بقيمته وصدقته، أو مجازف خفيف العقل، لا احترام لنفسه عنده، ولا أحد يمكن أن يصف الرسول ﷺ بأنه الأول؛ هذا وقد صدقت الأيام صدق الإعجاز القرآني، وحقانيته. «منه حفظه الله»

٢. الروم: ٣-٤.

٣. المسد: ٣-٦.

٣. ما دلَّ عليه قوله سبحانه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾^(١). بصورة جازمة حاسمة لا تردد فيها.

ولقد كفى الله رسوله ﷺ المستهزئين، وحماه من شرهم، ونصره على المشركين، ومكّن لدعوته ودينه في الأرض رغماً على أنوفهم، وردّهم خائبين.

وتتناول كتب التفسير المزيد من الإخبارات الغيبية في الكتاب الكريم مما تمّ في الخارج تحقّقه بيقين^(٢).

الوجه الثالث: الحقائق العلمية

هناك حقائق علمية دقيقة إذا قيسَت بمستوى بيئة ثقافية معينة، وبمستوى دراسي خاص، والتخلّف في رصيد الاكتشافات المعاش كان إدراكها حسب تلك المعطيات لا يمكن أن يتمّ عادة، وحتى في الشاذ النادر، وكانت بذلك دليلاً على إمداد غيبي فوق كلّ الحسابات، وكانت تأييداً واضحاً لدعم مثل دعوى النبوة حين يكون النطق والتصريح بهذه الحقائق جازماً لا قصور في كشفه عن اليقين التامّ عند المصرّح بها في موقع الجدّ، وفي مورد ترتيب الآثار الوخيمة، والنتائج الأليمة للمدعي على تقدير عدم الصدق^(٣).

وهناك عدد من الحقائق العلمية الدقيقة الخفية على الفهم البشري أيامَ نزلَ بذكرها القرآن الكريم، ولا يسمح مستواها لإنسان أمّي قال عنه القرآن الكريم: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو

١. الحجر: ٩٤-٩٦.

٢. خطبة الجمعة (٤٤٣) ١٢ ربيع الثاني ١٤٣٢هـ - ١٨ مارس ٢٠١١م.

٣. كان القرآن يطرح الحقائق العلمية وهو في معرض التحدي للآخرين، ويطرحه بصورة جازمة حاسمة، وكان يترتب على عدم صدق هذه الحقائق العلمية سقوط قيمة القرآن بصورة نهائية. «منه حفظه الله»



مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١﴾

وعلم القوم الذين كان يعيش فيهم أن واقعه كذلك^(٢)، وإلاّ اعترض معاندوهم على الأقلّ على ما ذكرته الآية من هذا الأمر.

وما كان يتأتّى ذلك لدارسٍ عادٍ، ولا للبيئة العلميّة والثقافيّة العربيّة التي كانت أيام دعوى الوحي والرسالة أن تكون في المتناول.

إنّ ذكر هذه الحقائق من الكتاب الكريم، على لسان محمد بن عبد الله ﷺ الذي يشهد تاريخه بأميّته، وعدم انتسابه للدراسة العلميّة الخفيفة، فضلاً عن المكثّفة، في بيئة عالميّة بعيدة عن طرح هذه الحقائق، وبيئة عربيّة علميّة متخلّفة، ومن غير غرضٍ حيّاتي عمليّ^(٣)، إلاّ ما كان يستهدفه هذا الذّكر المصحوب بالتحدي العام للقرآن، من إثبات الصّلة الغيبية الخاصة للرسول ﷺ بكلمة الوحي الإلهي، دالٌّ بصورة قاطعة على هذه الصّلة، والتلقّي لوحي الله وسمائيّة الكتاب الكريم.

ولم يأتِ ذكر هذه الحقائق في مناظرة علميّة، ولا في سياق إبراز الشّخصية، والعبرية المتميّزة، ولا لتقديم حقائق علمية لخدمة البيئة وتطويرها، ولا في معرض الظنّ والتّخمين، ولا بصورة أنها قابلة للبحث، وإنما بصورة أنها حقائق قاطعة شأنها شأن وجود الشمس

١. العنكبوت: ٤٨.

٢. كان يعلم القوم أن واقع الرسول كذلك، وإلاّ لقالوا للقرآن الكريم أنت تقول بأنه لم يكن يخطّ بيمينه كتاباً، ونحن نعلم بأنه كان على فهم شيء من الكتابة. «منه حفظه الله»

٣. ما كان القرآن الكريم في معرض أن يبني في ذلك اليوم حضارة مادية لي طرح الحقائق العلميّة تمهيداً لبناء تلك الحضارة، وما كان طرح تلك الآيات الكريمة للاستفادة من إقامة بناء مادي. «منه حفظه الله»

المعلومة، والقمر المكشوف^(١).

أمثلة من الحقائق العلمية في القرآن:

للقرآن إعجاز متنوع لا تُقاومه حجة، ولا يثبت أمامه مقاوم، ولا يردّه عقل، وتأكيداً لهذا البعد من الإعجاز، فهذه بعض الأمثلة التي تكشف عن حقائق علمية غامضة في الكون، كان يمتنع على الرسول ﷺ، بكلّ المقاييس العلمية، أن يتوفر على العلم بها، لولا الإخبار من ربّ الكون العليم بكلّ دقائقه وقوانينه وأسراره:

المثال الأول:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(٢).

الآية الكريمة تتحدث عن مرحلة من مراحل خلق السماء لم تكن لعقل الإنسان صلة بها والتعرّف على طبيعتها على الإطلاق، ولم تكن له تجربة عملية، ولا وسيلة حسية ذات مساس بها، فحيث يأتي الإخبار عن طبيعة تلك المرحلة، ويبقى الحكم عليه غامضاً عند عقل الإنسان وتجربته لقرون متطاولة، ثم بعد أن تقدّمت كاميرات الأقمار الاصطناعية تقدّماً هائلاً عبر مسيرة طويلة للعلم البشري استطاعت بكشفها أن تقنعه^(٣) بمضمون ما أخبرت به الآية الكريمة، هذا الشيء لا يمكن أن يفسّر إلاّ بأن القرآن الكريم من تنزيل العزيز الحكيم.

١. خطبة الجمعة (٤٤٣) ١٢ ربيع الثاني ١٤٣٢هـ - ١٨ مارس ٢٠١١م.

٢. فصلت: ١١.

٣. أي الإنسان. «منه حفظه الله»



لقد كانت المعلومات المتراكمة بيد العلماء المختصين قبل المرحلة الأخيرة من التقدم العلمي في مجال الفلك، والصور والأفلام الحية التي تظهر نجماً وهو يتكون من كتلة ضخمة من الدخان الكثيف القاتم تسوقهم إلى تبني النظرية القائلة بأن السماء كانت ضباباً لا دخاناً^(١).

وليسأل أي عاقل نفسه هل كان بإمكان محمد بن عبد الله ﷺ لولا الوحي من الله سبحانه أن يخبر هذا الإخبار الجازم القاطع متجاوزاً حدود ثقافته وبيئته، وحواجز الغيب الكثيفة، وإمكانات الحسّ المعاش، وخارج الوظيفة الفلسفية للعقل، إذ المسألة ليست مسألة فلسفة؟!؟!^(٢).

المثال الثاني:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا^(٣)﴾^(٤)، وما توصل إليه العلم بشأن بداية الكون، هو أنه كان عبارة عن سحابة سديمية دخانية غازية هائلة متلاصقة، ثم تحولت إلى ملايين الملايين من النجوم التي تملأ السماء، ومن جملة ما أدت إليه الانفجارات الضخمة من مجموعات النجوم والكواكب المنظومة الشمسية والكرة الأرضية، ولا يزال العالم في توسع مستمر.

وما توصل إليه العلم من هذا الأمر، إنما هو بفضل ما توفر لدى الإنسان من

١. كانوا يظنون أن السماء كانت ضباباً لا دخاناً، الآية الكريمة تقول أنها كانت دخاناً، ويأتي بعد ذلك العلم ليقول بأنها كانت دخاناً وليس ضباباً. «منه حفظه الله»

٢. خطبة الجمعة (٤٤٥) ٢٦ ربيع الثاني ١٤٣٢هـ - ١ أبريل ٢٠١١م.

٣. الرّقى: الالتحام والإلتام، والفتق: الفكّ والفصل. «منه حفظه الله»

٤. الأنبياء: ٣٠.

تليسكوبات ضخمة، وسفن فضائية متقدّمة في القدرة على الكشف، وهو ما كان مفقوداً تماماً أيام الرسول ﷺ^(١).

المثال الثالث:

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾^(٢).. المتبادر من الآية الكريمة أنّ التوسعة للسماء، لأنها المذكورة في السياق، وليس لشيء آخر كالرزق^(٣)، وذلك على حدّ ما في الآية التالية: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾^(٤)، أي: الماهدون لها، يجعلها مهداً مناسباً لحياة الإنسان، وحركته، وإقامة حضارته.

وإبقاء السماء في توسّع بقدرة الله سبحانه فوق كلّ المعلومات البشرية المتاحة أيام ذكر القرآن الكريم لهذه الحقيقة، ومقدّمات الوصول إلى هذا الأمر كانت مفقودة، ولم يكن لها من سبيل.

وحديثاً جعلت الأبحاث العلمية المتقدّمة، ووسائل الرصد والكشف المتفوّقة، والمقدّمات العلمية المتراكمة العلماء يذهبون إلى ما يوافق الآية الكريمة من توسّع دائم للكون.

عن كتاب (حدود النجوم) بقلم الكاتب (فرد هويل): "أن أقصى سرعة لابتعاد النجوم عن مركزها حتّى الآن ٦٦ ألف كيلو متر في الثانية، والمجرات التي هي أبعد منها في نظرنا

١. خطبة الجمعة (٤٤٥) ٢٦ ربيع الثاني ١٤٣٢هـ - ١ أبريل ٢٠١١م.

٢. الذاريات: ٤٧.

٣. ربّما حُمل على التوسعة ﴿وَأِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ للرزق، ولكن الرزق لم يُذكر في سياق الآية، وإِنما المذكور في سياق الآية هي السماء. فتكون التوسعة للسماء حسب المتبادر الظاهر. «منه حفظه الله»

٤. الذاريات: ٤٨.



ومض نورها قليل جداً حتى أنه من الصعب تحديد سرعتها، والصّور الملتقطة من السماء تدلّ على أهمية هذا الكشف، وأنّ الفاصلة ما بين هذه المجرات تتسع أكثر من المجرات القريبة منا بسرعة^(١).

ويقول (جورج جاموف)، في كتاب (خلق العالم)، في هذا الصّدد: "إنّ فضاء العالم المتشكّل من مليارات المجرات في حالة انبساط^(٢) سريعة، والحقيقة هي أن عالمنا ليس في حالة السّكون، بل انبساطه مقطوع به"^(٣) (٤).

المثال الرابع:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾^(٥).. تربط الآية الكريمة بين استمرار معاناة الإحساس بألم النّار، وبين احتفاظ الجسم بجده، أو تجدّده له، وذلك على خلاف النّظرة العاديّة التي تربط بين شدّة الألم ودرجة الاحتراق الأعماق للبدن. ويأتي العلم الحديث ليكتشف أنّ الجسيمات الحسيّة المختصّة بالألم والحرارة إنّما تكون موجودة في طبقة الجلد وحدها.

١. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل لمكارم الشيرازي: ١٧ / ١٢١.

٢. انبساط يعني انتشار، توسع. «منه حفظه الله»

٣. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل لمكارم الشيرازي: ١٧ / ١٢٢. توسّع العالم يعتبره ويراه حقيقة علمية لا شكّ فيها، وهذا ما يوافق الآية الكريمة التي جاءت قبل قرون لتؤكد هذا الأمر. «منه حفظه الله»

٤. خطبة الجمعة (٤٤٥) ٢٦ ربيع الثاني ١٤٣٢هـ - ١ أبريل ٢٠١١م.

٥. النساء: ٥٦. هذا التبديل للجلود ليذوقوا العذاب. «منه حفظه الله»



ومن هنا ركّز القرآن الكريم على تبديل المجلود لاستمرار الألم ليدلّ على أنّه من وحي الله المتنزّل على عبده الفقير إليه^(١).

١. خطبة الجمعة (٤٤٥) ٢٦ ربيع الثاني ١٤٣٢هـ - ١ أبريل ٢٠١١م.

الفصل السادس: شروط النبوة وإن توفرت المعجزة

"تقدم أن النبوة تحتاج إلى مثبت، ومن مثبتها المعجز...، ويُنبّه هنا على أنه ليس كلّما ثبت المعجز، وإن كان منسجماً مع دعوى النبوة، مؤيداً لها، كان كافياً في البرهنة عليها، أو ملزماً بقبولها، فقد يقوم المعجز، ومع ذلك لا تُقبل دعوى النبوة، وملزماً بقبولها، ومعدراً للأخذ بها، فإن للنبوة مع عدد من الشروط والموانع.

[ف]حتى تثبت النبوة لمدّعيها، لا بدّ من الآتي، وإن توفّر المعجز، وإلا فلا يكفي توفّره:

أولاً: أن يكون هذا المدّعي في عقلّيته ونفسيّته وسيرته بمستوى الإنسان الذي يقبل العقل اختياراً الله العليم الخبير العدل الحكيم الرؤوف الرحيم له أميناً على دينه، سفيراً له، ناطقاً عنه، داعياً إلى توحيده، هادياً إليه، آخذاً بعباده إليه، قدوة أولى ناطقة في الناس بأخلاق رسالته، وصدق العبودية له.

فلو لم يكن مدّعي النبوة متمتعاً بمثل هذا الوزن لانكشف أنّه لا يليق بكرامة النبوة، ومنزلتها الرفيعة، ولا ينسجم واقعه مع أهدافها العظيمة، ودورها الخطير في إعداد الناس وتربيتهم، وتكميلهم، وتحقيق ما يريد الله لهم من السعادة، ولا تضح أنّه يستحيل على علم الله سبحانه، ولطفه، وحكمته أن يختار هذا الفاقد للأهليّة، فتسقط بذلك قيمة المعجز من ناحية عمليّة، فلا يمكن للعباد الاحتجاج به على الله ﷻ في اتباع هذا المدّعي للنبوة^(١).

١. خطبة الجمعة (٤٣٩) ١٤ ربيع الأول ١٤٣٢هـ - ١٨ فبراير ٢٠١١م.

"الرسول الأعظم ﷺ الذي قد يطلق عليه النموذج أو الأنموذج، الإنسان المثال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١)، هذه هي شهادة الرب ﷻ في حق العبد الذي ارتضاه خاتماً للنبيين والمرسلين، وكلفه أضخم رسالة في العالم.

[إنَّ] شهادته جلَّ وعلا له ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢)، والخلق ليست الابتسامة الكاذبة والمجاملات، إنما الخلق: مستوى نفسي شفاف، [و] رقي في الذوق الإنساني، [و] صحة في رؤية الفكر، [و] ضمير طاهر، [و] نية صالحة، [و] مشاعر فياضة بالخير، [و] ذات متألفة لا تند إلا بخير، [و] لا يترشح منها إلا الهدى والعطاء الصالح. [و] لا تتكلف حين تعطي صالحاً. إنما الصالح هو المترشح منها.. هو إشعاعها هو فيضها. ذلك هو الخلق يا إخوتي الكرام، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٣).

[إنَّ] صاحب الخلق الكريم، لا يترشح عنه إلا الخير، وإشعاعه بالهدى والنور ذاتي، بعد فيض الله ﷻ، وهو ثمرة المنهج الإلهي القويم، والتزكية في ضوء توجيهاته وتعليماته.

[إنَّ] الرسول ﷺ صناعة القرآن، كما جاءت بذلك الأحاديث: أن "خُلُقُهُ الْقُرْآنُ"^(٤)، حين سئل نسوة النبي ﷺ، وليست واحدة منهن فقط، وفي رواية سئل نسوته ﷺ واحدة واحدة، فجاء الجواب مفاده: ((أَنَّ خُلُقَهُ الْقُرْآنُ)).

فالرسول هذا العظيم الذي يمثل أقوى شخصية على كل الأصعدة والمستويات، هو صناعة القرآن، [و] القرآن يستطيع أن يصنعكم أمةً قادرة.. أمةً رائدة.. أمةً قائدة.. أمةً لا

١. القلم: ٤.

٢. القلم: ٤.

٣. القلم: ٤.

٤. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر لورام: ١ / ٨٩.



تقهقر أمام عدوان الكفر والضلال.

عودوا إلى قرآنكم، [و] لا تفتشوا عما يصدره الغرب والشرق لإنقاذكم أيها الأخوة، قرآنكم ألزموه، سنة نبيكم ﷺ تمسكوا بها تصنعون أفراداً أفذاذاً، وتصنعون أمة راقية قوية سامية، منقذة للبشرية جمعاً^(١).

ثانياً: "سلامة مضمون الرسالة التي يحملها المدعي أنه نبي ورسول من الله سبحانه، بالقياس لما عليه جلال الله وجماله وعلمه وحكمته وعدله ورأفته ورحمته.

فألف معجز لا يمكن أن يثبت الرسالة عن الله سبحانه، فيها تنافٍ مع جلاله وجماله وأسمائه الحسنی^(٢)"^(٣).

ثالثاً: "بقي أن نذكر أن من موانع النبوة، حتى مع قيام المعجز المؤيد وسلامته، أن ينفي من ثبتت نبوته تعقبها من نبوة أخرى بعده، وذلك للعلم بأن رسل الله جلّ وعلا، لا يتناقضون قولاً أو فعلاً^(٤)، إذ يرجع ذلك إلى التناقض في قول الله سبحانه وفعله الذي يرجعون إليه في كل ما يقولون عنه، ويفعلون بإذنه الذي تكشف عنه نبوتهم ورسالتهم

١. خطبة الجمعة (٢٩) ٢ شعبان ١٤٢٢هـ - ١٩ - ١٠ - ٢٠٠١م.

٢. هذا الكلام على مستوى البحث العقلي، أما على مستوى الواقع الخارجي فلم يأت أن الله ﷻ قد زود كاذباً بمعجز كافٍ في نفسه لولا ما يمنع. فكل الرسائل التي جاءت من الله سبحانه وتعالى، كل الرسائل التي ادّعاها الأنبياء، وقام عليها المعجز الحق المستكمل للشروط لم يأت أنها لا تتناسب مضموناً مع شأن الله سبحانه وعلمه وعدله وحكمته. «منه حفظه الله»

٣. خطبة الجمعة (٤٣٩) ١٤ ربيع الأول ١٤٣٢هـ - ١٨ فبراير ٢٠١١م.

٤. فلا يصير أن ينفي السابق نبوة اللاحق بينما تثبت نبوة اللاحق. «منه حفظه الله»



منه وهو المتعال^(١).

وعليه لا يُثبت المعجز -على فرض تقديره- نبوة أي مدّع للنبوة بعد الرسول الخاتم عليه وآله، بعد نفيها منه النبي، وهو الذي لا ريب في نبوته^{(٢)»(٣)}.

١. تعالى الله أن يصدر منه تناقض. «منه حفظه الله»

٢. بعد أن نفى رسول الله ﷺ أن يأتي نبي بعده، وبما أنه نبي ثابت النبوة فلا التفات لأي معجز يأتي بعده مصحوباً بدعوى النبوة. «منه حفظه الله»

٣. خطبة الجمعة (٤٤٠) ٢١ ربيع الأول ١٤٣٢هـ - ٢٥ فبراير ٢٠١١م.

الفصل السابع: تساؤلات حول الإعجاز والمعجز

التساؤل الأول:

”قد يُقال: إن المعجز ظاهرة من الظواهر، وحادث من الحوادث، وكلّ حادث له علته الخاصة، وهي علة يمكن اكتشافها في وقت أو آخر، متقدّم أو متأخّر^(١).”

فالمعجز فعل من الأفعال التي يمكن لعقل أن يكون هو الأسبق في اكتشاف علته، وبذلك يتحقّق على يده، وقد يأتي اكتشاف هذه العلة نفسها بعد زمن طال أو قصر من آخرين، كما هو حال الظواهر الأخرى العلميّة التي يسبق عقل إلى التعرف على عللها لتلحق به في ذلك عقول أخرى تكتشف نفس العلة.

وبهذا يفقد المعجز دلالاته الخاصّة، المتمثّلة في أن الله تبارك وتعالى خصّ به مدّعي

١. الظواهر الطبيعيّة قد يكتشف عقل متقدّم علتهّا فيستفيد من اكتشاف العلة لإحداث المعلول، بحيث يستعمل العلة التي أوجدها الله ﷻ لإنتاج المعلول المرتبط بهذه العلة، فلماذا لا يكون المعجز واحدة من الظواهر الطبيعيّة التي قد اكتشف النبيّ الذي جاء على يده معجز علة هذا المعجز؟ وكلّ ما هنالك أن هذا النبيّ بعقليته العبقريّة سبق اكتشافه للعلة أي مكتشف آخر، وبذلك لا تبقى لهذا المعجز خصوصيّة تدلّ على عناية الله الخاصّة، وتأييده الخاص لهذا النبيّ، كما يتقدّم عالم من العلماء في اكتشاف قانون من القوانين الطبيعيّة الغامضة فيسبق في ترتيب آثار اكتشاف هذا القانون لا يستطيع غيره ترتيبها فكذا يمكن أن يكون الرسول قد اكتشف قانونا من القوانين علة من العلل التي أتاح له أن يبرئ الأكمه والأبرص، وأن يفلق البحر بضربة عصا وما إلى ذلك من معاجز، لماذا لا يكون الأمر كذلك؟ هذا تساؤل، ويجاب عليه.

النبوة من بين الناس، ليدلّ على أنّه نبيٌّ أو رسول من عنده، وإلا كان كلّ عقل سبق إلى اختراع معين لاكتشافه لعلته، ثبتت لصاحبه النبوة بذلك لو ادّعاها^(١).

وللإجابة على هذا التساؤل لا بدّ من بيان الفرق بين أمرين:

١. مبدأ العلية، مبدأ مسلّم، وواضح أنّ لكلّ معلول مرتبطٍ فقيرٍ في نفسه، حادثٍ بعد عدمه علّةٌ وراء وجوده الطارئ، وحدوثه المستجد^(٢)، وهذا الأمر لا ينتج لنا أن طبيعة العلة التي تقف وراء المعجز من نفس طبيعة العلة التي تقف وراء أي ظاهرة علمية أخرى، وأنّه متيسّرٌ للعقل البشري أن يكتشف علة المعجز تيسر اكتشافه لعلّة أي ظاهرة من الظواهر الكونية الأخرى؛ وإن كان هذا الاكتشاف قد يتقدم زمناً من عقل ويتأخر من آخر.

٢. الأمر الآخر، هو: أن نسلّم بأنّ كلّ علل الظواهر، ومنها: ظاهرة ما نسمّيه بالمعجز، لا تختلف في طبيعتها، وأنها على حدّ سواء في إمكان اكتشافها من أكثر من عقل^(٣)، والعقل

١. فلماذا مثلاً آينشتاين لا تثبت نبوّته لو ادّعى النبوة لأنه جاء بمجديد باكتشافه قانوناً غامضاً على العقول الأخرى؟! «منه حفظه الله»

٢. هذا القانون المسلّم لا ينتج لنا مساواة المعجز بغيره من الحوادث الكونية والظواهر الطبيعية الأخرى، الذي يثبت لنا مساواة المعجز بغيره من الظواهر هو أن تكون طبيعة العلة المنتجة للظاهرة الطبيعية هي نفس طبيعة العلة التي يقوم عليها المعجز، يعني نحتاج إلى مساواة طبيعة علة المعجز وعلة الظاهرة الطبيعية. لو تساوت علتان في طبيعتهما فلا يبقى للمعجز مائز عن الظاهرة الطبيعية، لكنّ علتين قد تكونان مختلفتين من حيث الطبيعة. «منه حفظه الله»

٣. لو أمكن اكتشاف علة المعجز من أكثر من عقل، كما يمكن اكتشاف علة الظاهرة الطبيعية من أكثر من عقل مع فارق التقدم والتأخر الزمني لسقطت دلالة المعجز على ما نريد أن نستدل به عليه من نبوة النبي ورسالة الرسول، لكن الأمر ليس كذلك فإن للمعجز علة قد تختلف في طبيعتها عن علة الظاهرة



المكتشف لعلّة شيء، الواجد لها ينتج معلولها. نعم يمكن أن يتقدم عقل على آخر زماناً في اكتشاف هذه العلة، وتحقيق معلولها.

وهذا التقدم أو التأخر في الاكتشاف ليس خاصاً بالمعجز حتى يكتسب دلالة خاصة. ولو تمّت المساواة بين علة المعجز وغيره، في إمكان اكتشافهما بالأدوات المعرفية عند غير الأنبياء لسقطت قيمة المعجز حقاً في إثبات أن صاحب المعجز نبي أو مرسل من الله سبحانه.

لكن لا دليل على الإطلاق على هذه المساواة، فضلاً عن أن تكون أمراً بديهيّاً، فلا بديهية لهذه المساواة كبديهية مبدأ العلية ولا دليل عليها من ناحية علمية.

فإذا كان للمعجز علته التي لا تملك التجارب العلمية التي تعتمد عليها منجزات الإنسان في مجال الاكتشاف والاختراع أن تصل إليها؛ امتنع أن يقاس المعجز بالمنجزات البشرية في إمكان تحقيقه من غير الأنبياء المدعومين بالغيب دعماً خاصاً للدلالة على نبوتهم.

فالمعجز له علة، لكن لا يلزم أن تكون هذه العلة متاحة للوسائل العلمية التي تملكها الطبيعة البشرية أن تتعرّف عليها.

الطبيعية بحيث أن لا طريق للعقل البشري لاكتشاف علة المعجز، وإن كان المعجز ليس بلا علة، صحيح أن المعجز له علة، والظاهرة الطبيعية لها علة، لكن علة الظاهرة الطبيعية ميسور للعقل البشري أن يصل إليها بينما علة المعجز منسد أمام العقل أن يصل إليها، علة الظاهرة الطبيعية يمكن أن تصل التجارب إليها، بينما علة المعجز لا يمكن أن تصل التجارب إليها، هذا هو لبّ الفكرة باختصار. «منه حفظه الله»

ولم يحدث للتطور العلمي أن استطاع تكرار معجز من المعاجز^(١) التي جاء بها الأنبياء والمرسلون، لإثبات نبوتهم ورسالتهم.

ويلاحظ أن معاجز الأنبياء، جاءت مختلفة غير متكررة، وربما كان من الحكمة في ذلك دفع هذا التوهم، وهو أن المعجز ظاهرة من الظواهر التي كان سبق الأول فيها للثاني، ليس إلا من حيث اكتشاف علة المعجز.

تجدون أن إبراهيم عليه السلام لم تحرقه النار، ويدعو الطيور الممزقة مزقاً فتأتينه سعيًا.

وموسى عليه السلام تتحول العصا على يده ثعباناً، فتلقف ما يأفكون.

وعيسى عليه السلام يحيي الموتى من الناس، ويبرئ الأكمه والأبرص.

ومحمداً صلى الله عليه وآله ينزل عليه كتاب يعجز كل الإنس والجن بعده عن الإتيان بمثله.

فهذه معجزات غير متكررة، كل نبي يأتي بمعجز هو غير ما جاء به النبي أو الرسول الآخر قبله، وربما كان من حكمة ذلك أن يقال للناس بأن المعجز ليس مما يملك النبي أن يكرره بقدرته الخاصة، وبما أوتي من عقل بحسب ما عليه طبيعة العقل البشري^(٢).

التساؤل الثاني:

١. هذا من ناحية الخارج، التقدم العلمي لم يستطع في يوم من الأيام أن يكرر إحداث ما فعله الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولا يستطيع هذا التكرار بطريقة الإعجازية التي كانت تجري على يد الأنبياء، بعيداً عن الاعتماد عن التجربة والوسائل العلمية والطبيعية التي يمكن أن يتوصل إليها بالتعليم والتعلم، ذلك من مثل دعوة طيور فرقت أجسادها مزقاً في أماكن مختلفة فيقود لها بناؤها وحياتها وتأتي سعيًا بين يدي من دعاها. «منه حفظه الله»

٢. خطبة الجمعة (٤٤٠) ٢١ ربيع الأول ١٤٣٢هـ - ٢٥ فبراير ٢٠١١م.



في "المعجز والسنة الإلهية". يقول القرآن الكريم: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^(١).

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(٢).

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(٣).

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾^(٤).

والآيات تفيد أن الله سنناً في الأرض، والناس، وقوانين سارية لا تتخلف، ولا تنقلب، ولا تغيير فيها.

وقد يُقال بأن المعجز يمثل تغييراً في السنة الإلهية، وخروجاً على مألوفها، إذ في المعجز ترتيب لمسبب على غير سببه المعتاد، ولمعلول على غير علته المرتقبة.

فحدوث المعجز، فيه نقض للسنة الإلهية التي ينفي القرآن الكريم صراحةً نقضها وتغييرها.

وللإجابة على هذه الشبهة، علينا أن نعرف السنة التي ينفي القرآن تحوّلها ونقضها، وهذه السنة ليست هي أن قدرة الله ﷻ قد انحصرت في أن لا تُنتج أي معلول إلا من علّة واحدة، لا يمكن أن تقوم مقامها علّة أخرى من صنعه، وإنما هي^(٥) أصل مبدأ السببية الذي

١. فاطر: ٤٣. وهناك آيات أخرى في تقرير أن الله ﷻ سنناً لا تتبدّل. «منه حفظه الله»

٢. الأحزاب: ٦٢.

٣. الفتح: ٢٣.

٤. الإسراء: ٧٧.

٥. أي السنة الإلهية. «منه حفظه الله»

يرتبط به وجود كلِّ الممكنات، وأن لا شيء يوجد منها من غير سبب يكون به وجوده في الابتداء والاستمرار.

وأما الآيات الكريمة المتقدمة، فكلُّها تتحدَّث عن أنَّ سنَّة الله ﷻ قاضية بأنَّه إذا حصل السَّبب حصل في طوله رتبةُ المسبَّب بإفاضةٍ منه سبحانه، ولا مفاد فيها على الإطلاق بأنَّه لا يحصل شيء في الوجود إلَّا من طريق علته المعتادة، وأن الباب مسدود أمام القدرة الإلهية المتعالية في اختيار الأسباب، وتنويعها.

وكلُّ المعجزات الإلهية الجارية على يد أنبيائه ورسله لا تنتجها الأسباب المعتادة، وفي الوقت نفسه لم تحدَّث من غير سبب على الإطلاق.

فالأَسباب لا تحكم القدرة الإلهية، وإنما القدرة الإلهية هي التي تحكم الأسباب، ولا حدَّ عليها في إيجادها وتنويعها.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١).

إذا ليس في المعجز خرقٌ للسنة الإلهية، وإنما الحديد فيه عن غيره من الحوادث أنَّ سببه من نوع فوق قدرة البشر، وما يصل إليه علمهم، وأنَّه من نوع غيب يتجاوز إدراك العقول والتجارب.

وانحصارُ العلة لأيِّ ظاهرة في أمر واحد ليست مسألة عقلية في المعجز ولا غيره فالحرارة مثلاً كما هي أثر للنار، فإنها أثر للاحتكاك^(٢).

١. آل عمران: ٤٧.

٢. خطبة الجمعة (٤٤١) ٢٨ ربيع الأول ١٤٣٢هـ - ٤ مارس ٢٠١١م.



التساؤل الثالث:

"إنَّ النبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ لم يستجب لعدد من خوارق العادة التي اقترحها المشركون؛ فكيف يستقيم عدم استجابته لذلك مع كون الطريق إلى إثبات نبوته هو المعجز؟

والجواب: أنَّ اللازم لإثبات النبوة هو إقامة الحجة عليها بحيث تكون مُلزمة للعقل، ولا يجد العقل مفرّاً من التصديق بها مع شرط تخلّي صاحبه عن العناد، ولا يقتضي إثبات النبوة الاستجابة لأيّ مقترحٍ مشتهى لحالة المكابرة والعناد والجدل العقيم.

وقد ثبتت نبوة الرسول الخاتم ﷺ بأكثر من طريق؛ منها:

دلائل الصدق الصارخ لمضمون رسالته.

والسموُّ المتميّز في شخصيته.

وبشاراتُ الأنبياء السابقين المعيّنة له.

والقرآن العظيم، وهو المعجزة الحية القائمة المتحدية للإنس والجنّ جميعاً ما دامت الحياة، وبقي موضوع للرسالة فيها.

ويجب أن ندرك بأنَّ المعجزات إنما هي لإلزام العقل كما سبق، وليست لقهر إرادة الإنسان وإجباره على التصديق بالنبوة^(١)، كما أنَّها ليست حالة من حالات الاستعراض البهلواني ولمجرد التلهية والتسلية، ومجارة الروح الصبائية عند الكثيرين.

ويُنْبَه على أنَّ معجزات الرسول الخاتم ﷺ قد تعدّدت، والمثبتُ لنبوته ولنبوة من قبله من الأنبياء للأجيال المتلاحقة المتباعدة عنهم زمنياً إنما هو ما يصلها بطريق متواتر

١. فاختيار الإنسان غير مسلوب في مسألة التصديق بالرسالة. «منه حفظه الله»



يوجب يقينها بتلك المعاجز.

والقرآن الكريم هو أكبر معجزة باقية تواترها لكل الأجيال من بين كل معاجز الأنبياء والمرسلين على الإطلاق، والقرآن الكريم هو المثبت لنا بثبوته القائم دائماً لمعجزات الأنبياء السابقين مثل إبراهيم وموسى وعيسى عليه السلام، والتي ينبئ بها، ونبوة أولئك العظام^(١).

التساؤل الرابع:

"كُونُ المعجز فوق المقدور البشري، ويمتنع على عقل الإنسان وتجاربه إنتاجه يجعله دالاً على أن من تحقق على يده؛ فإنما تحقق له ذلك بتدخل غيبي، ومدد خاص من الله تعالى، وأن من جرى على يده قد أعطي من الله تعالى ما لم يُعط غيره، ولا يتأتى له لولا عناية الله الخاصة غير العادية به في مورد الفعل الخارق للعادة الذي جاء به.

لكن هذا ليس هو المطلوب، بل المطلوب الأصل والأساس هو الكشف عن أن صاحب المعجز المدعى للنبوّة نبي حقاً، والمعجز فاقده في نفسه هذه الدلالة^(٢).

ولذلك قد يأتي المعجز على يد شخص لا تكون له النبوة كما في المعجزات التي نسميها بالكرامات مما كان يحدث للأئمة عليهم السلام تفريقاً بينها وبين ما يجري على يد الأنبياء عليهم السلام.

ولو كان المعجز يحمل دلالة في نفسه على النبوة لكل من جاء على يده لثبتت النبوة لكل ذي معجز، ولو لم يدع النبوة ولكن الأمر ليس كذلك.

١. خطبة الجمعة (٤٤١) ٢٨ ربيع الأول ١٤٣٢هـ - ٤ مارس ٢٠١١م.

٢. المعجز يدل على أنه من الله، دعم من الله، أما أن يدل على هذا نبي، وأن الله قد ارتضى نبوته، فذلك أمر أجنبي. قد يقال ذلك. «منه حفظه الله»

وانضمام دعوى النبوة إلى المعجز ممن جاء على يده لا يضيف شيئاً جديداً، ولا يُعدّ مثبتاً لها^(١).

والجواب: أنه إذا تحقق المعجز مع انضمام دعوى النبوة إليه كُنّا أمام أحد فرضين:

١. أن يكون هذا المدّعي كاذباً في دعواه، وهذا الكذب من أقبح القبيح، وأفظع الفظيع، وأظلم الظلم، وفيه فساد كبير.

وعندئذ يكون تزويد الله ﷻ لهذا الكاذب بما يؤيدّ دعواه تغريراً بالعباد، وإيقاعاً لهم في حبائل كذبه، والمتابعة في ما يريد بهم من الفساد، والضلالة.

وهذا التغرير والإيقاع في متابعة الكاذب المفسد مساعدة على القبيح، واشتراك فيه، وهو ممتنع على الله ﷻ عن ذلك علواً كبيراً.

وبذلك يبطل فرض أن يكون صاحب المعجز المصحوب بدعوى النبوة منه كاذباً.

٢. إذا امتنع فرض أن يكون كاذباً، تعيّن فرض صدقه لأنّ النقيضين لا يجتمعان^(٢). وهو المطلوب.

ونقرأ من الآيات الكريمة ما يبيّن بشاعة القبح في دعوى النبوة من الكاذب، والظلم الشديد في الافتراء على الله ﷻ:

١. المعجز في نفسه لا يدلّ على النبوة، وانضمام الدعوى لا يضيف شيئاً، ولا يستطيع إثبات النبوة.

«منه حفظه الله»

٢. إمّا فرض أن يكون هذا المدّعي كاذباً لما يلزمه من لازم باطل وهو تأييد الله لكذبه، وبعد بطلان كذبه لا بدّ أن يكون صادقاً لأنّ النقيضين لا يجتمعان. «منه حفظه الله»

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(١).
 ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾^(٢). والآيات في هذا المعنى متعددة.

وعن عدم دعم الله ﷻ للكاذب المبطل من المدعين للنبوة، وعن خذلانه له، وأخذه
 أخذاً شديداً حتى لا يقع الناس في تغريبه وفساده بتفريط منه سبحانه يقول الكتاب
 العزيز: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ، وَإِنَّهُ لَتَذَكُّرٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

وأمام هذه النتيجة الحتمية بصدق دعوى النبوة المصحوبة بالمعجز المؤيد لها مع انتفاء
 المانع من ثبوتها يكون دليل الإعجاز دليلاً عقلياً ملزماً لا مجرد سبب عادي للإقناع،
 ومقرب يعطي للنفس اطمئناناً بصدق دعوى النبوة^{(٤) (٥)}.

١. الأنعام: ٢١.

٢. الأنعام: ٩٣.

٣. الحاقة: ٤٤-٤٨.

٤. هو فوق الدليل الذي يوفر الاطمئنان، هو دليل عقلي ملزم لا يجد العقل مفراً من الأخذ به. «منه حفظه الله»

٥. خطبة الجمعة (٤٤٢) ٥ ربيع الثاني ١٤٣٢هـ - ١١ مارس ٢٠١١م.

الفصل الثامن: العصمة

الأمر الأول: معنى العصمة

أولاً: معنى العصمة في اللغة

”العصمة لغة: هي المنع والحفظ، وقد استعمل هذا اللفظ بمعناه هذا في القرآن الكريم، [كما في قوله تعالى]: ﴿قَالَ سَآوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾^(١).

[وقوله تعالى]: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٢). والمبحوث عنه في عصمة الأنبياء، هو امتناعهم الدائم الشامل من الذنوب أو غيرها، مما يتنافى مع مقام النبوة ووظيفتها^(٣).

ثانياً: معنى عصمة النبي واجبة

”وعندما يقال عصمة النبي واجبة، لا يعني أن لا يملك أن يفعل القبيح، ولكن بمعنى أنه بعد أن اختاره الله تبارك وتعالى للنبوة، ينكشف عقلاً أنه ما اختاره إلا لعلمه بعصمته، إذ يستحيل على حكمة الله ولطفه وعلمه وقدرته، أن يختار لرسالته من يدخل عليها

١. هود: ٤٣.

٢. المائدة: ٦٧. يعصمك: يحفظك، يصونك، يمنع أذاهم عنك. «منه حفظه الله»

٣. خطبة الجمعة (٤٤٧) ١٠ جمادى الأول ١٤٣٢هـ - ١٥ أبريل ٢٠١١م.

الخلل، بسبب نقصه أو سوء فعله" (١).

ثالثاً: معنى عصمة الله للنبي

"وإذا قيل بأنَّ اللهَ ﷻ عَصَمَ نَبِيَّهٖ، فليس بمعنى أنه أوجد فيه العصمة الكاملة جبراً وقهراً، وإنما قد هيأ له أسباباً، ووفر له من المقدمات الخاصة، ما يسهلها عليه دون أن يُعطل قدرته على التقصير وفعل المعصية.

ولو كان الأنبياء مجبورين على الطاعة وترك المعصية، وأن لا إرادة لهم على الإطلاق فيما يفعلون ويتركون، لما كان لهم فضل طاعة على غيرهم، ولكان غيرهم من أهل الطاعة، ممن يمتلكون إرادة الفعل والترك، أحق بالثوبة لفارق الامتحان وعدمه" (٢).

الأمر الثاني: مجالات العصمة

"البحث في العصمة يتناولها في المجالات التالية:

١. تلقى الوحي وتبليغه: بأن لا يعرض النبيَّ اشتباهاً في الوحي، والمُوحى، والمُوحى به (٣)، ولا يأتي منه عمدٌ أو نسيان يؤدي إلى مخالفته في التبليغ لما كُلف بتبليغه (٤).
٢. العمل بالتكليف: فالنبي لا يتخلف عن أي تكليف من التكليف الإلهية الفعلية في حقه، لا عن عمد، ولا خطأ، ولا سهو.

١. خطبة الجمعة (٤٤٩) ٢٥ جمادى الأولى ١٤٣٢هـ - ٢٩ أبريل ٢٠١١م.

٢. المصدر نفسه.

٣. النبيُّ على يقين تامٍّ، ووضوح كامل بأنَّ هذا المنزل عليه وحي، وأنَّ الموحى به هو الله تبارك وتعالى، ولا شبهة له فيما تنزل من وحي لثلا يسيء له معنى، ولا يغفل عنه ولا يشتبه فيه. «منه حفظه الله»

٤. هذا مجال من مجالات العصمة، لا بد أن يكون النبي معصوماً فيه. «منه حفظه الله»



٣. تشخيص موضوعات الأحكام الشرعية: فلا يحصل اشتباه عند النبيّ فيها بأنّ يحسب الخمر ماء، والشخص غير القاتل قاتلاً عمداً مثلاً مما يجعله يُخطئ في ترتيب الحكم المناسب لموضوعه^(١).

٤. الأمور والموضوعات العادية كما في عدّ فلان فلانا الآخر^(٢).

والفهم المتلقّى من مدرسة أهل البيت عليه السلام يقول بالعصمة المطلقة للأنبياء عليهم السلام في الموارد الثلاثة الأولى، بلا خلاف.

ويذكر كتاب (دروس في العقيدة الإسلامية) للشيخ محمد تقي مصباح اليزدي: "أنّ هناك خلافاً حول نفي السّهو والنسيان عن الأنبياء في الأمور المباحة والعادية"^(٣)^(٤).

الأمر الثالث: الدليل على العصمة

أ- الدليل العقلي:

يُوجِبُ العقل عصمة الأنبياء في مقام تلقّي الوحي، وإبلاغه بعد أن كان اصطفاؤهم من الله سبحانه لإيصال كلمته إلى الناس على حقيقتها لتتأدّى بها الهداية والحجة، وأيُّ

١. كلّما أخطأ الشخص في الموضوع أخطأ في حكم الموضوع، فإذا كان هناك شيء هو موضوع لحكم شرعيّ لو أخطأ النبيّ في تشخيص هذا الشيء فإنه سيخطئ في الحكم المنسوب لهذا الشيء، فلا خطأ عند الأنبياء في تشخيص موضوعات الأحكام الشرعية. «منه حفظه الله»

٢. يشتبه بين أنّ هذا أحمد أو علي، هل يحدث هذا الاشتباه عند النبيّ؟ هذا مجال من مجالات بحث العصمة. «منه حفظه الله»

٣. دروس في العقيدة الإسلامية لمحمد لمصباح اليزدي: ٢٣٩. التي لها دخل لها في حكم شرعي. «منه حفظه الله»

٤. خطبة الجمعة (٤٤٧) ١٠ جمادى الأول ١٤٣٢هـ - ١٥ أبريل ٢٠١١م.

خلل في تلقّي الوحي وتبليغه ينقض الغرض من هذا الاصطفاء، ويعطل إرادة الله سبحانه، ولا معطل لإرادته^(١).

كما يوجب العقل عصمتهم عليهم السلام في مقام العمل بما كلفهم الله به؛ لأن مخالفتهم العمدية للتكليف تُسقط قيمته في نظر الآخرين، وتهز الثقة في النبي نفسه فينتفي غرض الاصطفاء والإرسال^(٢)، وحتى لو كانت مخالفتهم عن خطأ أو سهو فإنها تجرّ إلى تهاون الآخرين في أمر التكليف، وتتيح المجال لاتهام الأنبياء بأنهم يتخذون من دعوى السهو والنسيان والخطأ وسيلة للتخلف العمدي عن التكليف^(٣).

ومن جهة أخرى فإن النبي هو القدوة العملية لأعلى الناس من دونه مرتبة في طاعة الله^(٤)، والالتزام بالتكاليف الشرعية، ومستوى العقل والنفس والذكر والنباة^(٥) وفي كل

١. فلا بد أن يكون النبي معصوماً حتى تصل كلمة الله تعالى إلى الناس كما أرادها، وإلا لم تصل على هذا الوجه. «منه حفظه الله»

٢. ولا يصح أن ينتفي هذا الغرض لأن ذلك سيعني نقصاً في إرادة الله سبحانه وتعالى. «منه حفظه الله»
٣. لا يصح تخلف الأنبياء والمرسلين صلوات وسلامه عليهم أجمعين عن تكليف من التكليف الإلهية ولو عن سهو أو خطأ، لأن ذلك سيجرّ إلى أن هذا النبي إنما ادعى الخطأ أو السهو بالتدريج للاعتذار أمام الناس، وإلا فهو في الحقيقة قد أقدم على المعصية عمداً، وبهذا تسقط قيمة النبي وقيمة رسالته. «منه حفظه الله»

٤. النبي صلّى الله عليه وآله وسلم قدوة لمن؟ لي ولأمثالي؟ أو قدوة حتى لعليّ بن أبي طالب عليه السلام؟ هو قدوة كل الخلق من بعده، فكيف يجب أن يكون؟ «منه حفظه الله»

٥. لا بد أن يكون أكبر عقل، أكبر ذاكرة، أزكى قلب، أظهر نفس، أسمى عمل، أشدّ إرادة في الخير وفي طاعة الله حتى يكون القدوة لكل من دونه، أيصح أن يكون قائداً لعليّ عليه السلام وعليّ يكبره في بعد من



بعد من أبعاد الكمال، ويتطلب هذا من المثال الأول وهو النبيُّ البراءة من نواقص الخطأ والسهو والنسيان، وإلا سقط عن مستوى القدوة لأصحاب المقامات الإنسانية والدينية العالية، وعن كونه إمامهم في الكمال، وقائدهم إلى الله سبحانه^(١).

والتربية بالأقوال، مع تخلُّف الأفعال، لا تؤدي الغرض المنشود^(٢).

أما الخلل في تشخيص الموضوع للحكم الشرعي، فيجرّ إلى الخطأ في الحكم نفسه، فيترتب على ذلك محذور الخطأ في الحكم، من مثل اتهام النبي بأنّ الاعتذار بالخطأ إنما هو لتبرئة الذات، وليس لأنّه يمثل الحقيقة^(٣).

ب- الدليل النقلّي:

"والكلام في الدليل النقلّي المعتمد على القرآن الكريم المُثبت لعصمة الأنبياء ﷺ.

ولا بدّ من الالتفات إلى أنّ ثبوت كون القرآن من تنزيل الله سبحانه ووحيه، لا يتوقّف على عصمة الأنبياء، ومنهم عصمة الرسول الخاتم ﷺ، وإنما اعتماده على الإعجاز، فإذا ثبت إعجازه، ثبت أنّه من وحي الله ﷻ وتنزيله، وأثبت النبوة والرّسالة

أبعاد الكمال؟ لا، لا بدّ أن يكون هو الكامل الأوّل، وأكمل الكلّ حتى يكون كلّ الكلّ ممن يقتدون بهداه وبسيرته. «منه حفظه الله»

١. وأولئك النّفَر قلّ ما يحدث لهم حتى من غير المعصومين خطأ أو سهو في طاعة الله. «منه حفظه الله»
٢. لو أجزنا على النبي أنّه يخالف تكليفاً ولو سهواً أو خطأ فإنه من جهة أخرى يبلغ كلمة الله على ما هي عليه، لكن هذا التبليغ اللفظي مع التخلّف العملي لا يربّي الناس، ولا يشدّهم إلى رسالة الله. «منه حفظه الله»

٣. خطبة الجمعة (٤٤٧) ١٠ جمادى الأول ١٤٣٢هـ - ١٥ أبريل ٢٠١١م.

لِلرَّسُولِ ﷺ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ^(١).

وبذلك لا يأتي إشكال في الاستدلال بالقرآن على عصمة الأنبياء، وأن إثبات كلٍّ منهما متوقف على إثبات الآخر، وهو ما يُسمى بإشكال الدور.

ولننظر ما يقوله كتاب الله العزيز الحكيم في موضوع العصمة:

١. ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾^(٢)، فيابليس الذي أقسم بعزة الله أن يغوي الناس أجمعين، وجد نفسه مضطراً إلى أن يستثني طائفة من الناس، لأنه لا يجد سبيلاً لغوايتهم، لا لخير فيه، وإنما ذلك ليأسه من غوايتهم، لكونهم قد أخلصهم الله ﷻ برحمته لمعرفته، وعبادته، والإنصراف إليه بلا شائبة لغيره في قلوبهم، ولا صارف لهم عنه، وليس أنهم إذا جاءوا بعمل أخلصوا فيه إليه فحسب، وإنما كل همهم فيه، وتطلعهم إليه، وعملهم من أجله لا يشركون به شيئاً أبداً، ولا يعصون له أمراً ولا نهياً، ولا يتخلفون عن طاعة. وهذه هي العصمة.

وتجد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٣)، فكون يوسف عليه السلام مخلصاً يجعله مصروفاً عن السوء والفحشاء، محصناً بالعصمة عنهما، فلا سلطان لشيء من الغرائز والدوافع والمغريات والمثيرات على من كان مخلصاً بحيث يوقعه في المعصية، أو يسبب له تخلفاً أو تباطؤاً عن الطاعة.

١. ص: ٨٢-٨٣.

٢. يوسف: ٢٤.

٣. يوسف: ٢٤.



٢. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(١).. النَّاسُ مَأْمُورُونَ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ، وعدم التخلّف عن طاعته، وطاعته إنّما هي طاعةٌ لأمر الله، فلو كان الرسول يأمر بما هو معصية أو قبيح لكان الأمر بهما من الله ﷻ، فلا بد أن يكون ما يأمر به الرسول بعيداً عن الخطأ والمعصية، على أن اتّباع الرسول ليس في أوامره ونواهيه فحسب، وإنّما يشمل فعله وتقريره، وعليه فكلّ ذلك يجب أن يكون الرسول فيه معصوماً^(٢).

٣. ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٣). قوله سبحانه، ينفي أن يكون عهده لأحد من الظالمين، وكلّ مخالفة لأمر من أوامر الله، أو نهْي من نواهيه، وهو صاحب أكبر حقٍّ على العبد، وكلّ خيانة لأمانة من أماناته ظلم، والإمامة عهدٌ من الله، وإبلاغ الرّسالة عهد، والرسول إمام أمّته، فالرّسالة لا تكون لظالم يقتترف المعصية، ويتخلّف عن الطّاعة، ويخون الأمانة، فتبيّن أنّ الآية الكريمة تُثبت الملازمة بين الرّسالة والعصمة^(٤).

٤. ﴿يَسْ * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾^(٥).

"الآية الكريمة تؤكد أكثر من تأكيد [لرسول الله ﷺ] ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، وكفى أن يكون محمد بن عبد الله (صلوات الله عليه وآله) رسول الله، كلمته تأتي من كلمة الله، لا يطرح علماً إلا من علم الله، لا يأتي بتشريع إلا من تشريع الله، لا يقدم أطروحة متقولة

١. النساء: ٦٤.

٢. وإلا لأمر الله ﷻ بالخطأ والمعصية. «منه حفظه الله»

٣. البقرة: ١٢٤.

٤. خطبة الجمعة (٤٤٨) ١٧ جمادى الأول ١٤٣٢هـ - ٢٢ أبريل ٢٠١١م.

٥. يس: ١-٥.

على الله، إذن هو مرجع مأمون.. هو مرسى آمن.. هو شاطئ أمان (صلوات الله عليه وعلى آله).

تبقى الكلمة ممكناً فيها: أن تخضع للدراسة للتقييم والمراجعة، إلا أن تنتهي للرسول الأعظم (صلوات الله عليه وآله) فيجب أن تكف كل الدراسات التي تمحص الكلمة [و] تمتحنها، [و] تريد أن تقيمها، [و] تأخذ بها أو تردّها.

[إن] كل كلمة يمكن أن ترد، إلا الكلمة التي تأتي من رسول الله ﷺ، ثم أن كل كلمة من أوصيائه المعصومين (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، هي كلمته، وكلمته كلمة الله.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾: يكفي هذا تأكيداً للعامل بمرجعية المنهج الإسلامي، والأطروحة الإسلامية المأخوذة عن رسول الله ﷺ، وعن خزائن علمه من أهل بيته (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) بعد ذلك.

[و] لا يمكن لك أن تجد مرجعية في الأرض تقارن بهذه المنهجية.. لا يمكن لك أن تعثر على أطروحة من شرق أو غرب، من رأس أي بشر، ومن مخ أي إنسان، يمكن أن ترقى لأطروحة السماء.. أطروحة الله ﷻ، على لسان رسوله وأوصيائه الرسول ﷺ.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾: جملة اسمية، والمؤكد (إن)، و(اللام). ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: الرسول ﷺ حمله ربه ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، لا يحيد عنه ولا يميل، [و] لا تزل له قدم، محمول طوال أيام حياته [و] طوال أيام رسالته (صلوات الله وسلامه) ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

[و] المحمول ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ واصل إلى الله ﷻ، [و] موصول به، لا يأتي عليه

الخطأ قولاً أو فعلاً أو شعوراً أو فكراً. إنها العصمة الفكرية.. هذه الآية تكفي تماماً لعصمة رسول الله صلوات الله عليه وآله.

الله تبارك وتعالى يشهد إنه محمول منه سبحانه ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقدرة الله لا تتخلف، أراد الله ﷻ وحقق حمل رسول الله ﷺ ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.. ليس في قدرة الله وكلمته تخلف، ولا مانع من فعله ﷻ.. له الفاعلية التامة المطلقة، [و]صاحب الفاعلية التامة المطلقة، التي لا تتخلف ولا يقوم أمامها شيء، يأتي منه ﷻ أنه حمل رسوله العظيم ﷺ ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

الكلمة تنحرف هل هي من الصراط المستقيم؟

الفعل يصل وبتيه، هل هو من الصراط المستقيم؟

النية تسوء، هل هي من الصراط المستقيم؟

الفكر ينحرف، هل هو من الصراط المستقيم؟

من كان محمولاً على الصراط المستقيم، لا يأتي منه فكر، ولا شعور، ولا قول، ولا فعل، ولا نية، إلا وهو مستقيم^(١).

"بهذه الشهادة من الله ﷻ، يبرأ كل حرف من حروف رسالة رسول الله ﷺ من النقص والخلل والاعوجاج، فهي الاستقامة التامة الفكرية والنفسية والعملية، وفي كل خطوة من خطواته ﷺ وفي كل حركة وسكون.

مرجعٌ مثل هذا عند أمةٍ، [هل] تنيه وتضل وتصفر وتهزل وتفقد الوزن، وتحاول أن

١. خطبة الجمعة (١٠) ١٥ ربيع الأول ١٤٢٢هـ - ٨-٦-٢٠٠١م..

تتعلق بشرق أو غرب، وأن تستعير الأطروحات المشوهة، وأن تتلفت من هنا وهناك، وتبحث عن منقذ؟!

[إنّ] منقذها ﷺ، عنده الأطروحة الإلهية التامة الشاملة، وحتى لو لم تكن على مستوى الأصل الواقعي لصورة تامة، فهي على مستوى الاجتهاد الذي يقرب من الواقع بقدر المستطاع، وليس أطروحة اجتهادية تحاول الاقتراب ما أمكن للجهد البشري المخلص المتفوق، أن يقرب بها من الواقع، كأطروحات تستعار من الشرق أو من الغرب، [و] يضعها الجهل والكفر والاستقلال والفحش العالمي.

وأمة ترجع إلى رسول الله ﷺ المحمول من ربه ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، [هل] تقتنع بيزيد قائداً؟

[هل] تقتنع بأشرار البيت المسمى بالأبيض قادة؟

[هل] تقتنع بأشرار روسيا والصين قادة؟

أمة قادها رسول الله ﷺ، [و] أمير المؤمنين، [و] الحسن، [و] تمتلك الإمام الحسين [و] الأئمة المعصومين (عليهم جميعاً صلوات الله)، [هل] يمكن أن يقع منها نظر على الأقزام والدونيين [و] تتخذ منهم قادة؟

عجابه لهذه الأمة، كيف نسيت عزتها وكرامتها.. إنّ هذا لفيه دليلٌ كافي، على أنّ الأمة ليست مع الإسلام ورسول الله ﷺ؛ لأنّ العين التي لا تزال منشدة إلى القمة.. إلى رسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، تترفع ولا تشتهي أن يقع منها نظر على الساقطين.

[إنّ] العين والأمة التي تعرف ما هو الإسلام، [و] من أين جاء، وكيف جاء، ومن هو الذي تكفل بحفظ القرآن عن الضياع، لا يمكن أن تفتش عن أوراق فيها الزور والكذب



والبهتان والجهل والروح الأخلاقية الساقطة المنسحقة، يكتبها شرقي أو غربي لتتعلق بأذيالهم^(١).

الأمر الرابع: العصمة نسبية ومطلقة

لكل إنسان عاقلٍ سويٍّ مقدار من العصمة في أمور الدنيا أو الدين، وإن كان يرتكب ما يراه ضرراً، أو ما يتراءى له أنه مصلحة وهو مفسدة في مساحة صغيرة أو كبيرة من حياته من جهة أخرى.

في العقل صيانة، وفي حبّ البقاء صيانة، وفي الحياء عصمة، وفي الاعتزاز بالشرف مانع.

النادر هو من يُقدم على تناول السمّ متعمداً انتحاراً، وهو يملك وعيه، وكذلك من يُلقي بنفسه في النار مُريداً، ويمنعه من ذلك عقله، وتعلّقه بالحياة، ولا تكاد تجد متعرباً من كلّ ملابسه في بيئة تستنكر ذلك، فحيأؤه واعتزازه بشرفه يحول بينه وبين أن يفعل، وكثيرون هم من لا يعيشون حالة صراعٍ نفسي في سلب يتيمٍ لقمةٍ يحتاجها وهم عنها أغنياء، والأمثلة في هذا المجال لا تكاد تُعدّ ولا تُحصى^(٢).

وهذه هي العصمة النسبية؛ فهي عصمة محدودة تثبت في مورد أو أكثر، وتكون معدومة في موارد أخرى.

فأصل العصمة، والعصمة بصورة إجمالية أمرٌ معاش في حياة الإنسان العادي بشكل واضح مكشوف، ولا غرابة عند أحدٍ فيها.

١. المصدر نفسه.

٢. فالعصمة منتشرة في الناس جميعاً بنسبة وأخرى. «منه حفظه الله»

وما يستغربه المستغربون ويستكثرونه هو العصمة الشاملة المستوفية لكل جوانب الحياة والفكر والشعور عند الشخص، وهي العصمة الثابتة للأنبياء وأئمة الدين المصطفين من الله ﷺ.

وأنت لو قارنت بين العصمة العملية لشخص وآخر من غير الأنبياء والأئمة عليهم السلام لوجدت الفرق واسعاً جداً في بعض الأمثلة؛ فشخص لا يكاد يستمسك أمام رغبة من الرغبات، ودافع من الدوافع، وشخص آخر قلّ ما تقع له على زلة أو خطأ.

وإذا وجدنا من هذه الفوارق الكثير، ووجدنا من بيننا صالحين يعسر العثور على زلة لهم فكيف نستكثر على من اختارهم الله ﷻ لأن يكونوا قادة البشرية للكمال الذي يرتضيه، وأن يبلغوا القمة في العصمة، وأن تكون عصمتهم شاملة؟!^(١).

الأمر الخامس: متعلق العصمة

"العصمة من حيث المتعلق، مرةً: تكون عن الخطأ والسهو العلمي أو العملي، وأخرى: تكون عن المقارفة العمدية للذنوب والتقصير.

وعصمة النبي عن الخطأ والسهو في تلقي الوحي وتبليغه وتطبيقه، ما لم يكن ذلك بمقدمة عمدية، ليس بيده كسائر الناس، فعدم تعرضه للشبهة في الوحي والخطأ والنسيان في كل موارد التبليغ والتطبيق والتشخيص لموضوعات الأحكام، لا دور له فيها، وهو محتاج إلى عصمة كاملة من الله سبحانه، تحميه من كل ذلك، بلا فعل من إرادته الشخصية،

١. خطبة الجمعة (٤٤٨) ١٧ جمادى الأول ١٤٣٢هـ - ٢٢ أبريل ٢٠١١م.



دون التَّهْيِؤِ لهذه العناية الإلهية الخاصة^(١).

أمَّا العصمة عن المعصية والتقصير، وإتيان القبيح عن عمد فشأنها غير ذلك، ولا جبر فيها، ولا تعني سلب الإرادة وتعطيلها^(٢).

الأمر السادس: عوامل العصمة

"كيف يكون الأنبياء معصومين؟ [فإنه] إذا لم يكن الأنبياء مجبورين على الطاعة، والتخلّي عن المعصية، ولم توجد فيهم العصمة قهراً فمن أين جاءتهم العصمة؟ وكيف توفروا عليها؟

[الجواب:]

أولاً: إنّ تحدُّر الأنبياء من وراثات كريمة، وأصول نَسَبِيَّة طاهرة، وإنَّ لهم مواهبهم الإلهية العالية من عقلية وروحية ونفسية، وتحوطهم حراسة الله منذ الصَّغر عن إفساد البيئة وعقدتها، وعن تلويثهم بأدرانها. ولكن لا يأتي ذلك بحيث يسلب أولئك الصَّفة إرادتهم ويسبب لها الشلل.

وكلُّ النَّاس لهم مواهب إلهية سخية تتفاوت فيما بينهم^(٣)، ولهم بيئاتهم الخاصة

١. ما على الرِّسُول ﷺ هو أن لا يفرط بحيث يمنع الفيض الإلهي من التنزل عليه، أمّا أن يتدخل في عصمة نفسه من السهو والخطأ فلا يملك. العاصم على المستوي العلمي وعن الجهل وعن الغفلة والسهو للنبي هو الله سبحانه وتعالى من غير تحمّل مسؤولية من قبل النبي في المسألة. «منه حفظه الله»

٢. خطبة الجمعة (٤٤٩) ٢٥ جمادى الأول ١٤٣٢هـ - ٢٩ أبريل ٢٠١١م.

٣. ليس منّا إلا وهو مغرق بالمواهب الإلهية. «منه حفظه الله»

٣- لا صاحب البيئة الفاسدة مسلوب الإرادة عن الخير، ومجبور على الشرّ، ولا صاحب البيئة الخيرة والمواهب الكبيرة مسلوب الإرادة عن الشرّ ومجبور على الخير. «منه حفظه الله»

الطبيعية والتربوية المفترقة من غير أن يسلب هذا التفاوت والافتراق إرادة الخير والشر من أحدهم^(١).

ثانياً: الناس من غير المعصومين عليه السلام مع إرادتهم لهم عصمة نسبية محدودة، مما يكشف عن عدم التلازم بين العصمة وانتفاء الإرادة^(٢)؛ فالممتنع عن تناول السم أو القذارة^(٣)، والذي لا يجد أي ميل لتناوله، ولا يدخل في تفكيره أن بفعل ذلك غير فاقد للإرادة، ولا يعاني من تعطلها.

وكذلك العشاق منهم لالتزام الصدق أو أداء الصلاة وفعل الخير لا يجد نفسه مجبوراً على ذلك^(٤).

ثالثاً: لا إرادة كإرادة الله قوةً وطلاقةً وكمالاً، ولا تنزهه كتنزهه عليه السلام عن كل ظلم وكل قبيح، والله عليه السلام يستحيل على عدله أن يدخل عبده المطيع النار لطاعته، مع كون إرادته

١. أنا وأنت وكل الناس معصومون نسبياً، هل نحن مريدون أم غير مريدين؟ نحن مريدون، ولكن ونحن في مورد عصمتنا النسبية معصومون، أنت معصوم ومريد، أنت معصوم في مورد معين ومريد في الوقت نفسه، ولا تنافي بين العصمة وبين الإرادة. «منه حفظه الله»

٢. من منكم ليس معصوماً عملياً وليس عقلياً عن تناول القذارة؟ كل الناس الأسوياء معصومون عن تناول القذارة، وعن تناول السم مثلاً. «منه حفظه الله»

٣. هناك أناس شديداً الشوق للصلاة، ويعانون جداً لو تأخروا على الصلاة بعد أول الوقت، لكنهم لا يجدون أنفسهم مجبورين على الصلاة. «منه حفظه الله»

٤. الله عليه السلام مريد، وهو بمقتضى كماله لا يصدر منه القبيح أبداً، وبمقتضى كماله مريد إرادة مطلقة. فتجتمع في الله عز وجل الإرادة والتنزه الكامل عن القبيح. «منه حفظه الله»



أكمل إرادة، فلا تنافي إطلاقاً بين التنزه عن القبيح، وبين الاحتفاظ بالإرادة^(١).

رابعاً: الأسباب التي تعصم غير الأنبياء والأئمة عليهم السلام بصورة جزئية محدودة، وعن بعض الأفعال الضارة والقبيحة هي نفسها التي تعصمهم عصمة شاملة ثابتة دائمة حيث إنهم يتوفرون على تلك الأسباب بصورة مركزة وثابتة وكاملة شاملة.

ومن أسباب العصمة ما يأتي:

١. العلم بضرر الفعل وخطورته البالغة وأثره الأليم، وانكشاف قبحه للنفس وحضور هذا العلم والانكشاف.

٢. حصول الحكمة للنفس في عدم تقديم الضرر على النافع.

٣. يقظة الروح، وشرف النفس التي يأبى لها الانحدار إلى ما انكشف قبحه لديها.

٤. الخوف من الهلاك والخسارة.

٥. الرجاء في ما هو أعظم مما يعطيه الفعل الذي قد تتحدث به النفس.

٦. الحب لمن نهى عن القبيح وإجلال

٧. سلامة الإرادة وقوتها.

وهذه الأمور كلها حاصلة للأنبياء والأئمة عليهم السلام في أكمل صورة وأرقاها، في مورد أمر الله ونهيه، فليس مثلهم أحد في التوفر الكامل الشامل على الحكمة، ويقظة الروح، وشرف النفس، والخوف من مخالفة الله، والرجاء في ثوابه، والحب لله ومعرفته وإجلاله،

١. أن علم علماً يقيناً بضرر الشيء وكان هذا العلم حاضراً في نفسه كان في ذلك عاصماً عن الارتكاب لما علم بضروره. «منه حفظه الله»

وسلامة الإرادة وقوتها، وعلوَّ الهمة وشدتها، مع دوام هذه الملكات، وعدم غيابها. وبهذا لا تنصرف الإرادة عندهم إلى غير الطاعة، ولا تترددُ فيها، ولا تهين عنها، ولا تتجه إلى المعصية ولا تُستهوى منها، ولا تميل إليها. وهذه العصمة التي لا تحتاج كما تبينُّ للقهر والإجبار^(١).

الأمر السابع: مرتكزات لدفع الشبهات حول العصمة

"الحديث حول بعض التساؤلات المتعلقة بتحلي الأنبياء بالعصمة العلمية والعملية المطلقة، إذ توجد شبهات في هذا المجال قد تثيرها بعض نصوص الكتاب العزيز، وبما قد يُحمل على أنَّ للأنبياء مواقف لا تنسجم مع هذه العصمة كما يثيرها بعض كلماتهم عليهم السلام في الدعاء والمناجاة.

وقبل الخوض في تفاصيل هذه الشبهات يحسن ذكر عدد من القضايا التي لها دخل في دفعها:

١. إنَّ كمال الإنسان بما يُحقِّقه لنفسه في حياته من القرب الإلهي، وهذا القرب يتحدد مداه بدرجة معرفة العبد بربه، وتمتُّعُه لعبادته، ومستوى هذه العبادة ودوامها وثباتها وشمولها^(٢).

٢. إنَّ الأنبياء كلَّهم معصومون، ولا متخلِّفَ منهم عن العصمة.

٣. إنهم يتفاوتون فضلاً وكمالاً، ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ

١. خطبة الجمعة (٤٤٩) ٢٥ جمادى الأول ١٤٣٢هـ - ٢٩ أبريل ٢٠١١م.

٢. ولا طريق آخر لكمال هذا الإنسان غير هذا الطريق. «منه حفظه الله»



كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ^(١)، والمعروف أنَّ لِأُولِي الْعِزِّ تَمِيزاً عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ فِي السَّبْقِ وَالْكَمَالِ.

وهذه القضايا الثلاث مجتمعة تفرض علينا أن نُسلِّمَ بأنَّ العصمة الثابتة للأنبياء لا تعني في كلِّ مصاديقها وانطباقاتها قِمة الكمال الذي يمكن أن يتحقَّق للإنسان، أو لا يمكن أن يتحقَّق^(٢). نعم العصمة في حدِّها الأدنى مانعة من مخالفة أيِّ تكليف من التكليف الإلهية المتوجِّهة إلى الشَّخص.

والنفس الفقيرة المتوجِّهة إلى الكمال لا يمكن أن تشعر في أيِّ درجة من درجاتها بأنَّها قد استوفته، ووصل بها سيرها إلى حدِّ الإشباع، والاستغناء، والاكْتفاء، ولذلك تظلُّ تُطالب نفسها بالمزيد، وتشعر بالتأنيب للتقصير والفتور، وإن سرَّها وآنسها ما صارت إليه من نصيب كبير من الكمال.

٤. يُفرِّق العلماء بين ما يسمُّونه بالأمر المولوي، وما يسمُّونه بالأمر الإرشادي؛ والأول هو الصَّادر من الأمر بما هو مولىٌ وسيِّدٌ للمأمور، وأنَّ له عليه طاعته في هذا الأمر، وعقوبته على مخالفته، أمَّا الثاني فهو الصَّادر لا من موقع المولوية والسيادة، وإنما لمجرد التوجيه، والإرشاد، والإشارة إلى ما يحمله الفعلُ أو عدمه من نتيجة مريحة أو متعبة ليكون المأمور على بصيرة.

ويُمثِّل للأمر الإرشادي بوصفه الطَّبيب للمريض التي تعني إرشاداً له لما ينفعه من

١. البقرة: ٢٥٣.

٢. الكمال النهائي للإنسان أبعد شأواً من العصمة، العصمة مستوى راق جداً، ولكنها ليست هي قِمة الكمال في كلِّ انطباقاتها ومصاديقها. «منه حفظه الله»

غير أن يمارس عليه حقاً سيادياً في امتثال الأمر^(١)، أو تكون له مثوبة على امتثاله، أو عقوبة على مخالفته.

٥. تختلف النفوس في درجة الإحساس بالذنب، والمعاناة من لوم الدّاخل، فالنفوس الميّنة لا تكاد تشعر بذنب وإن كُبر، والنفوس الراقية والشفّافة، والتي تغنى بالحياة الطّاهرة يؤذيها أيُّ تخلف عن الكمال وإن رضي عنها كلّ النّاس وأعجبوا بصاحبها، ويؤلمها أن يحدث منها ما تراه تقصيراً في الخير، أو تجاوزاً لا ينبغي، وإن لم يوافقها الآخرون على أن عندها تقصيراً، أو أن ما حدث منها فيه تجاوز.

شخص يديم شتم الناس من غير أن يشعر بذنب، وشخص يُلقي التحية على النّاس باحترام وهو يشعر بأنه ما وفّى، وشخص دأبه الغيبة من غير أن يشعر بخوزة ضمير، وآخر لا ينام له جفن لكلمة شذّت على لسانه يحتمل فيها شيئاً من أذى مؤمن.

٦. قد يطلق على مخالفة الأمر الإرشادي كأمر الطبيب عنوان المعصية من باب التوسّع والمجاز في اللغة. هذه قضايا إذا أخذنا بها صار من السهل علينا أن نفهم أن المواقف التي قد ينسب للأنبياء فيها ما يثير شبهة المخالفة للعصمة ليست مخالفة لها^{(٢)(٣)}.

١. ليس للطبيب حق سيادي مولوي على المريض يفرض عليه أن يطيع هذا الطبيب، ولكن تقديم الوصفة من الطبيب للمريض فيه إرشاد وتوجيه وبيان لمنفعة المريض المرتبطة بتطبيق هذه الوصفة. «منه حفظه الله»

٢. هذه قضايا ست يركز عليها مجتمعة دفع أي شبهة يمكن أن تُسجل على عصمة الأنبياء من خلال ما يستعرضه القرآن الكريم من بعض مواقفهم، أو من خلال بعض كلماتهم في الدعاء والمناجاة صلوات الله وسلامه عليهم. «منه حفظه الله»

٣. خطبة الجمعة (٤٥٠) ٢ جمادى الثاني ١٤٣٢هـ - ٦ مايو ٢٠١١م.



الأمر الثامن: شبهات ودفع

ولنأخذ بعض الأمثلة على ذلك:

الشبهة الأولى:

”أدعية المعصومين ومناجاتهم مليئة بالاعتراف بالذنب^(١)، وبالتوبة والاستغفار. ولكن بعد أن ثبت عقلاً وجوب العصمة للأنبياء والأئمة عليهم السلام لا بدّ من حمل هذا الاعتراف والذنب والاستغفار والتوبة على غير ما هو المتعارف من غيرهم عليهم السلام، ولو كان الإمام زين العابدين عليه السلام مثلاً في واقعه السلوكي على ظاهر ما في قوله عليه السلام: «وَأَمَاتَ قَلْبِي عَظِيمُ جُنَايَتِي»^(٢)، «أَسْأَلُكَ يَا غَافِرَ الذَّنْبِ الْكَبِيرِ، وَيَا جَابِرَ الْعَظْمِ الْكَسِيرِ، أَنْ تَهَبَ لِي مُوبِقَاتِ^(٣) الْجَرَائِرِ»^(٤)، وَتَسْتُرَ عَلَيَّ فَاضِحَاتِ السَّرَائِرِ»^(٥)، والذي يعطي أنه منغمس في

١. تجدهم يعترفون بين يدي الله بالذنب ويعلنون ذلك وكذلك هم الأئمة صلوات الله وسلامه عليهم.

«منه حفظه الله»

٢. الصحيفة السجادية، مناجاة التائبين. هذا الكلام يعني أننا أمام قلب ميت، والقلب الميت يفعل أي شيء. إذا مات القلب أقدم صاحبه على أكبر الكبائر من غير مبالاة، فهل الإمام زين العابدين عليه السلام

كذلك؟! حاشاه سلام الله عليه. «منه حفظه الله»

٣. الموبقات: المهلكات.

٤. الجرائر: الذنوب.

٥. المصدر السابق. وهذه الكلمات لو تمشينا مع ظاهرها لحكمنا بأن الإمام عليه السلام منغمس في الموبقات

والكبائر، في الذنوب العظيمة. «منه حفظه الله»

الموبقات والفضائح، لو كان عليه السلام كذلك، لما اتخذهُ الصالحين في وقته إماماً^(١).
هذا الاستغفار:

- محمول على أنه استغفارٌ عن لحظة من لحظات اللذة الدنيوية الحلال، قضاها عليه السلام مثلاً في غير توجهٍ كاملٍ لذكر الله سبحانه^(٢).

- ومحمول على عبادة مستحبةٍ أكثر منها، وصار يلوم نفسه على عدم الزيادة.
- ومحمول كذلك على حلال طيب تناوله ثم عاتب نفسه على عدم الكفِّ عنه، ترويضاً لها، وعلى عطاءٍ كثيرٍ أعطاه، ووجد نفسه أنه يستطيع أن يُعطي أكثر منه فاستغفر من ذلك^{(٣) (٤)}.

الشبهة الثانية:

١. الناس الأتقياء الورعون الخاشعون يتخذون من الإمام زين العابدين عليه السلام القائل بهذا القول إماماً، إذاً أنهم يكبرونه، لو كانوا أعظم منه، فكيف يتخذونه إماماً؟! فهذا يكشف تماماً عن أن هذا كلام لا بد أن يُحمل على غير ظاهره، وإلا لكان الإمام محلّ الإعابة والتعير، والناس ينفرون منه، ويقذفونه، بينما هم يتخذونه إماماً صلوات الله وسلامه عليه. «منه حفظه الله»

٢. أكل اللقمة الحلال وهو ملتفت إلى شكر الله تعالى، ولكن شغله شيء من لذة اللقمة مثلاً عن الخلوص الكامل للذكر في ذلك الوقت، هذا يعتبره ذنباً كبيراً جداً جداً، فيجد نفسه مضطراً للاستغفار من مثل هذا الموقف. «منه حفظه الله»

٣. يستغفر عن حسنات لأنه يستقلها، ونحن لا نستغفر عن سيئات عظيمة! يستغفر عن حسنات لأنه يستقلها، ونحن لا نستغفر عن سيئات عظيمة! «منه حفظه الله»

٤. خطبة الجمعة (٤٥٠) ٢ جمادى الثاني ١٤٣٢هـ - ٦ مايو ٢٠١١م.



في قوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾^(١). ويلاحظ أن عالم الجنة الذي كان يسكنه آدم وحواء لم يكن عالم تكليف^(٢)، ووسوسة الشيطان لم تتعلق بأمر تكليفي، إنما كان هناك إرشاد لآدم بأن الأكل من الشجرة سيفقده البقاء حيث هو، وسيؤول به إلى الحياة في الأرض حيث المشقة والبلاء والاختبار الكبير، وإن كانت حياته ﷺ ستنتهي بالكرامة بعد المعاناة المرة.

والمخالفة إنما كانت لهذا الأمر الإرشادي، والتي لا تعني التمرد على الله، والخروج على حق طاعته، والتنكر لوظيفة العبودية الثابتة له على خلقه^(٣).

الشبهة الثالثة:

في قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾^(٤)، فقد يقال: إن لأماني الشيطان مكاناً في قلوب الأنبياء بدلالة الآية.

والأمر ليس كذلك، وإنما تفسير العلماء للآية الكريمة بأن للشيطان دوراً تخريبياً لجهود الأنبياء الإرشادية والتربوية للناس، ومحاولات مضادة لهذه الجهود تتركز على من يخاطبهم الأنبياء، ويسعون لهدايتهم.

١. الأعراف: ٢٧. ظاهر الآية أن آدم ﷺ استجاب للشيطان بمخالفة الله ﷻ فاستحق بذلك أن يخرج من الجنة، وأن الأمر كان أمراً مولوياً صادراً من الله ﷻ بما هو رب، بما أنه تجب طاعة العبد له. «منه حفظه الله»

٢. لم تكن هناك شرائع، ولا تكليف بصلاة وصوم وحج وخمس وما إلى ذلك، فعالم الجنة لم يكن عالم تكليف، فلا يوجد هناك أصلاً حكم تكليفي مولوي تجب طاعته. «منه حفظه الله»

٣. خطبة الجمعة (٤٥٠) ٢ جمادى الثاني ١٤٣٢هـ - ٦ مايو ٢٠١١م.

٤. الحج: ٥٢.



فالشیطان یقف دائماً فی وجه أمانة الأنبیاء بهدایة الناس بالوسوسة للناس المخاطبین
ولیس بحرف قلب الأنبیاء عن الله سبحانه، وعن وظیفة تبلیغهم^(١).

١. خطبة الجمعة (٤٥٠) ٢ جمادى الثاني ١٤٣٢هـ - ٦ مايو ٢٠١١م.

الباب الثالث: معرفة الإمامة

الفصل الأول: غاية الإمامة لكمال الإنسان

الفصل الثاني: الإمامة أصل من أصول الإسلام

الفصل الثالث: الحاجة إلى الإمامة

الفصل الرابع: أدلة الإمامة

الفصل الخامس: شروط الإمامة

الفصل السادس: صفات الإمام

الفصل السابع: وظيفة الإمام الشرعي

الفصل الثامن: متطلبات وظيفة الإمامة

الفصل التاسع: انعكاسات الالتزام بخط الإمامة

المقدمة

"الإمامة في نظر فاطمة عليها السلام نظام الملة، وكون الإمامة نظام الملة، والملة من معانيها: أنها الدين" (١).

"إن قبول الإمامة للإمام الحق من أهل التطلع والطموح، صعب ومتحد للكثير من المستويات الإسلامية العالية، وفيه مرارة بالغة لم يطمئن قلبه بالإيمان، ويخشى الله ويعظمه، وهو من أبلغ الامتحان لإيمان المؤمن، وفيه منازلة شديدة لعقيدته، وتواضعه لربه، وحقيقة تسليمه إليه.

إنه الامتحان الذي طرد به إبليس من الرحمة، واستحق به اللعنة، وهو ما خسر به بنو إسرائيل قضية الإيمان في موقفهم من النبي الحق والرسول الصادق، والإمام الهادي محمد بن عبد الله عليه وآله.

وهو ما استشهد به الحسان عليهما السلام سماً وقتلاً، على يد الأمة بعدما سمعت من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله فيهما ما سمعت، من رفعة قدر، وعلو شأن، ووجوب طاعة ومودة، وحرمة أن يتقدم عليهما أو أن يتأخر عنهما، ولزوم متابعة ومحاوله لحاق.

ولامتحان الإمامة للناس فقدت الشهادات الغفيرة من الكتاب العزيز، والسنة المطهرة في شأن علي عليه السلام ولزوم إمامته قوة تأثيرها الهائل في نفوس المسلمين، وقوبلت بالاجتهاد.

وها هم المسلمون بكل مذاهبهم، ومنهم من تؤله ما تعاملت به الأمة مع إمامة أهل البيت عليهم السلام، تكثر بينهم الصراعات، ويستهان بالحرمان، ويخوضون في دماء بعضهم البعض خوفاً، لكون امتحان الإمامة يكبر نفوسهم، ولا يتحملون شدته، فيسقطون في

١. خطبة الجمعة (٢٣) ١٩ جمادى الثاني ١٤٢٢هـ - ٧-٩-٢٠٠١م..

الخطيئة أمام تحديه.

وما أكثر المنافسات المتلوّنة بألف لون في هذا المجال، ومبعثها واحد، وهو ثقل الحق في هذه المسألة الامتحان^(١).

"كان الناس ولا زالوا يقبلون بشيء من الدين لا يمس مصالحهم ومواقعهم، فإذا ما اقترب من ملامسة هذه الدائرة أنكروه، أو تأولوه وزوروه وتحايّلوا عليه احتفاظاً بالمصالح، وهي موهومة مذمومة، وحرصاً على المواقع وهي ذاهبة مشوّمة"^(٢).

"تتعلم من آية: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾^(٣)، أن الرأي السديد، قد يخفى على الناس تأمراً على الحق، وخيانة للحق، وقد يخفى هذا الرأي شفقة على الخلق، وإبقاء على شيء من الحق، ولقد سكت أئمة الهدى من أهل بيت العصمة عليهم السلام عن بعض الحق من المنطلق الثاني، وكان تدرج الأحكام في الإسلام من هذا المنطلق نفسه، وهذا داخل في مخاطبة الناس بقدر عقولهم"^(٤).

١. خطبة الجمعة (٣٧٦) ١٧ رجب ١٤٣٠هـ - ١٠ يوليو ٢٠٠٩م.

٢. خطبة الجمعة (٤٩) ٢٣ ذو الحجة ١٤٢٢هـ - ٨-٣-٢٠٠٢م

٣. المائدة: ٦٧.

٤. خطبة الجمعة (٤٩) ٢٣ ذو الحجة ١٤٢٢هـ - ٨-٣-٢٠٠٢م.

الفصل الأول: غايةُ الإمامةِ كمال الإنسانِ

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١)، وإنَّ نعمةَ الوجود والحياة، نعمة كبرى، ولكن لها غاية، وغايتها أن يبلغ الوجود حدَّ كماله، وكمال الإنسان في كمال روحه، الذي يتمُّ على طريق عبوديته وعبادته لله سبحانه في كلِّ مساحات حياته، الشيء الذي لا يتمُّ للناس في ظلِّ أوضاع طاغوتية تصرف عن الله.

والطاغوتية البديل العمليَّ الضروري، عندما يغيب خطَّ الإمامة الذي يركز الولاء لله، فنعمة الوجود والحياة والدين، يحتاج تمامها إلى إمامة من تصميم يد الإبداع الإلهي، وقد أتمَّت هذه النعمة بذلك التصميم، وبما بلغ به رسول الله ﷺ في شأن الولاية، ومن بعد ذلك تبقى المسؤولية مسئولية العباد أنفسهم^(٢).

١. المائدة: ٣.

٢. خطبة الجمعة (٤٩) ٢٣ ذو الحجة ١٤٢٢هـ - ٨-٣-٢٠٠٢ م.

الفصل الثاني: الإمامة أصل من أصول الإسلام

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١)، و"الإسلام الذي ارتضاه الله ديناً لعباده ممثلاً لصورة صادقة من عطاء علمه وحكمته وعدله، هو إسلام تكون الإمامة في تصميمها الإلهي أصلاً من أصوله، وركيزة من ركائزه، وهو الموازي في مصطلح الإمامية للإيمان.

وهذا التفريق بين مصطلحي الإيمان والإسلام واقع موقعه، حتى لا يتوهم خروج من أدى الشهادتين عن الدائرة العامة للإسلام، والتي تكفل بها عدة حقوق للمسلم، وتحقق بها الدماء والأموال والأعراض، ويكون على أساسها التناكح والتوارث، هذا من جهة، وحتى لا يضيع معنى الإسلام الأكمل، والصورة الأصل التي تحتفظ بالإشعاع التام لما كان عليه وحي الرسالة.

وعليه لو جاءت النتائج قاصرة ومضطربة، وحصلت فجوات بل انتكاسات وكوارث وإرباكات في غياب أصل الإمامة، فذلك كله شيء مرتقب، ولا يحمل مسئوليته الإسلام^(٢).

١. المائدة: ٣.

٢. خطبة الجمعة (٤٩) ٢٣ ذو الحجة ١٤٢٢هـ - ٨-٣-٢٠٠٢م.

الفصل الثالث: الحاجة إلى الإمامة

"أمر الإمامة، هو أمر صعب مستصعب حقاً. ذلك: أن وزن الإمامة ثقيل، ومسؤولياتها ضخمة، وأثرها خطير؛ فإنَّ الإسلام بالإمامة، وحيث لا إمامة بحق لا إسلام بحق"^(١).
و"ما من موضوع يمسُّ حياة الإنسان ويؤثّر على واقعها، وعلى غايتها وعاقبتها إلّا ونال الاهتمام من الإسلام.

وقد امتلكت موضوعات أربعة الاهتمام الأكبر منه، رابعها: موضوع الإمامة، وأولها التوحيد الذي لا ينفصل عنه العدل الإلهي المطلق، وذلك نظراً لشدّتها في الأهمية.
وقد تركّزت أحاديث متواترة في موضوع معرفة الإمام، وأهمية الإمامة، وعدّ الكثير منها: «مَنْ مَاتَ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُ إِمَامَ زَمَانِهِ، -أَنَّهُ- مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^(٢). ويُطالعك بهذه الأحاديث المتواترة، كلّ من المصادر السنية والشيعية، حتّى لا تدع لك شكّاً في أهمية المسألة، أهمية بالغة، واهتمام الإسلام فيها، الاهتمام الذي لا يطرقه شكٌّ على الإطلاق"^(٣).

"ويتساءل المسلم عن منشأ هذا الاهتمام العظيم من الإسلام بأمر الإمامة؟
وبيانُ حاجة الإسلام، والأمة الإسلامية إلى الإمامة، ووظائفها، يُنهي التساؤل من هذا

١. خطبة الجمعة (٣٧٦) ١٧ رجب ١٤٣٠هـ - ١٠ يوليو ٢٠٠٩م.

٢. الفصول المختارة للمفيد: ٣٢٥. روي عن النبي ﷺ.

٣. خطبة الجمعة (٥٨٥) ١٥ ربيع الأول ١٤٣٥هـ - ١٧ يناير ٢٠١٤م.

النوع، لما في ذلك من إجابة شافية لمن أراد الوصول إلى الحق، وكان على استعداد للإذعان له، والتسليم له^(١).

الحاجة الأولى: ضمان بقاء الإسلام

"نعرف أن الإسلام قد جاء ليبقى النور الهادي الذي يقود حركة الحياة على وجه الأرض، ما دام للإنسان حركة على ظهرها، وبحيث لا يخالطه ظلام، ولا يتعرض إلى تشويه وانحراف.

وبقاء الإسلام كذلك يحتاج إلى ضمان، وضمان ذلك فهم مأمون معصوم للإسلام، لا ينقطع بانقطاع الوحي، ومرجعية إسلامية واحدة، لا يشتبه عليها الإسلام في شيء، قاطعة لكل حجة، ومنهية كل نزاع، ومانعة من التعددية في الرأي والقول الحجة، وموحدة لفهم الدين الذي على المسلم أن يتعبد به، ويتخذ حجة بينه وبين ربه.

ولا ضمان كذلك إلا بوجود الإمامة بعد الرسول الخاتم ﷺ واستمرارها، ووحدة الإمام في كل عصر من عصور الأمة، وجيل من أجيالها^(٢).

الحاجة الثانية: إتمام الرسالة

"كمال الدين بالإمامة التي أرادها الإسلام ورضيها، وبإلغاء الإمامة يدخل النقص على الدين، فإن كان الإلغاء نظرياً وجد الدين ناقصاً على المستوى النظري، ويتبعه النقص في مقام العمل، وإن كان الإلغاء عملياً، لم يغن الكمال النظري في المقام العملي، وعم الدين النقص من الناحية العملية في بنيته كلها، وحتى الأساس العقيدي منه، وقاعدته التي يقوم

١. المصدر نفسه.

٢. خطبة الجمعة (٥٨٥) ١٥ ربيع الأول ١٤٣٥ هـ - ١٧ يناير ٢٠١٤ م.



عليها.

إن علاقة الإمامة بعناصر الدين الأخرى، أصولاً وفروعاً، ليست علاقة عددية محضة، كعلاقة تسعة وواحد مضاف إلى التسعة، بحيث إذا سقط الواحد سقط بنفسه وبقيت التسعة يؤدي كل واحد منها دوره الكامل، ويكون الفراغ الذي يتركه الواحد المضاف بسقوطه فراغاً جزئياً.

إنَّ علاقة الإمامة ببقية العناصر في الدين من أصول وفروع، هي علاقة العنصر المعين بسائر عناصر المركب الكيميائي، الذي يفقده غياب ذلك العنصر كثيراً من أثره، والنتائج المرجوة منه، ويلحقه نتائج متعبة كذلك، ويظهره غير متناسق ومتوافق، وإلا فقل لي كيف توفّق بين قاعدة التوحيد الحقّ، وبين أن [تبنى] عليها ولاية معاوية ويزيد، أو ولاية مرشح الأغلبية إذا جاء شخصية لا توافق شرع الله، ولا تلتقي معه على خط؟!

أدين منسجم هذا، أو دين متهافت؟

أتوحيد يؤسّس للطاغوتية ويحتضنها!!

إنَّ النقص الداخل على الدين بانحراف خط الإمامة عن مطروحها الإلهي، يمكن لنا أن نأخذ صورة عن عمقه وسعته وتأثيره الكبير، من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(١)، قد يصل الأثر إلى حدّ أن عدم تبليغ أمر الإمامة، منزل منزلة عدم تبليغ الرسالة الإلهية أصلاً، فالأثر على هذا عميق وشامل ودائم ومضر بالإسلام

كله، فانظروا إلى ذيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(١)، وهو ذيل جاء في طول ما يقرر إبلاغ الإمامة بالتفسير الذي تذهب إليه مدرسة أهل البيت عليهم السلام، فمن كابرها وقع في درجة من الكفر العملي، وانثلّم إيمانه وإن بقي إسلامه^(٢).

الحاجة الثالثة: قيادة حركة الحياة

"نعرف أن الإسلام لم يأت ليفهم ويكتفى بفهمه، وإنما جاء -كما تقدم- ليقود فهمه حركة الحياة، ويقيم نظامه العادل الهادي، الذي تستقيم به الأوضاع في الأرض، وتسلك المسيرة الإنسانية طريقها صاعدة إلى أعلى درجة ممكنة لها من الكمال في اتجاه الخالق العظيم.

وهذا ما يحتاج إلى الإمامة والإمام، مما يحول إسلام القرآن والسنة في فهمهما الواقعي إلى واقع شاخص، وحركة حيّة، وأوضاع مشهودة، وإنسان عابد راقٍ عظيم^(٣)"^(٤).

الحاجة الرابعة: فتح بركات السماء

"وإذا سألت عن الإيمان المثري للحياة، المنقذ لها، والذي تنزل به البركات في حياة عموم الناس، وتنكشف الغمم، وهو ما عنته الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٥)، لوجدته [أي: الإسلام المثري] عند التأمل: إيماناً بإسلام من قرآن وإمام لا

١. المائة: ٦٧.

٢. خطبة الجمعة (٤٩) ٢٣ ذو الحجة ١٤٢٢هـ - ٨-٣-٢٠٠٢م.

٣. وتكفي هاتان الوظيفتان عن حكم ومهمات وضرورات أخرى ثابتة للإمامة. «منه حفظه الله»

٤. خطبة الجمعة (٥٨٥) ١٥ ربيع الأول ١٤٣٥هـ - ١٧ يناير ٢٠١٤م.

٥. الأعراف: ٩٦.



يفترقان.

[وإنّ] الإيمان الذي تنزل به البركات أيّ إيمان؟!]

[الجواب: هو] إيمان بإسلام من قرآن وإمام لا يفترقان، ولا يتكاذبان، قرآن معصوم، وإمام معصوم، يتمّ على يده تطبيق المنهج الإلهي، المنقذ المثيري، بكلّ كفاءة ودقة وأمانة. ففتحُ البركات، لا يأتي جائزة غيبية لإيمان بارد ساكن بلا حيوية أو حركة، ولشيء اسمه الإسلام من دون أن تتحرك الحياة في خطّه، ولا يأتي نتيجة حركة مضطربة متذبذبة، وإن كانت باسم الإسلام والإيمان.

فتحُ البركات وتدفقها ليس أمراً غيبياً محضاً مفصّلاً عن جهد الإنسان وسعيه، وعلمه ووعيه، وحكمته ورشده، واستقامته ونزاهته، وتطبيقه للأطروحة العادلة الناجحة في حياته، ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(١)، وزارع الشوك لا يجني العنب، والقاعد لا يساوي بالقائم، والمجد غير الكسل، والاستقامة غير الانحراف.

نعم إن الله يضاعف أجر من أحسن عملاً، وينصر من نصره، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾^(٢).

إن قيادة الواقع وحركة الإنسانية في الأرض على خط الله، وفي ضوء الإسلام، وطبقاً لقرآنه وسنة نبيه ﷺ وشريعته، هو المنتج بإذن الله لفتح البركات، وإثراء الأرض بالخير والأمن والهدى والنور والصلاح.

وهذه القيادة في أتمّها هي قيادة إمام لا يفارق الكتاب، لا علماً ولا عملاً، وما يوم

١. النجم: ٣٩.

٢. الطلاق: ٢.

القائم ﷺ الذي يملأ الأرض ثراء وخيراً، وقسطاً وعدلاً إلا يوم القيامة التي لا تفارق الكتاب.

ماذا سيحدث في حياة المسلمين، يوم ظهور الإمام عليّ عليه السلام؟

[الجواب: سيحدث: القائد القرآني، الصدق، الحق، الذي لا يفارق القرآن لحظة^(١)].

الحاجة الخامسة: تحرير العالم من أزماته

”وكما أن أزمات الأمة والعالم، راجعة في أصلها إلى الانفصال عن هذا الخط، فكذلك لا يتم اعتناق العالم من أسر أزماته إلا بالعودة إليه.

وما كانت الأرض تشهد ما تشهده اليوم من حكم الهوى والفساد والفوضى والاضطراب، لو حفظت وصية رسول الله ﷺ في وليّ الله، والخليفة الحق بعد الرسول ﷺ كما في موازين الكتاب، وضوابط السنة.

وعندما يتحقق النصر لمهديّ الأمة، ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً، بعدما ملئت ظلماً وجوراً، وتشرق الأرض بضياء الإسلام، ونور ربّها على يديه الكريمتين، بفضل الله العظيم، سيتبين الناس مدى ما جنّوه على أنفسهم، وما ضيعوه من هدى، وما خسروا من فلاح بتعطيلهم دور بيت النبوة والرسالة والإمامة كل هذا الوقت الطويل.

وعندئذ ستتحقق الدنيا أن الإسلام بلا حدود أرضية، وأن ولايته الحقيقيين، لا شرقيون ولا غربيون، ولا مكّيون، ولا مدنيون همّاً وأفقاً وسعة ورحمة، وإنما هم للعالم كله، والإنسان على إطلاقه، لإنقاذه، سلامته، هدايته، رقيه، دنياه وآخرته، وأنهم أولى الناس بالناس، وأشدّهم رافة بهم، وحرصاً على أن يبلغوا بهم الكمال، وتتحقق لهم

١. خطبة الجمعة (٣٧٦) ١٧ رجب ١٤٣٠هـ - ١٠ يوليو ٢٠٠٩م.



السعادة؛ كانوا من بيض أو سود، من شرق أو غرب"^(١).

"وإننا لنرى أن الأمة تظلم نفسها، وتظلم كل الأمم حين تتخلى عن سفينة النجاة، وأمناء الله في الأرض، وخزنة علم الكتاب، وورثة علم النبيين، ومصابيح الدجى، وأئمة الهدى من آل محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

وستبقى الأمة تعاني من خطئها الكبير، وتتلقى الهزيمة بعد الهزيمة، وتحلُّ بدارها الكارثة تلو الكارثة، وستبقى البشرية معها معذبة يدير أمرها الجاهلون، ويستبدُّ بمقدراتها، ويعبت بكرامتها الطغاة الجبابرة المستكبرون في الأرض حتى تفيء إلى أمر الله، وترجع في أمرها إلى آل الله وهم عبيده المقربون منه تعالى من قربي رسول الله ﷺ.

ولن تقترب هذه الأمة من هداها ورشدها وأمانها وعزتها وكرامتها إلا بمقدار ما تقترب في رضى وتسليم من حملة علم الكتاب، وورثة النبيين في هداهم وخطهم وطرحهم ومدرستهم"^(٢).

"هنيئاً لكم أهل الولاية بيوم الولاية، يوم الإسلام في كماله وتماه، وهو يومٌ لو أخذ المسلمون بهداه لنجوا ونجت معهم كل الأمم، ولكن تخلَّوا عنه فسقطوا وسقطت معهم كل الأمم، حتى عادوا من أكثر الأمم تخلفاً.

عادت أمة الإسلام بعد أن شطَّ بها المدى عن إسلامها العظيم إلى أن تكون تحت إمرة بوش، وأن تكون نصرة دول كثيرة من بين دولها لبوش على الإسلام والمسلمين، خزي ليس بعده خزي، وعار ليس فوقه عار أن تخرج كلمات تنتصر لبوش على دولة وأخرى

١. خطبة الجمعة (٩٩) ١٩ ذي الحجة ١٤٢٣هـ - ٢١-٢-٢٠٠٣م.

٢. خطبة الجمعة (١٤١) ٢٢ ذو الحجة ١٤٢٤هـ - ١٣ فبراير ٢٠٠٤م.



من الدول الإسلامية، وهذا ما تطالعنا به الصحف يوماً بعد يوم^(١).

١. خطبة الجمعة (١٨٤) ١٧ ذو الحجة ١٤٢٥هـ - ٢٨ يناير ٢٠٠٥م.

الفصل الرابع: أدلة الإمامة

الولاية "ثابتة لرسول الله ﷺ، ووصيه عليّ ﷺ بأمر من الله، وموضوعها العصمة في العلم والعمل والأكمليّة والأفضليّة المطلقة في الناس، بل كما قد أثبتتها الوصية من الرسول ﷺ لأمير المؤمنين، أثبتتها للأئمة المعصومين من بعده (عليهم جميعاً السلام)"^(١)، وهناك العديد من الأدلة والمؤيدات التي ذكرت لإثبات الولاية والإمامة:

أولاً: أن الأئمة عليهم السلام مصداق ورثة الكتاب

"تأملوا في قوله تعالى مخاطباً نبيه الكريم ﷺ: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإذنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾"^(٢) فمن هم المصطفون بعد خاتم الرسل ﷺ الذين أورثوا الكتاب، وكانوا أهلاً لتحمل ثقل أمانته، علماً وعملاً وتبليغاً وتبيناً دقيقاً وتطبيقاً صائباً، على صعيد الأمة، مهما اتسعت رقعتها وامتدت في الناس؟

وأيّن تضع الأمة علياً وبنيه عليهم السلام؟

أفي الظالمين أنفسهم، أم في المقتصدين الذين هم على استقامة، وفي سواء الطريق، لكنهم مسبوqون من فئة أخرى من المؤمنين، بصورة واضحة تفرض عليهم أن يكونوا

١. خطبة الجمعة (٩٩) ١٩ ذي الحجة ١٤٢٣هـ - ٢١-٢-٢٠٠٣م.

٢. فاطر: ٣١-٣٢.



مقتدين بتلك الفئة، لا أن يقدموا أنفسهم للأمة بكل مستوياتها أئمةً وقدوة؟

الأئمة نضعهم في الفئة الأولى، أو الفئة الثانية، ليكون غيرهم في الفئة الثالثة، فئة السابقين بالخيرات؟

إذا كان كذلك -يعني إذا وضعنا الأئمة عليهم السلام في الفئة الأولى أو في الفئة الثانية، وجعلنا الفئة الثالثة السابقة للخيرات غيرهم -، فمن هم السابقون بالخيرات في الأمة، والذين كان على عليٍّ والحسينِ والسَّجاد والباقر والصادق وباقي الأئمة الاثنى عشر عليهم السلام أن يقتدوا بهم، ويأخذوا منهم علم الكتاب ويقدموهم ولا يتقدموهم؟

أيدخل في تلك الفئة السابقة بالخيرات، الوارثة للكتاب، التي على أهل البيت عليهم السلام أن يُدْعُوا لها في تلقي علم الكتاب وأسراره، معاويةٌ في قبال عليٍّ والحسن عليهما السلام؟!

ويزيد في قبال الحسين عليه السلام؟!

ثمَّ الخلفاء من بني أمية، وبني العباس الذين عاصروا الباقر والصادق وبقية أهل بيت الرسالة عليهم السلام؟!

وهل دخل الخلفاء الثلاثة في منافسةٍ مع عليٍّ عليه السلام، في علم القرآن، وقضائه، وأحكام الشريعة وغوامضها؟

المعروف من الخلفاء أنهم يسألون علياً عليه السلام، ولا ينافسونه في علم الكتاب.

وهل قدّم أحد نفسه للأئمة من دون أهل البيت عليهم السلام -ولو على مستوى الدعوى - باعتباره مرجعية نهائية بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله في علم القرآن، وحجة على غيره بلا منازع؟ [إنَّ عبد الله بن عباس مفسرٌ كبير، وأكبرُ المفسرين كان يعارض الأئمة عليهم السلام أو يتتلمذ على أيديهم؟!]



وهل قدم أحدٌ أحدًا من الأمة جمعاء، باعتباره صاحب هذا الموقع، وبما هو وارث للكتاب، وراثته كفاءة علمية وعملية وأمانة والتزام؟

[إننا] لا نعرف أحدًا من الأمة كلها، قديمها وحديثها، بن فيها من خلفاء، وعلماء، ومفسرين لهم شأنٌ معروف، ومنزلة علمية من غير أهل البيت عليهم السلام، الذين صرحوا بهذه المنزلة لأنفسهم، وتمّ النقل المتواتر عنهم بذلك، وشهدت مواقفهم العلمية والعملية بصدقه وواقعته، قد ادعى منزلة الوراثة والاصطفاء الإلهي التي نصت عليها الآية الكريمة.

وبعد خلو الأمة من دعوى الاصطفاء والوراثة لعلم الكتاب لأشخاص بعينهم، تكون الآية الكريمة لا مصداق لها كل هذه المدة الطويلة من التاريخ لو لم يأت ما يثبت، أن أهل البيت عليهم السلام هم أولئك النفر.

ولا يتصور أن لا يأتي ورثة الكتاب إلا بعد القرون المتطاولة، إذا أين حاجة كل هذه القرون إلى علم الكتاب وحراسته؟

ولا يصح أن يقال بأن الأمة، بمجموعها هي واثرة الكتاب على مستوى فهم مراميها وأسراره وحفظ أحكامه وإقامتها، وإن لم يكن نفرٌ بعينه منها متوافراً على هذا الوصف، لأنّ ضمّ الجاهل إلى الجاهل، وإن بلغ العدد بذلك الملايين لا ينتج أمة عالمة.

ولا يصح كذلك بأن الأمة بكل واحدٍ من أفرادها، أو من علمائها على الأقل، واثرة للكتاب بحق، إذ أن هذا أمرٌ يكذبه الوجدان، ويرده التهافت في أقوال العلماء والمفسرين.

ولنتذكر أن محمداً وآله (صلوات الله عليهم أجمعين) من آل إبراهيم عليه السلام وقال قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١)، ومن

١. آل عمران: ٣٣.

المقطوع به أن الرسول ﷺ من هذه الذرية المباركة المصطفاة، مما يلقي ضوءاً على المعنى بالمصطفين في هذه الأمة بعد رسوله الكريم ﷺ، خاصة وأن هذا الاصطفاء لم يثبت لذرية أخرى بعد نبي الإسلام العظيم^(١).

ثانياً: اصطفاء الإمامة من الله تعالى

"وكثيراً ما عاندت الأمم المعصوم، وإن تجلّت لهم آثار عصمته^(٢)، وجاء من الآيات أو الكرامات ما يكفي لتأييده، فكيف يُترك تعيينه للناس على ما هم عليه من الجهل والعناد؟!

لذلك لم يترك أمر الإمامة للناس، وإنما كان الاصطفاء للإمام من الله، وتعيينه من قبله، [قال تعالى]: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^(٣).

ومن غير الله يعلم بأنهم صبروا حقاً، الصبر الذي يريده الله، وأنهم كانوا بآيات الله يوقنون، حتى يتأتى له أن يختارهم للإمامة؟!

وكم هم الذين يتغلبون على هواهم وطموحهم من النخب فلا يزاحمون من علموا بعصمته، ويسلمون إليه؟!

[وقال تعالى]: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ

١. خطبة الجمعة (١٤١) ٢٢ ذو الحجة ١٤٢٤هـ - ١٣ فبراير ٢٠٠٤م.

٢. هكذا كان شأن الأمم مع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهم معصومون. «منه حفظه الله»

٣. السجدة: ٢٤.



الصَّلَاةَ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿١﴾.

ومن يعلم من دون الله أنهم كانوا عابدين حقاً وصدقاً له سبحانه^(٢)، وموحدين له، ولم يشركوا في عبادته طاغوتاً ولا هوى حتى يختارهم أدلاء على الله وقادة الناس إليه، ويبقيهم على ما اختارهم له؟!

[وقال تعالى]: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾^(٣).

ومن الذي يعلم مدى ابتلاء إبراهيم عليه السلام بتلك الكلمات^(٤)، والمواقف الصعبة، والمحن الشداد، وأنه الابتلاء الذي يعني تجاوزه بنجاح التأهل الحق للإمامة؟!^(٥).

ومن يعلم إتمام إبراهيم عليه السلام لتلك الكلمات، كما يرضى الله سبحانه، غير ربه العليم بما يكنه صدره، وتسره نفسه، وتخترن جوانحه؟!

والإمامة لا تكون لمن عدل بعد ظلمه كما يفهم من سؤال إبراهيم عليه السلام، وهو المعصوم

١. الأنبياء: ٧٣.

٢. ليست عبادة حركات الجوارح، عبادة الداخل، عبادة القلب، عبادة الجوانح، من يعلمها؟ تراني أصلي، تراني أصوم، وأنا أعبد الله بهذه الصلاة عبادة ظاهرية، أما أن تتيقن داخلياً أنني أعبد الله بهذه الصلاة فمن أين لك؟ «منه حفظه الله»

٣. البقرة: ١٢٤.

٤. ووزن ذلك الابتلاء. «منه حفظه الله»

٥. نجح إبراهيم عليه السلام في ذلك الامتحان، لكن ذلك الامتحان مؤهل بالكامل للإمامة أو لا، من يعلم ذلك؟ من يعرف وزن الإمامة ووزن ذلك الامتحان ليعرف أن تحقق النجاح في ذلك الامتحان بوزنه الخاص يؤهل لتحمل مسؤولية الإمامة بوزنها الكبير؟ «منه حفظه الله»

الذي لا يمكن أن يسأل الإمامة لمن بقي ظالماً، أو استبدل عن العدل بالظلم، ولا يتجه السؤال منه إلا لإمامة من كان عدلاً على الإطلاق، أو عدل عن الظلم للعدل وبقي عليه، والجواب في الآية الكريمة، ينفي الإمامة عن الثاني، فلا يبقى لها إلا الأول، وهو العدل، النقي من الظلم على الإطلاق^(١). ثم إنَّ الشُّرك من أكبر الظلم، والنفس البريئة من كلِّ شائبة شرك، ليست إلا نفس المعصوم (على المعصومين كلهم السلام)^(٢).

ثالثاً: نصوص كثيرة

”أضف إلى آية الاصطفاء: آية التطهير^(٣)، منضمة إلى مورد نزولها وتطبيقها المتكرر من المصطفى ﷺ، وأمثال آية المباهلة^(٤)، والمودة^(٥)، ثم حديث الثقلين^(٦)، والأحاديث

١. ومن يعلم ذلك النقي العدل على الإطلاق في كلِّ حياته ووجوده غير الله سبحانه؟. «منه حفظه الله»
٢. خطبة الجمعة (٤٣٠) ١٩ ذو الحجة ١٤٣١هـ - ٢٦ نوفمبر ٢٠١٠م.
٣. أي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، الأحزاب: ٣٣.
٤. أي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ آل عمران: ٦١.
٥. أي قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، الشورى: ٢٣.
٦. مثل ما ورد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ، كِتَابَ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعَثَرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، وَأَنْهَمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ» مسند أحمد لابن حنبل: ١٤ / ٣.

الكثير، أمثال: حديث المنزلة^(١)، وحديث الدار^(٢)، وحديث الكتف والدواة^(٣)؛

١. مثل ما ورد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي: «أَنْتَ مِنْ بَمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي» مسند أحمد لابن حنبل: ٣ / ٣٢.

٢. مثل ما ورد عن عبد الله بن عباس، عن علي بن أبي طالب (عليه السلام)، قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ): ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤) «دَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فَقَالَ لِي: يَا عَلِيُّ، إِنَّ اللَّهَ (تَعَالَى) أَمَرَنِي أَنْ أَنْذِرَ عَشِيرَتِي الْأَقْرَبِينَ، قَالَ: فَضَمْتُ بِذَلِكَ ذُرْعًا، وَعَرَفْتُ أَنِّي مَتَى أَنْادِيَهُمْ بِهَذَا الْأَمْرِ، أَرَى مِنْهُمْ مَا أَكْرَهُ، فَصُمْتُ (عَلَى ذَلِكَ) حَتَّى جَاءَ (نِي) جَبْرِئِيلُ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا أَمَرْتُ بِهِ يُعَذِّبُكَ رَبُّكَ ﴿وَكَانَ﴾ فَاصْنَعْ لَنَا يَا عَلِيُّ صَاعًا مِنْ طَعَامٍ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِ رَجُلَ شَاةٍ، وَأَمْلَأْ لَنَا عَسًا مِنْ لَبَنٍ، ثُمَّ أَجْمَعْ لِي بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلَبِ حَتَّى أَكَلِمَهُمْ، وَأَبْلِغَهُمْ مَا أَمَرْتُ بِهِ. فَفَعَلْتُ مَا أَمَرْتُ بِهِ، ثُمَّ دَعَوْتُهُمْ لَهُ، وَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، يَزِيدُونَ رَجُلًا أَوْ يَنْقُصُونَهُ، فِيهِمْ أَعْمَامُهُ: أَبُو طَالِبٍ، وَحَمْزَةُ، وَالْعَبَّاسُ، وَأَبُو لَهَبٍ. فَلَمَّا اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ (ﷺ)، دَعَانِي بِالطَّعَامِ الَّذِي صَنَعْتُ لَهُمْ، فَجِئْتُ بِهِ، فَلَمَّا وَضَعْتُهُ تَنَاوَلَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) حَذِيَّةً (جَذْمَةً) مِنَ اللَّحْمِ، فَشَقَّهَا بِأَسْنَانِهِ، ثُمَّ أَلْقَاهَا فِي نَوَاحِي الصَّحْفَةِ، (ثُمَّ) قَالَ: خُذُوا بِسْمِ اللَّهِ، فَأَكَلِ الْقَوْمُ حَتَّى (صَدَرُوا) مَا لَهُمْ بِشَيْءٍ (مِنَ الطَّعَامِ) حَاجَةً، وَمَا أَرَى إِلَّا مَوَاضِعَ أَيْدِيهِمْ، وَأَيْمُ اللَّهِ الَّذِي نَفْسُ عَلِيٍّ بِيَدِهِ، إِنْ كَانَ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ لَيَأْكُلُ مَا قَدِمْتُ لَجَمِيعِهِمْ، ثُمَّ قَالَ: اسْقِ النَّاسَ، فَجِئْتُهُمْ بِذَلِكَ الْعَسِّ، فَشَرَبُوا حَتَّى رَوَوْا مِنْهُ جَمِيعًا، وَأَيْمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ لَيَشْرَبُ مِثْلَهُ، فَلَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) أَنْ يَكَلِمَهُمْ، بَدَرَهُ أَبُو لَهَبٍ إِلَى الْكَلَامِ، فَقَالَ: لَهْدًا (لَشَدًّا) مَا سَحَرَكُمُ بِهِ صَاحِبُكُمْ! فَتَفَرَّقَ الْقَوْمُ، وَلَمْ يَكَلِمَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ). فَقَالَ: الْغَدَ يَا عَلِيُّ، إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ سَبَقَنِي إِلَى مَا سَمِعْتَ مِنَ الْقَوْلِ، فَتَفَرَّقَ الْقَوْمُ قَبْلَ أَنْ أَكَلِمَهُمْ، فَأَعَدَّ (فَعَدَّ) لَنَا مِنَ الطَّعَامِ مِثْلَ الَّذِي (مَا) صَنَعْتُ، ثُمَّ أَجْمَعْتُهُمْ لِي. قَالَ: فَفَعَلْتُ ثُمَّ جَمَعْتُهُمْ، ثُمَّ دَعَانِي بِالطَّعَامِ، فَقَرَّبْتُهُ لَهُمْ، فَفَعَلَ كَمَا فَعَلَ بِاللَّامِسِ، فَأَكَلُوا حَتَّى مَا لَهُمْ بِشَيْءٍ حَاجَةً، (ثُمَّ) قَالَ: اسْقِهِمْ، فَجِئْتُهُمْ بِذَلِكَ الْعَسِّ، فَشَرَبُوا حَتَّى رَوَوْا مِنْهُ جَمِيعًا. ثُمَّ تَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فَقَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلَبِ، إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ شَابًا فِي الْعَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلٍ مِمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ (ﷻ)

وهي أحاديث تزخر بها المصادر الأولى عند المسلمين في الحديث والتاريخ، وكلها تقود المسلم إلى تعيين المصطفين بعد رسول الله، وهم الصفوة من أئمة الهدى من آله (عليه وعليهم أفضل الصلاة والتسليم).

وإذا عرفت المصطفين فتمسك بجلهم، فلن ينتهوا بك إلى نار، ولن ينتهوا بك إلا إلى الجنة^(٢).

رابعاً: روايات وجوب معرفة إمام الزمان

"قد جاء التركيز على هذه القضية بالسنة متعددة، وقد كثر من بينها هذا اللسان الذي يصرح بأن مات من غير إمام أو لا يعرف إمامه أو لا إمام له مات ميتة جاهلية،

أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَيْهِ، فَأَيُّكُمْ (يُؤْمِنُ بِي وَ) يُؤَازِرُنِي عَلَى هَذَا الْأَمْرِ (أَمْرِي)، عَلَى أَنْ يَكُونَ (فَيَكُونَ) أَخِي وَكَذَا وَكَذَا (وَوَصِيِّي وَوَزِيرِي وَخَلِيفَتِي فِي أَهْلِي مِنْ بَعْدِي)؟ قَالَ: (فَأَمْسَكَ الْقَوْمُ، وَأَحْجَمُوا) فَأَحْجَمُوا عَنْهَا جَمِيعاً. قَالَ: وَقُلْتُ (فَقُمْتُ) وَإِنِّي لَأَخَذْتُهُمْ سَنَاءً، وَأَرْمَصُهُمْ عَيْنًا، وَأَعْظَمُهُمْ بَطْنًا، وَأَحْمَشُهُمْ سَاقًا: أَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَكُونُ وَزِيرَكَ (عَلَى مَا بَعَثَكَ اللَّهُ بِهِ). قَالَ: فَأَخَذَ بِرَقَبَتِي (بِيَدِي) ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذَا أَخِي وَكَذَا وَكَذَا (وَوَصِيِّي وَوَزِيرِي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ)، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا. قَالَ: فَقَامَ الْقَوْمُ يَضْحَكُونَ، وَيَقُولُونَ لِأَبِي طَالِبٍ: قَدْ أَمَرَكَ أَنْ تَسْمَعَ لِأَبْنِكَ وَتَطِيعَ جامع البيان عن تأويل آي القرآن

لابن جرير الطبري: ١٩ / ١٤٨، وما بين القوسين من الأمالي للطوسي: ٥٨٢ ح ١٢٠٦.

١. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: "لَمَّا اشْتَدَّ بِالنَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ [وَأَلِهِ] وَسَلَّم) وَجَعُهُ. قَالَ: «أَتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبُ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ»، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الْوَجَعُ وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللَّهِ حَسْبُنَا! فَاخْتَلَفُوا وَكَثُرَ اللَّغْطُ. قَالَ: «قُومُوا عَنِّي وَلَا يَنْبَغِي عِنْدِي التَّنَازُعُ». فَخَرَجَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: إِنَّ الرِّزْيَةَ كُلَّ الرِّزْيَةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ [وَأَلِهِ] وَسَلَّم) وَبَيْنَ كِتَابِهِ" صحيح البخاري للبخاري: ١ / ٣٧.

٢. خطبة الجمعة (١٤١) ٢٢ ذو الحجة ١٤٢٤هـ - ١٣ فبراير ٢٠٠٤م.



وتشترك في هذا اللسان مصادر الشيعة والسنة كذلك.

من ذلك: عن رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَلَا يَعْرِفُ إِمَامَهُ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^(١).

وعنه عليه وآله: «مَنْ مَاتَ بِلَا غَيْرِ إِمَامٍ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^(٢).

وكذلك: «مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ إِمَامٌ حَيٌّ يَعْرِفُهُ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^(٣).

[و] «مَنْ مَاتَ وَلَا إِمَامَ لَهُ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»^(٤).

وعن الإمام علي عليه السلام: «مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ إِمَامٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، إِذَا كَانَ الْإِمَامُ عَدْلًا بَرًّا تَقِيًّا»^(٥).

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ إِمَامٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَلَا يُعَذَّرُ النَّاسُ حَتَّى يَعْرِفُوا إِمَامَهُمْ»^{(٦) (٧)}.

"والآن نسأل هل يحتمل عقل، أو يقبل ذوق، أو تسمح نظرة موضوعية بأن يكون الاهتمام الواسع البليغ المكتف من الإسلام بأمر الإمامة والإمام حتى ليكون من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية في نظره ناشئاً عنده ومنطلقاً من تقديره واحترامه

١. الكافي للكليني: ١ / ٣٧٧ ح ٣.

٢. مسند أحمد لابن حنبل: ٤ / ٩٦.

٣. قرب الإسناد للحميري: ٣٥١.

٤. المعيار والموازنة للإسكافي: ٣٢١ ح ٢٤. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ١٣ / ٢٤٢.

٥. مسند زيد بن علي لزيد بن علي: ٣٦١.

٦. كمال الدين وتمام النعمة للصدوق: ٤١٢ ح ١٠.

٧. خطبة الجمعة (٥٨٥) ١٥ ربيع الأول ١٤٣٥ هـ - ١٧ يناير ٢٠١٤ م.

لإمامة الجاهل بأمر الدين^(١)، والفاسق عنه، والمتهاون فيه، والمقدم لنفسه عليه، أو المصيب مرةً لمراهه والمخطئ أخرى^(٢)، والذي كما يهدي يضل، وكما يرشد يغوي، وكما يصيب يتيه، وكما يقود الأمة إلى الله ﷻ في موقف يبتعد بها عنه سبحانه في موقف آخر، ويكون هذا الإمام هو الإمام الذي ارتضاه الله سبحانه دليلاً إليه، وقيماً على دينه، وأميناً على عباده، وهادياً إلى مرضاته؟!^(٣).

وهل يدخل في عقلك، أو يستدوق وجدانك، أو يمكن لك أن تجد شاهداً واحداً من واقع دين الله في كل تاريخه، أو تجرأ أن تنسب إلى عظمة الله وعلم الله ولطف الله وحكمته ورحمته وعدله، أن يوكل حفظ دينه، وضمان البقاء لصفاء وحيه، ونقاوة شرعه، والأمانة الكبرى، والوظائف العملاقة للإمامة التي كان لا يحملها^(٤)، ولا يتحملها إلا رسله المصطفون العظام لمن لم يحط بالإسلام علماً شاملاً صائباً، ولم يكن معصوماً علماً، وشعوراً، وإرادةً، وتطبيقاً وعملاً؟! وتطبيقاً وعملاً؟!

وهل ترى أن يقدم الله سبحانه في هذا الأمر العظيم، أو فيما دونه من الأمور الكريمة،

١. هذه الإمامة التي هي محل اهتمام عظيم من الإسلام هي إمامة جاهل بأمر الدين؟ أيصح، أيحتمل؟! «منه حفظه الله»

٢. تجاوزنا إمامة الفاسق جميعاً نحن المسلمين والجاهل بأمر الدين، لكن تأتي مرتبة أخرى من الإمامة هي مرتبة من يهتدي مرة لحكم الإسلام ويضل أخرى. أيمكن أن يكون اهتمام الإسلام بأمر الإمامة حتى ليعد أن من مات مات ميتة جاهلية إذا لم يعرف إمام زمانه وأن يكون تعويله في أن تكون ميتة المرء ميتة إسلام وإيمان وعلى هدى وحق على هذا النوع من الإمام الذي قد يصيب مرة ويخطئ مرة ومرات؟! «منه حفظه الله»

٣. اعرض هذا على عقلك ووجدانك! «منه حفظه الله»

٤. الله ﷻ.



جاهلاً على عالم، وفاسقاً على عادل، وناقصاً على كامل؟!!

وهل من اقتضت حكمته أن يُوجد الرُّسل المعصومين لوظيفة حفظ الدين على واقعه، في كلِّ مراحل وصوله وتبليغه وبقائه وتطبيقه، تخلّفت حكمته، أو تغيّرت قدرته، أو خفت رحمته ورأفته، أو قلَّ اهتمامه بدينه فعَدَلَ به شيء من ذلك عن إيجاد الأئمة المعصومين الذين يحفظون الدين ويصونونه علماً وعملاً كما كان على ذلك رسله؟!^(١).. حاشا لكمال الله المطلق أن يتهم بقصور أو تقصير"^(٢).

١. وُجِدَ عجز، وُجِدَ تغيير في الحكمة؟! «منه حفظه الله»

٢. خطبة الجمعة (٥٨٥) ١٥ ربيع الأول ١٤٣٥هـ - ١٧ يناير ٢٠١٤م.

الفصل الخامس: شروط الإمامة

”أن التأهل لها [للإمامة]، لا تكاد توجد لمثل ندرته ندرة، حتى كان من شأنه أن تجاوزت شروطه كثيراً من المقامات الدينية الرفيعة، والطريق إليه إتمام نجاح لكلمات صعبة من ابتلاء الله سبحانه لعبده، وعبور لتجارب مرة تمتحن الذات الإنسانية كلها امتحاناً بالغاً شديداً من صنع ربه، وأي ذات إنسانية هي الممتحنة لهذا التأهيل؟! إنها ذات رسول كبير كريم، كما في مثال النبي إبراهيم عليه السلام^(١).”

١. خطبة الجمعة (٣٧٦) ١٧ رجب ١٤٣٠هـ - ١٠ يوليو ٢٠٠٩م.

الفصل السادس: صفات الإمام

ويمكن النمذجة بصفات أمير المؤمنين عليه السلام الآتية:

الصفة الأولى: قرآن ناطق

”وإذا كان لنا أن نتشرف بالحديث عن علي عليه السلام؛ فإن القول فيه: أن الله عز وجل أوجده رجل المواهب الكبرى بعد الرسول صلى الله عليه وآله، وصاغته الرسالة ورسولها الكريم، وقرآن الله العزيز الحكيم، حتى غدا القرآن الناطق بعد المصطفى صلى الله عليه وآله، فكان كتاب الله إمام كل كتاب، وهو عليه السلام بعد ابن عمه إمام كل ولي، وهو القرآن الناطق لأن:

١. عقيدته عقيدة القرآن.
 ٢. فهمه فهم القرآن.
 ٣. رؤيته رؤية القرآن.
 ٤. فقهه فقه القرآن.
 ٥. علمه لا يفارق القرآن.
 ٦. مواقفه لا تحيد عن القرآن.
 ٧. هدفه لا يتباين أبداً مع هدف القرآن.
- إذا قرأت كلماته، مواقفه، كل سيرته قرأت القرآن.

وإذا بحثت عن الإسلام والقرآن فهماً، وعن ترجمتها العملية، فاقرأ علياً عليه السلام، فإذا فهمته ووعيته، فهمت ووعيت الإسلام في حدود ما فهمت، ووعيت، من الإمام عليه السلام، أو ليس «علي مع الحق، والحق مع علي، يدور حيثما دار»^{(١)؟}^(٢).

«ولا نشك أن كل ما عند الصحابة الأخيار، وغيرهم من التابعين بإحسان، من صحيح الحديث، وسديد الرأي، هو عند أهل البيت عليه السلام. ثم إنه ليس كل ما عند أهل البيت (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) من العلم والحق، قد وصل سائر المسلمين.

وما اختلف مختلف مع أهل بيت النبوة إلا وكان الحق في الجانب الذي جاء فيه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٣)»^(٤).

الصفة الثانية: شدة في ذات الله تعالى

«كان (سلام الله عليه) شديداً في ذات الله على الانحراف، والتساهل في الدين، وسلوك غير الجادة، كان ذلك من مستكبر أو مستضعف، ولا يجابي ولا يصانع أحداً في مضرة دينه، وغضب ربه من قريب أو بعيد، ومن قوي أو ضعيف، ومن خاصة أو عامة.

وإذا حمل (سلام الله عليه) على عتاة الخلق، من أهل البطش والقوة والسلطان، حمل شديداً.

وإذا حمل على أخطاء العامة، وتقاعسها عن نصره الدين، وتساهلها في أمره، وارتكابها

١. إعلام الوری بأعلام الهدی للطبرسی: ١٥٩.

٢. خطبة الجمعة (٣٧٦) ١٧ رجب ١٤٣٠هـ - ١٠ يوليو ٢٠٠٩م.

٣. الأحزاب: ٣٣.

٤. خطبة الجمعة (١٤١) ٢٢ ذو الحجة ١٤٢٤هـ - ١٣ فبراير ٢٠٠٤م.



الجهل، حملَ شديداً.

وما كان يمنعه مانعٌ، وهو المشفق على المستضعفين، المخلص لقضاياهم، المستميت في الدفاع عنهم، المضحّي من أجل خيرهم، أن يواجه سوءَ عمدِهِم وتقصيرهم بالكلمة الغاضبة، والصوت العالي، لردّهم إلى الطريق، وإلزامهم سلوك الجادة في الدين، وعدم التعدي عن خطّ الصلاح والشرعية.

ولقد كان له من الغنى بالله، ما يصرفه عن شراء رضى المخلوقين في غضب ربّه^(١).

الصفة الثالثة: دينٌ حقٌّ خالص

"الأمره عنده أقلّ شأنًا من شسع نعل يخفضه ما لم تحقّ حقًا، وتبطل باطلا، هذا من جهة، وهي من جهة أخرى دين تطيح من أجله الرؤوس العظيمة، ويترمل من يترمل من نساء، ويتيتّم من يتيتّم من صبية وصبايا إذا كانت ستقيم الحق، وتسقط الباطل. وكلمة حقٌّ إنّ عليّاً عليه السلام لدينٌ حقٌّ خالص، لا غشّ فيه؛ فمن أخذ بهديه إنّما أخذ بالدين، ومن زهد فيه إنّما زهد في الدين"^(٢).

١. خطبة الجمعة (٣٧٦) ١٧ رجب ١٤٣٠هـ - ١٠ يوليو ٢٠٠٩م.

٢. المصدر نفسه.

الفصل السابع: وظيفة الإمام الشرعي

"الولاية لله ولرسوله ﷺ ولأُمير المؤمنين، وإمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام. (و)هي ولاية شاملة لأُمور الدنيا والدين، وتجمع بين الطاعة والمحبة والنصرة"^(١).
"والوظيفة الأم للإمام الشرعي، لا تختلف فيما عدا تلقي الوحي عن وظيفة الرسول ﷺ، وتتركز في:

- تكميل البشر وتربيتهم تربية إلهية رفيعة، في كل أبعاد الحياة.
- ووضعهم على المسار العبادي الواصل إلى الله سبحانه، وهو الصراط المستقيم.
- وتولي الشأن السياسي، وتصريف أمور الأمة بعد من الأبعاد التي تقع على طريق التكميل والتربية الشاملة، والنهوض بمستوى الإنسان الذي يُسأل عنه الإمام، ويجب الانقياد إليه من أجله.
- فخطُّ الولاية لحفظ الإسلام، والنأي به عن الخطأ والتحريف في الرأي والتطبيق، وصناعة الإنسان على ضوئه، ولوحدة الأمة واستقلاليتها وعزتها وكرامتها وسبقها.
- وهو بما يُمثّل من نقاء الإسلام وحقانيته وربانيته وانفتاحه على المصالح الحقيقية لكل الشعوب والأقوام، لا بدّ أن يكون من أجل الأخوة الإنسانية العامة، والعدل في كلّ الناس، والتربية القومية لكل العالم، والسلم والأمن الشامل والكامل، فأطروحة الولاية بريئة من

١. خطبة الجمعة (٩٩) ١٩ ذي الحجة ١٤٢٣هـ - ٢١-٢-٢٠٠٣م.



الضيق، والشُّحُّ والأُنَانِيَّةُ والانغلاق، من التعصب الأعمى، من الصراع على المصالح الدنيوية، من الاستعلاء والاستكبار، من الحقد والانفعالات العدوانية كما هي براءة الإسلام وطهره ونقاؤه"^(١).

١. المصدر نفسه.

الفصل الثامن: متطلبات وظيفة الإمامة

”الإمامة: قيادة إنسان لحركة الإنسانية في اتجاه صاعدٍ لله عَزَّوَجَلَّ، عبر تبليغ دين الله، وإفهامه، وتنفيذه في حياة الناس بتعاون من إرادتهم، وبكل نُظمه من نظام عبادي، واجتماعي، واقتصادي، وسياسي، وإداري وعلى مستوى نواحي الحياة كلّها إيصالاً للناس لغاية نُضجهم وكمالهم^(١).”

وهذا الإمام بهذه الوظيفة الكبرى بالغة الدقة والخطورة، وما تتطلبه من:

- إحاطة شاملة بالدين.
- وفهم لا يخطئه.
- وتفسير لا ينحرف عنه أو به.
- وأمانة لا تفرط فيه، ولا تزيد عليه، ولا تنقص منه.
- وهمة عالية لا تقصر عنه.
- وإرادة حاسمة لا تشكو من ثقل مجاراة أمره ونهيه.
- وحمل ما خصّ، وما عمّ من تكاليفه.

١. الإمام وظيفته تربية العالم على خط الله، السموّ بكلّ من في العالم بوضعه على خط الله ﷻ، والإمام كما يدخل في مسؤوليته تربية أصغر صغير، يدخل في مسؤولية تربيته أكبر كبير علما وتقوى، ونضجا وفهما. «منه حفظه الله»



- ونظرٍ لا يغيب عنه^(١).
 - واهتمام لا يسهو عن مصلحته.
 - ومتابعة مستمرة لكل شأنه، وما يعترضه ويتهدده، ويتحداه، وما يستجدُّ على أيِّ يد عابثة على أمره.
 - وحراسة لا تغفل عن كيد أعدائه.
 - وعلم لا يعجز عن الردِّ على أيِّ شبهة تثار في وجهه.
 - وعزم لا يتراجع أمام أي صعوبة تقف في طريقه.
- هذا الإمام بهذه الوظيفة، وكلّ متطلباتها، لا يمكن لأفهام الناس تشخيصه، ولا يمكن أن يقلَّ عن مستوى العصمة في علمه ونفسيته وعمله، والعصمة ابتداءً واستمراراً لا يعلمها إلا علام الغيوب^{(٢)»(٣)}.

١. لا يغيب عن الدين. «منه حفظه الله»

٢. أعرف منك حسن ظاهر، وتعرف من أخيك حسن ظاهر، تستدل به على حسن واقع إن شاء الله، ولكن ليس لك أن تحلف بأن فلانا معصوم، لا تملك ذلك، لا تملك أن تحلف على عصمته فعلاً، فضلاً عن أن تملك الحلف على عصمته استمراراً ومستقبلاً. «منه حفظه الله»

٣. خطبة الجمعة (٤٣٠) ١٩ ذو الحجة ١٤٣١هـ - ٢٦ نوفمبر ٢٠١٠م.

الفصل التاسع: انعكاسات الالتزام بخط الإمامة

أولاً: "الإيمان بأنّ انبعث الأمة، الانبعاث الشاملة وعودة الإسلام إلى موقع الريادة العملية في الأرض، وتطبيقه التطبيق التام العادل، لا ينفصل عن عودة الإمامة الراشدة، على يد المعصوم وهو المنتظر من آل محمد ﷺ، فليست تصلح الدنيا في آخرها إلا بما صلحت به في أولها، صلحت دنيا الإسلام برسول الله ﷺ ومنهجه الكامل، وتصلح الدنيا في آخرها بمنهج الإسلام والمعصومين ﷺ، والقائم ﷺ، قل: صلحت وتصلح بالمعصومين من المنهج والقيادة.

والمطروح هنا لا يسقط عن المسلمين واجب التحرك في إصلاح شؤونهم أبداً، بل يفرض علينا الأمل في ظهور الإمام القائم ﷺ والتمهيد له أن ننشط أكثر فأكثر، في محاولة إقامة العدل في الأرض"^(١).

ثانياً: "عدم إمكان الإيمان فكرياً ونفسياً بالنظم الأرضية، أنت مؤمن بيوم الولاية يوم الغدير، بإمامة علي ﷺ، بضرورة الإمامة المعصومة، بالإسلام الكامل، ويترتب على هذا عدم إمكان الإيمان فكرياً ونفسياً بالنظم الأرضية قاطبة، بالنظم الأرضية التي لا تمثل امتداداً طبيعياً لخط الإمامة، ولكن هذا لا يعني بالضرورة المواجهة العملية، بل يمكن التعايش العملي والتعامل السلمي الواقعي مع هذه الأنظمة إذا لم تعلن حربها على الإسلام، والمسلمين في دينهم ودنياهم، والتعاون معها في أمور الخير، وبناء مصالح البلاد الإسلامية،

١. خطبة الجمعة (٤٩) ٢٣ ذو الحجة ١٤٢٢هـ - ٨-٣-٢٠٠٢ م.

وتحسين وضع المسلمين، والدفاع عن حقوقهم وموقعيتهم وإقرار الأمن والسلام بالقدر الميسور، وكل ذلك بما يوافق حدود الشريعة وأحكامها العادلة، ولقد ضربت سيرة الأئمة عليهم السلام، المثل الحي في الحفاظ على مصالح الإسلام والمسلمين، والتعايش السلمي وإسداء النصيحة العملية للحكومات لا يرون شرعيتها من ناحية دينية، من دون أن يشاركون في ظلم، أو يعينوا على باطل، أو يقصروا في واجب، أو تجري على يدهم مدهانة لا يأذن بها الله تعالى.

فاعتقاد أن الشرعية الدينية مقصورة على خط الإمامة أصلاً وامتداداً لا يعني سياسة المواجهة العملية، أو الخروج من جسم الأمة، أو تكفيرها وشهر السيف في وجهها، وعدم التعاون على الخير مع أي فئة من فئاتها.

ولا بدّ أن نفرّق بين الشرعية التي تحاول الأنظمة الأرضية أن تكتسبها، تقوية لكياناتها، وبين الشرعية الإسلامية المعنية في لسان الفقه الإسلامي، فالأولى شرعية بحسب القانون الوضعي، ونظر المؤسسات السياسية العالمية اليوم، والدول الوضعية، وهيئة الأمم المتحدة مثلاً، والثانية مقياسها تمشي النظام والمنظور الشرعي الإسلامي في تكوينه وبنيته^(١).

ثالثاً: "يحرم في ظلّ الانتماء إلى خطّ الإمامة تثقيف الأمة بثقافة غربية، أو أيّ ثقافة أرضية أخرى بديلة، ولذلك جرى ويجري التركيز دائماً على إمامة الإمام القائم عليه السلام"^(٢).

رابعاً: "الولاء لأئمة أهل البيت عليهم السلام هو ولاء لله أولاً، ورضى بحكمه العادل، وولاء

١. المصدر نفسه.

٢. المصدر نفسه.



للمنهج الإسلامي كاملاً بكل مفرداته وتركيبته وتكاليفه ومقتضياته، وهو ولاء لا يعدل بهم ﷺ أحداً ممن يزاحمهم من الناس، ولا يتعدى بهم موقع العبودية المحضة والعبادة الخالصة الصادقة لله سبحانه، والإفراط والتفريط في هذا الأمر معاً مردودان من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على صاحبهما^(١).

خامساً: "عيد الغدير له حقوق، وعلينا أن نقرب بمستوانا إلى مستوى تلك الحقوق؛ حقوق بعضها مظاهر، وبعضها من العمق، وتقصيرنا على المستويين، ونرجو أن نخرج من هذا التقصير.

نحن حتى على مستوى المظاهر لا نعطي يوم الغدير حقه، فعلينا أن نعطي الاهتمام الذي لا أقول أنه سيتناسب مع عيد الغدير، ولكن يكون فيه أداء بعض ما ينبغي^(٢). فإن "يوم الغدير الأغر يوم الولاية لله ورسوله ﷺ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ^(٣).

وإنه لا للدين فحسب، وإنما للدين والدنيا مجتمعين، وليس لسعادة أمة غير أمة، وإنما هو لسعادة الإنسانية كاملة.

إنه لاستقامة الدين، ونقائه وصفائه وصدقه، وحيويته وفاعليته وحاكميته.

وإنه لأمن الدنيا واستقرارها ونموها وتقدمها ورفاهها وهنائها، ولأخوة الناس فيها، وللعدل والمساواة والإنصاف، ولأن تشرق الأرض بنور ربها فتكون من ذلك الهداية

١. خطبة الجمعة (٤٩) ٢٣ ذو الحجة ١٤٢٢هـ - ٨-٣-٢٠٠٢ م

٢. خطبة الجمعة (١٨٤) ١٧ ذو الحجة ١٤٢٥هـ - ٢٨ يناير ٢٠٠٥ م.

٣. المائة: ٥٥.



والمحبةُ والأنسُ والسعادةُ للجميعُ ممن يحب الخير، ويستجيب له.

كان الغدير ليقوى ويتركز ويتجذر به الإسلام، ولا يأتي عليه انحراف ولا تحريف، ولتبنى هذه الأمة بناءً إيمانياً شامخاً فتتهدي بها كل الأمم، وتستنير بضوئها كل المجتمعات فتذهب العداوة بين الناس من غرس الشيطان، وتتثبت الأخوة في الله ومن فيض هداه.

كان الغدير -كما هو الإسلام أصلاً- لتكون الأمم جميعاً أمة واحدة -كما هو الإسلام- تجتمع على مائدة الإيمان الصادق، والعلم الثابت، والعمل الصالح، وتعيش حقيقة العدل والتقوى والمحبة والإحسان.. أمة تصنع الدنيا جنةً في ضوء منهج الله، وتكتسب جدارتها فيها لجنة الآخرة^(١).

١. خطبة الجمعة (١٤١) ٢٢ ذو الحجة ١٤٢٤هـ - ١٣ فبراير ٢٠٠٤م.

الباب الرابع: معرفةُ الآخرة

الفصل الأول: الموت

الفصل الثاني: حياة البرزخ (القبر)

الفصل الثالث: النَّفْخ في الصُّور

الفصل الرابع: المعاد

الفصل الخامس: الشِّفاعة

الفصل الأول: الموت

معنى الموت

"إنَّ الموت قدر الله الذي لا مفرَّ منه ولا مهرب، وإنه لآت، وكلُّ نفس إلى فوات، وهو: نقلة من دار إلى دار، ومن عالم إلى عالم، ومفارقة من روح لبدن، تعيش من بعده عذاب ما قدمت، أو نعيم ما كسبت"^(١). وقد جاءت الأخبار ببيانه:

١. عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: "بِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا"^(٢): كلمة صعبةٌ على النَّفس، [ف]هذه الدنيا التي نتمسك بها، [و]نعمل من أجلها، [و]نبذل كلَّ شيء من أجل البقاء فيها، لا ندري متى يحلُّ الموت فننقطع عنها ونختمها.

ماذا يعني ختم الدنيا؟

يعني: انقطاع العمل.

يعني: أن لا عودة لعمل صالح.

يعني: أن الندم لا يفيد.

يعني: الوقت لمن فرط وقت حسرة لا تنقضي"^(٣).

١. خطبة الجمعة (٢٨) ٢٤ رجب ١٤٢٢هـ - ١٢-١٠-٢٠٠١م..

٢. الكافي للكليني: ٢ / ٤٩ ح ١.

٣. خطبة الجمعة (٢٨) ٢٤ رجب ١٤٢٢هـ - ١٢-١٠-٢٠٠١م..

٢. عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لَمَوْتُ بَابُ الْآخِرَةِ»^(١)، وليس بين الدار وبين أن تدخلها إلا الباب، والموت باب الآخرة، ومتى أدخل الآخرة؟
[فهل أدخلها] بعد سنة؟ [أم] بعد شهر؟ [أم] بعد أسبوع؟ [أم] بعد يوم؟ [أم] بعد لحظة؟

لا أدري، [وإنني، في كل لحظة، أتوقع أن تحدث لي النقلة الكبرى، من هذه الدنيا إلى الآخرة]^(٢).

٣. عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لَمَوْتُ أَوَّلُ عَدْلِ الْآخِرَةِ»^(٣). نعم، في لحظة الموت يفتح النظر على عدل الله في الآخرة، فيعاین المحسن ما لا يعاینه المسيء، ويرى المسيء نتيجة عمله، ويرى المحق المحسن نتيجة عمله، لا يتأخر الجزاء، إنما الجزاء يبتدأ مع لحظة الموت، [و] في تلك اللحظة يعرف الإنسان كم جنى على نفسه؟
وكم كسب لنفسه؟
هناك يظهر العدل.

هناك لا تنفع الشفاعة إلا بإذنه تعالى.

هناك لا يكون الحساب الجزاف، بحيث يظلم أحد من الناس.

١. عيون الحكم والمواعظ لليثي: ٣٩ ح ٨٦٠.

٢. خطبة الجمعة (٢٨) ٢٤ رجب ١٤٢٢هـ - ١٢-١٠-٢٠٠١م..

٣. عيون الحكم والمواعظ لليثي: ٢٨ ح ٣٨١.



هناك تنقطع الأرحام والعلائق، ليكون الشفيع الأول بعد رحمة الله، هو العمل الصالح^(١).

٤. "إذا كان عمر الإنسان دقائق وثنانٍ ولحظات، وإذا كانت حياته مجموعة من الأنفاس، فكلمات علي أمير المؤمنين عليه السلام تقول: «فِي كُلِّ وَقْتٍ مَوْتُ»^(٢). «فِي كُلِّ لَحْظَةٍ أَجَلٌ»^(٣). «فِي كُلِّ نَفْسٍ فَوْتُ»^(٤). حياتنا كلها مجموعة أنفاس، وكل نفس ينقص هو موت، هو نقلة من حياتنا، هو إِدْبَار لهذه الحياة، هو نقص لهذه الحياة، أنا الآن أموت وأموت وأموت، [و]كل نفس يخرج من حساب حياتي، فهو موت لهذا النفس، وموت لحظة [من] العمر، اعبؤها بخير أو شر.

هي لحظة واحدة، ولكن ترتفع قيمتها عالياً بلون ما أعبؤها، [فإن] عبأتها [بها] بخير ارتقيت مرتقى الملائكة وأكثر، وإن عبأتها [بها] بشر، انتكست الانتكاسة، وكنت في الأسفل مع القمامات وكل القاذورات^(٥).

كيف يكون موت المؤمن؟

القرآن ذكر صوراً من صور قبض روح المؤمن، ف"هل تحب أن تسمع عن موت المؤمن:

١. تقول الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا

١. خطبة الجمعة (٢٨) ٢٤ رجب ١٤٢٢هـ - ١٢-١٠-٢٠٠١م..

٢. غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٧٧.

٣. عيون الحكم والمواعظ للبيهي: ٣٥٤ ح ٥٩٩٧.

٤. غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٧٦.

٥. خطبة الجمعة (٢٨) ٢٤ رجب ١٤٢٢هـ - ١٢-١٠-٢٠٠١م..

الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(١)، إنه التوفي، إنه جمع الروح بكل ما هو من كيانها، وإذا كانت الروح البسيطة، يعني الاستيفاء، إنه استيفاء للإنسان الحق، استيفاء له بروحه بفكره بمشاعره، بأهدافه بطموحاته، بنياته، بعمله الصالح، بعمله السيء، وإن كانت مشاعر رديئة فهي مستوفاة، وإن كانت مشاعر خيرة فهي مستوفاة، إن كانت أفكاراً قويمية ملتقية مع خط الله فهي مستوفاة، إن كانت أفكاراً رديئة منحطة عن خط الله فهي مستوفاة.

هؤلاء الذين يستوفون بكامل كيانهم وواقعهم الإنساني الذي صنعوه في هذه الحياة، وقد صنعوه جيداً طيباً، تقول لهم الملائكة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾^(٢)، تحية من الملائكة من عند الله، ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣)، وهذا لون آخر من التكريم، أن يقولوا لهم: هذا بما قدمت أيديكم من عمل صالح، وبما أجدتموه بصناعة ذواتكم على خط الله، والآية وردت في المتقين.

٢. [و] آية أخرى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾^(٤)، لا خوف [و] لا فزع [و] لا اضطراب، هي: نفس مطمئنة حال الوفاة والموت.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾^(٥).. ﴿عِبَادِي﴾ الذين ارتبطوا بي، [و] الذين توجهوا بكلهم إلي.. ﴿عِبَادِي﴾ في مشاعرهم، والمشاعر العائدة لله متكاملة، ﴿عِبَادِي﴾ في تفكيرهم،

١. النحل: ٣٢.

٢. النحل: ٣٢.

٣. النحل: ٣٢.

٤. الفجر: ٢٧-٣٠.

٥. الفجر: ٢٩.

﴿عِبَادِي﴾ في أخلاقهم، ﴿عِبَادِي﴾ في علاقاتهم، ﴿عِبَادِي﴾ في ذواتهم، [و] ذواتهم ذواتٌ نظيفةٌ.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾^(١)، [إشارة إلى أنهم] إذا كانوا في نقصٍ من هذا، فهم ملحقون بأولئك المطهرين، ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾^(٢).

إذن، دخول الجنة معه ذات نظيفة، عابدة، طاهرة، [لأن] الجنة ليست محلاً للنفوس الخبيثة أبداً. وإذا كانت النفس على درجة من الخبث، فلا بد أن تطهر في جهنم، إذا لم تطهر في البرزخ، [و] إذا لم تطهر في لحظة الموت، [و] إذا لم تطهرها اللحظة الصادقة في الحياة^(٣).

٣. سئل رسول الله ﷺ كيف يتوفى ملك الموت المؤمن؟ فقال: "إِنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ لَيَقِفُ مِنَ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ مَوْتِهِ مَوْقِفَ الْعَبْدِ الذَّلِيلِ مِنَ الْمَوْلَى"^(٤). هذا [ملك الموت] الذي تخاف منه! اعمل صالحاً فلا تخف، "إِنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ لَيَقِفُ مِنَ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ مَوْتِهِ مَوْقِفَ الْعَبْدِ الذَّلِيلِ مِنَ الْمَوْلَى، فَيَقُومُ وَأَصْحَابُهُ لَا يَدْنُونَ مِنْهُ، حَتَّى يَبْدَأَهُ بِالتَّسْلِيمِ، وَيُبَشِّرُهُ بِالْجَنَّةِ"^{(٥) (٦)}.

وعن مُصْعَبِ الْكُوفِيِّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِسَدِيرٍ - فِي حَدِيثٍ -: "فَمَا

١. الفجر: ٢٩.

٢. الفجر: ٢٩-٣٠.

٣. خطبة الجمعة (٢٨) ٢٤ رجب ١٤٢٢ هـ - ١٢-١٠-٢٠٠١ م..

٤. من لا يحضره الفقيه للصدوق: ١ / ١٣٥ ح ٣٦٥.

٥. المصدر نفسه.

٦. خطبة الجمعة (٢٨) ٢٤ رجب ١٤٢٢ هـ - ١٢-١٠-٢٠٠١ م..

يُحْسُ بِخُرُوجِهَا - يعني الروح -، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾^(١)، ثُمَّ قَالَ: «ذَلِكَ لِمَنْ كَانَ وَرِعًا مُّوَاسِيًا لِإِخْوَانِهِ وَصُورًا لَهُمْ»^(٢)، وكلمة ورع، كلمة عريضة، شاملة لمعاني التقوى، في الميادين المختلفة^(٣).

٤. "تُحَفُّهُ الْمُؤْمِنُ الْمَوْتُ"^(٤)، «فِي الْمَوْتِ رَاحَةُ السُّعْدَاءِ»^(٥): السعداء، هم: الذين قدموا عملاً صالحاً، ويجدون الراحة لحظة الموت عنده أو عقيب الموت على درجات.

٥. قيل لعلبي بن الحسين عليه السلام: ما الموت؟ قال: «لِلْمُؤْمِنِ كَنْزُ ثِيَابٍ وَسِخَةِ قَمَلَةٍ»^(٦).. كم تؤذي الثياب الوسخة القملة، هذه الحياة ثوب، [و] مهما طاب ونظف، [فهو] بالقياس إلى ثوب الآخرة، وسخ قمل، وكم يؤذي الثوب الوسخ القمل؟

قال: «لِلْمُؤْمِنِ كَنْزُ ثِيَابٍ وَسِخَةِ قَمَلَةٍ - مليئة بالقمل -، وَفَكَ قِيُودٌ وَأَغْلَالٌ ثَقِيلَةٌ، وَالِاسْتِبْدَالُ بِأَفْخَرِ الثِّيَابِ وَأَطْيَبِهَا رَوَائِحٍ وَأَوْطَأِ الْمَرَكَبِ وَأَنْسِ الْمَنَازِلِ»^(٧)، أنت تخرج من الضيق إلى السعة، [و] من البؤس والشقاء إلى السعادة، [و] من الآلام والأحزان إلى السرور والحبور، فلتكن صاحب قصر وعلى كثير من طيبات هذه الدنيا، ولكن إذا كنت

١. الفجر: ٢٧-٣٠.

٢. المحاسن للبرقي: ١ / ١٧٧ ح ١٦١.

٣. خطبة الجمعة (٢٨) ٢٤ رجب ١٤٢٢ هـ - ١٢-١٠-٢٠٠١ م..

٤. جامع الأخبار للشعيري: ٨٥.

٥. عيون الحكم والمواعظ لليثي: ٣٥٤ ح ٦٠١١.

٦. معاني الأخبار للصدوق: ٢٨٩ ح ٤.

٧. معاني الأخبار للصدوق: ٢٨٩ ح ٤.



المؤمن الصادق، فإن قصرِكَ لن يدخل في شعورك أبداً، [و] لن تدخل الدنيا بكل زينتها في شعورك عند الموت، [بل] ستنشغل عن كل ذلك، بما ترى من فضل الله وفيضه^(١).

٦. "قيل للصادق عليه السلام: «صِفْ لَنَا الْمَوْتَ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لِلْمُؤْمِنِ كَأَطْيَبِ رِيحٍ يَشْمُهُ فَيَنْعَسُ لَطِيهٍ وَيَنْقَطِعُ التَّعَبُ وَالْأَلَمُ كُلُّهُ عَنْهُ»^(٢).. ريح طيبٌ تسكر له النفس، ينسيها كل ما حولها انفعالا به، [ينسيها] كل الأتعب والآلام، [فـ] لا يبقى ألم على مستوى الخواطر، [أو] على مستوى البدن، [و] لا قلق [و] لا خوف [و] لا حزن، إنها بشرىات الله ﷻ للمؤمن، تبدأ مع لحظة وفاته"^(٣).

كيف يكون موت الكافر؟

"﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾"^(٤).. كيف حال الإنسان الذي يعرف من نفسه أنه جانٍ، ويقف أمام من لا يستطيع المفر منه، يستسلم استسلاماً كاملاً، ولكنه كمن يتعلّق بالطحالب.. لا، أنا لم أفعل شيئاً، وهو يعلم من نفسه أنه يفعل، وهو يعلم أن الطرف الآخر يعلم أنه فعل، ولكنه الطلب الوهمي للنجاة، والتّمسك بالطحالب عند لحظة الشدة.

هنا استسلامٌ، ولكنه محاولة للحصول على البراءة والتبري مما كانوا يعملون، ولكن لا قيمة لهذا التبري.. ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ

١. خطبة الجمعة (٢٨) ٢٤ رجب ١٤٢٢هـ - ١٢-١٠-٢٠٠١م..

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق: ١ / ٢٧٤ ح ٩.

٣. خطبة الجمعة (٢٨) ٢٤ رجب ١٤٢٢هـ - ١٢-١٠-٢٠٠١م..

٤. النحل: ٢٨.

مِنْ سُوءٍ»^(١).. كانوا مقاومين ومعاندين ويحملون السلاح في وجه الله تبارك وتعالى.. كانوا يحاربون الله ورسوله كلما أتاهم الوعظ وعرفوا، واشتد [وا] في طريق الضلال، [ولكن] تلك اللحظة، وهي لحظة الموت ﴿أَلْقُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾^(٣). استحقار، [و] إحداد حالة فرع، رعب، [و] نذير شديد بأن لا قيمة لهم، وقد تحولوا إلى لا شيء..

قال رسول الله ﷺ -والتفتوا للحديث ومضامينه-: «وَأِنْ كَانَ لِأَوَّلِيَانَا مُعَادِيًا، وَلِأَعْدَائِنَا مُوَالِيًا، وَلِأَضْدَانَا بِأَلْقَابِنَا مُلْقَبًا»^(٤). من هو العادل؟ رسول الله ﷺ، أمير المؤمنين عليه السلام، وهو يأتي للظالم ويقول له: أيها العادل، يا أمير المؤمنين، وباختياره، أنت خليفة المسلمين، أنت مصدر الحق، أنت مصدر العز، فإذا جاء هذا الذي وصف رسول الله ﷺ في الحديث المنقول عنه، «فَإِذَا جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ لِنَزْعِ رُوحِهِ، مَثَلُ اللَّهِ ﷻ لِذَلِكَ الْفَاجِرِ سَادَتَهُ الَّذِينَ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ»^(٥)، على أي صعيد ومستوى، حتى على المستوى الفكري أيها الأخوة.

فيؤتي بهؤلاء السادة: «عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ مَا يَكَادُ نَظَرُهُ إِلَيْهِمْ يُهْلِكُهُ، وَلَا يَزَالُ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ حَرِّ عَذَابِهِمْ مَا لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ، فَيَقُولُ لَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ: يَا أَيُّهَا الْفَاجِرُ الْكَافِرُ،

١. النحل: ٢٨.

٢. النحل: ٢٨.

٣. محمد: ٢٧.

٤. بحار الأنوار للمجلسي: ٦ / ١٧٥ ح ١.

٥. المصدر نفسه.



تَرَكْتَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ إِلَى أَعْدَائِهِ؟ فَالْيَوْمَ لَا يُغْنُونَ عَنْكَ شَيْئاً، وَلَا تَجِدُ إِلَى مَنَاصٍ سَبِيلًا، فَيَرِدُ عَلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ مَا لَوْ قُسِمَ أَدْنَاهُ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا لَأَهْلَكَهُمْ»^(١).

[وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إِنَّ فِي الْمَوْتِ لِرَاحَةً لِمَنْ كَانَ عَبْدَ شَهْوَتِهِ، وَأَسِيرَ أَهْوِيَّتِهِ، لِأَنَّهُ كُلَّمَا طَالَتْ حَيَاتُهُ كَثُرَتْ سَيِّئَاتُهُ، وَعَظُمَتْ عَلَى نَفْسِهِ جَنَائِيَّتُهُ»^(٢)]. اللحظة الواحدة من عمر الفاجر الكافر عذاب، فأحسن له أن تنتهي حياته -مليون مرة- لثلاث ترديد سيئاته وعذابات»^(٣).

الاستعداد للموت

”قوله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَآئِمَاتٌ غُرُورٌ﴾^(٤).. خذها حقيقة في تفكيرك، حقيقة في شعورك، حاضرة فاعلة، وإلا خسرت العمر، وأوقعت نفسك في شقاء المصير، وكنت على غير هدى في هذه الحياة، حقيقة لا بد أن يقام لها حسابها في الحياة؛ حقيقة أن لست هنا أبداً، إنما أنت هنا وقتاً قصيراً لا مديداً، والساعة توقيتها ليس بيدك، والرحيل قرار ليس من عندك، وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد أن يكون حضور هذه الحقيقة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، حضوراً قوياً، فاعلاً، يقام على أساسه منهج الحياة في دائرة الفرد، وفي دائرة المجتمع، حقيقة لا بد أن يدخل حسابها في كل حركة وسكون، لا يريد الله عز وجل أن يخبرنا أن كل نفس ذائقة الموت فحسب، يريد أن يقيم أمامنا هذه

١. المصدر نفسه.

٢. عيون الحكم والمواعظ لليثي: ١٥٧ ح ٣٤١٠.

٣. خطبة الجمعة (٢٨) ٢٤ رجب ١٤٢٢ هـ - ١٢-١٠-٢٠٠١ م.

٤. آل عمران: ١٨٥.

الحقيقة، نعيشها وعيا وشعوراً، من أجل أن نفعلها في مقام العمل، في مقام التخطيط، في مقام التفكير، في مقام الشعور، في مقام الطموح، وليس الأمر أنه خبر فقط.

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(١)، عمرك أكبر من أن يشتري بالحياة الدنيا في تقدير الله، أنت وجود أضخم مما تطلع عليه الشمس كل يوم، لك أجر لا تعرفه، [و]لك وزن قد لا تقدره، وتوفية الأجور يوم القيامة، وهناك تتبين الأوزان، و[أن] لا وزن لمن عصى الله، أما من أطاع الله فوزنه ثقل، ثقل، ثقل، بحيث لو ضوعفت الدنيا أضعافاً ما كانت تساويه ثمناً.

اسعوا إلى زحزحة عن النار، أتدرون متى الفوز؟

[الفوز] ليس في أن تتخرج جامعياً، ليس في أن تتخرج أستاذاً بالمعنى العلمي للأستاذية، الفوز عند الزحزحة من النار.

[إن] النار شقاء أبدي شامل، والزحزحة عن النار فوز، فأياً كانت الدرجة في الجنة، فقد فاز من زحزح عن النار، وتبقى المسافات شاسعة لا تقدر بين درجات في الجنة، وكل أهلها في النعيم. ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾^(٢)، لا تأخذ صورة الحياة الدنيا عند الفقير، خذ صورة من الحياة الدنيا عند أغني غني، فهذه الصورة ما هي إلا متاع الغرور^(٣).

"العبد لا يدري متى يأتي الأجل، وينقطع العمل، وليستقبل خيراً مقيماً أو شراً دائماً،

١. آل عمران: ١٨٥.

٢. آل عمران: ١٨٥.

٣. خطبة الجمعة (٩١) ٢٣ شوال ١٤٢٣هـ الموافق ٢٧-١٢-٢٠٠٢م.



فلتنظر نفس ما قدمت لغد، ولتنظر ماذا تريد أن تلقى عند موتها فتسعى إليه^(١).

وإذا كان باب الآخرة لحظة الموت المرتقبة الآن، قد تكون هي اللحظة التالية للحظة القائمة، وكانت تعني الخير كله أو الشر كله، فما أخرى المرء بتذكرها والاستعداد إليها، ففي وصايا أمير المؤمنين لابنه الحسن عليه السلام: «يَا بُنَيَّ أَكْثَرُ مَنْ ذَكَرَ الْمَوْتَ، وَذَكَرَ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَأْتِيكَ وَقَدْ أَخَذَتْ مِنْهُ حَذْرُكَ، وَشَدَّدَتْ لَهُ أَرْزُكَ، وَلَا يَأْتِيكَ بَغْتَةً فَيَهْرَكَ»^(٢).

الإسلام يذكرنا بالموت لا لنجمد، [أو] نتوارى عن الحياة ونعيش السلبية فيها، [أو] نحفر قبورنا قبل لحظة موتنا، يذكرنا الموت من أجل أن نعلم حياتنا بالحركة الدؤوب، وأن ننطلق أقوىاء في الحياة، لكن بروح التقوى، وروح العمل الصالح، وروح التوحيد الخالص.

يريد منك الإسلام -وهو يذكرك بالموت، وأنت على ظهر الأرض-، أن تعمر الأرض، ونفسك قبل كل شيء، وتعمر نفوس الآخرين ما استطعت.. تعمر الأرض وتترك فيها بصمات عظمة الإسلام والتشريع الإسلامي.

ومن كلماته عليه السلام في الاستعداد للموت: «هَوْلٌ لَا تَدْرِي مَتَى يَغْشَاكَ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَسْتَعِدَّ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَفْجَأَكَ»^(٣). «وَأَسْتَعِدُّوا لِلْمَوْتِ فَقَدْ أَظْلَكُكُمْ، وَكُونُوا قَوْمًا صَوِيحِبِهِمْ

١. خطبة الجمعة (٢٨) ٢٤ رجب ١٤٢٢هـ - ١٢-١٠-٢٠٠١م.

٢. نهج البلاغة للرضي: ٤٠٠ ح ٣١.

٣. الجعفریات لابن الأشعث: ٢٣٥.

فَانْتَبَهُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لَهُمْ بِدَارٍ فَاسْتَبَدَّلُوا»^(١)، دائماً ابذلوا الدنيا للآخرة، دائماً أطلبوا الآخرة مقدمين لها على الدنيا.

«إِنَّ قَادِمًا يَقْدَمُ بِالْفَوْزِ أَوْ الشَّقْوَةِ لَمُسْتَحِقٍّ لَأَفْضَلِ الْعُدَّةِ»^(٢). وعن هذا الاستعداد وكيفيته، قيل لأمر المؤمنين عليه السلام: ما الاستعداد للموت؟ قال: «أداء الفرائض»^(٣). الفرائض تعني: كل واجبات الإسلام، ومنها: جهاد الكلمة، ومنها: جهاد السيف، ومنها: الحضور الاجتماعي عند الضرورة، «وَاجْتَنَابُ الْمَحَارِمِ، وَالِاشْتِمَالُ عَلَى الْمَكَارِمِ، ثُمَّ لَا يُبَالِي أَوْقَعَ عَلَى الْمَوْتِ، أَوْ وَقَعَ الْمَوْتُ عَلَيْهِ»^(٤).

واسمعوا عن أمير المؤمنين عليه السلام فيما روي عنه: «وَاللَّهُ لَا يُبَالِي ابْنُ أَبِي طَالِبٍ أَوْقَعَ عَلَى الْمَوْتِ أَوْ وَقَعَ الْمَوْتُ عَلَيْهِ»^(٥). اطمئننا برضا الله.

وقيل لعلي بن الحسين عليه السلام: ما خير ما يموت عليه العبد؟ قال: «أَنْ يَكُونَ قَدْ فَرَغَ مِنْ أَتْيَتِهِ، وَدَوْرِهِ وَقُصُورِهِ»، قيل: وكيف ذلك؟ قال: «أَنْ يَكُونَ مِنْ ذُنُوبِهِ تَائِبًا، وَعَلَى الْخَيْرَاتِ مُقِيمًا، يَرُدُّ عَلَى اللَّهِ حَبِيبًا كَرِيمًا»^(٦). الله أكبر، الله أكبر، أن يرد عبد على الله حبيباً كريماً، ما قيمة ووزن هذه الذات التي تكون محبوبة، وأكثر من محبوبة؟

١. نهج البلاغة للرضي: ٩٥ ح ٦٤.

٢. غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٢٨.

٣. الدرة الباهرة من الأصداف الطاهرة للشهيد الأول: ١٩ ح ٢٦.

٤. المصدر نفسه.

٥. المصدر نفسه.

٦. الدهوات للراوندي: ١٢٢ ح ٣٠٠.



حبيبة الله ﷺ، وكريمة عنده، فشيء كبير أن تكون كريماً عند فقيه تقي ورع، وشيء كبير جداً أن تكون كريماً عند العباس بن علي بن أبي طالب، وأن تكون كبيراً عند الله ﷻ!!^(١).

١. خطبة الجمعة (٢٨) ٢٤ رجب ١٤٢٢هـ - ١٢-١٠-٢٠٠١م..

الفصل الثاني: حياة البرزخ (القبر)

ابتداء الآخرة

"يوم الآخرة التي تبدأ بيوم الموت ليس ببعيد، وما بيننا وبين يوم الرّحيل الذي نشهد فيه عالم الآخرة، ليس على حدّ ما بيننا وبين يوم البعث الذي قد يطول على أن كلّ آتٍ قريب، وأنّ طبيعة يوم النّشور ستتكشّف لها معالم في عالم القبور"^(١).

معنى البرزخ

"البرزخ لغة: ما بين كلّ شيئين، والحاجز بين الشيئين، وهو في الإسلام ما بين الدنيا وبعث النفوس يوم المعاد، مبدأه من الموت ومنتهاه يوم يبعثون، فمن مات فقد دخل البرزخ.

وبالموت نودع نوع حياة، ونستقبل حياة من نوع آخر، والموت مفارقة الرُّوح للجسد، وانقطاع صلتها به، ولا تفارقه لتموت.

فالبرزخ مطلقاً أو على تفصيل عالم حياة، ولكنها حياة روح لا بدن يغدو ويروح، وله آلامه الحسية ولذائده"^(٢).

١. خطبة الجمعة (٤١١) ٢٧ جمادى الثاني ١٤٣١هـ - ١١ يونيو ٢٠١٠م.

٢. خطبة الجمعة (٤١٢) ٥ رجب ١٤٣١هـ - ١٨ يونيو ٢٠١٠م.

أدلة البرزخ

”وحياة البرزخ أدلتها من النصوص وافرة كتاباً وسنة، فمن الكتاب:

[١- قوله تعالى]: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

فموت الإنسان، هو: استيفاء لنفسه بتمامها من خالقها، وإمساكها بعيداً عن البدن، لتنقطع صلةً بينهما كانت تمد البدن بالحياة، وليس الموت إعداماً للنفس وإنهاء لها، فقضاء الموت عليها بقطع تلك الصلة، وإبطال تأثير الروح في البدن بإعطائه الحياة. وتبقى النفس محفوظة عند بارئها من الضياع، مصونة من التلف، في مأمن بقدرته من العدم.

[٢- قوله تعالى]: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٢).

إنها حياةٌ ثرة، تنبئ بها الآية الكريمة، ويشعر بها أصحابها وتهنئهم، ولا نملك نحن في عالمنا الحسي أن نشعر بآثارها، ونشهد مظاهرها التي يعيشونها هم.

[٣- قوله تعالى]: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ

١. الزمر: ٤٢.

٢. البقرة: ١٥٤.

أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ^(١).

إنها حياة بعد الموت الذي لم يصب أرواحهم التي صارت تتلقى رزقا كريما من الله، ويغمرها الفرح، وتعيش حالة الاستبشار، والسرور بكريم النعمة، وجميل الفضل، وتغنى بالمشاعر الطيبة، ونسائم الروح الهائلة المنعشة.

[٤- قوله تعالى]: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ، النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾^(٢).

بعد الموت وإلى ما قبل يوم القيامة يعرض آل فرعون على النار غدوا وعشيا وربما كان هذا تعبيرا عن الاتصال، وهذا نوع عذاب بالنار وهو فرع الحياة والشعور وإحساس الروح بالألم، أما يوم القيامة فيأتي مكان العرض على النار الإدخال فيها، والتغلغل في طبقاتها^(٣).

وبهذا نتعرف من الكتاب الكريم على حياة للإنسان بعد الموت يرفل فيها سعداء الطاعة بنوع من النعيم تعيشه الروح، ويعاني فيها أشقياء المعصية من سوء عذاب^(٤).

ومن الحديث في قضية البرزخ:

[١-] عن الإمام زين العابدين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ

١. آل عمران: ١٦٩-١٧١.

٢. غافر: ٤٥-٤٦.

٣. بعد لحظة من الموت نلتقي بالبرزخ فإما نلتقي بنعيم أو بشقاء ويحدث انقلاب في حياة الإنسان، كافر متهنئ في الحياة تنقلب حياته رأسا على عقب بموته، ومؤمن يعيش شقاء الألم والأمراض والفقر والخوف، تتحول حياته تحولا هائلا جذريا بموته. «منه حفظه الله»

٤. خطبة الجمعة (٤١٢) ٥ رجب ١٤٣١هـ - ١٨ يونيو ٢٠١٠م.

يُبْعَثُونَ»^(١)، [قال]: «هُوَ الْقَبْرُ، وَإِنَّ لَهُمْ فِيهِ لَمَعِيشَةً ضَنْكًا، وَاللَّهُ إِنَّ الْقَبْرَ لَرَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّارِ»^(٢).

و[٢-] عن الإمام الصادق عليه السلام: «الْبَرْزَخُ: الْقَبْرُ، وَفِيهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ بَيْنَ الدُّنْيَا»^(٣)،
فنفس المجرم تتلقى عقابا في البرزخ، ونفس المحسن تتلقى ثوابا.

و[٣-] عن الإمام علي عليه السلام: «يَا ابْنَ نَبَاتَةٍ: لَوْ كُشِفَ لَكُمْ لَرَأَيْتُمْ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا الظَّهْرِ»^(٤)، حَلَقًا يَتَزَاوَرُونَ وَيَتَحَدَّثُونَ»^(٥).

و[٤-] عن رسول الله ﷺ عند وقوفه على قتلى بدر: «يَا أَبَا جَهْلٍ، يَا عْتَبَةَ، يَا شَيْبَةَ، يَا أُمَيَّةَ»^(٦)، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا» فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تَكَلَّمُ مِنْ أَجْسَادٍ لَا أَرْوَاحَ فِيهَا؟! فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ جَوَابًا»^(٧)، حيل بينهم وبين الناس على

١. المؤمنون: ١٠٠.

٢. الخصال للصدوق: ١ / ١٢٠ ح ١٠٨. قضية يقسم عليها الإمام عليه السلام كما في الخبر عنه. «منه حفظه الله»

٣. تفسير القمي للقمي: ١ / ١٩.

٤. النجف، وادي السلام. «منه حفظه الله»

٥. سرور أهل الايمان في علامات ظهور صاحب الزمان عليه السلام لبهاء الدين النيلي: ١١٧. بأي لغة؟ عند الله ﷻ، بأي لسان عند الله ﷻ، وهو ليس اللسان الحسي، معناه ليست عندهم السنة حسية. «منه حفظه الله»

٦. قتلى قریش. «منه حفظه الله»

٧. كنز العمال للهندي: ١٠ / ٣٧٦ ح ٢٩٨٧٤.



الأرض.

هذه نماذج من الأحاديث في البرزخ، وهي توضح أن هناك حياةً روحيةً يتمتع فيها المؤمن، ويشقى فيها الكافر والمنافق والفاجر، ومبدأ هذه الحياة بعد الموت، وأن عالم القبر، عالم إدراك وشعور، ونعيم وعذاب، وشقاء وسعادة^(١).

القبر أول موقف من مواقف الآخرة:

”إنَّ الإنسانَ لِيُؤَاجَهُ بعدَ موتهُ بأوَّلِ منازلِ الآخرةِ وهو القبرُ“^(٢). وقد جاء عن الرسول ﷺ في ذلك: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ»^(٣).

إنَّ النُّقْلَةَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْقَبْرِ وهو أول منازل الآخرة نقلة صعبة بطبيعتها مستوحشة لم تعرفها حياة الإنسان، وليست على حدٍّ ما عرفته دنياه من نقلاتٍ وتنقلاتٍ، وليست له تجربة مماثلة أو مشابهة لها؛ فحتَّى النُّقْلَةُ الْقَهْرِيَّةُ الْمَفَاجِئَةُ إِلَى سَجَنٍ مِنْ سَجُونِ الدُّنْيَا لَا تُسَاوِي فِي غَرِبَتِهَا وَقَلْقِهَا وَفَزَعِهَا وَتَرْقُّبِهَا مِنْهَا شَيْئاً.

إنَّهَا نَقْلَةٌ إِلَى عَالَمٍ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ عَالَمِنَا الْمَأْلُوفِ، وَإِلَى ضَيْقٍ وَخَنَاقٍ، وَمَحْكُومِيَّةٍ قَائِمَةٍ بِصُورَةٍ حَاضِرَةٍ دَائِمَةٍ لَا مَفْلَتَ مِنْهَا لِنَفْسٍ بَلَغَ بِهَا الْعَذَابُ مَا بَلَغَ وَلَا فَتُورٌ، نَقْلَةٌ مَرْعَبَةٌ فِي كُلِّ أَبْعَادِهَا إِلَّا لِنَفْسٍ قَدَّمَتْ لَغْدَاً خَيْراً كَثِيراً، وَنَالَتْهَا رَحْمَةُ اللَّهِ وَعَفْوُهُ الْعَظِيمُ.

١. خطبة الجمعة (٤١٢) ٥ رجب ١٤٣١هـ - ١٨ يونيو ٢٠١٠م.

٢. وليس بعيداً بين لحظة الموت وبين النزول في حفرة الحساب. «منه حفظه الله»

٣. الدعوات للراوندي: ٢٥٩ ح ٧٣٧. فالقنطرة صعبة على من عصى، وسهلة إن شاء الله على من أطاع. «منه حفظه الله»

وإنَّ القبر الذي جاء فيه عن الصادق عليه السلام: «إِنَّ لِلْقَبْرِ كَلَامًا فِي كُلِّ يَوْمٍ، يَقُولُ: أَنَا بَيْتُ الْغُرَبَةِ، أَنَا بَيْتُ الْوَحْشَةِ، أَنَا بَيْتُ الدُّودِ»^(١)، أَنَا الْقَبْرُ، أَنَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّارِ»^(٢).

إنَّ الأنس بالدنيا، والانشداد الكلي لها، وانصراف النظر إليها، ودوام ذكرها، والغفلة عن الآخرة، ونسيان أمرها كلما عظم زاد في غربة القبر ووحشته، وهو لمن لم يعيش إلا لبدنه، ولم يعط اهتماماً إلا للحياة الجسد ولذته لن يجد منه إلا بيت دود وقذارة وقيح وصديد، ولن يجد منه إلا منظراً بشعاً منفراً مفرعاً.

وهو لمن أكرم نفسه بطاعة الله سبحانه، ونور قلبه بعبادته روضة من رياض الجنة، ولمن أساء لنفسه، وأفسد قلبه بمعصية الله، والخروج من طاعته إلى طاعة العبيد والهوى حفرة من حفر النار، ومحطة من محطات العذاب.

ومتى يواجه أحدنا بذلك المال، أو بهذا المصير؟ قد لا يكون الفاصل إلا ساعات يسيرة، والمعبر ليس بالطويل^(٣).

إن امرءاً لم يعيش فكر الآخرة، وينفصل في كل حياته عن شعورها، وليس له شيء من همها وهدفها، ويفر بعيداً كل البعد في دنياه عن كل خبر من خبرها، وعن كل ما يتصل بها لا بد أن يعيش غربة القبر، ومن لم يكن له أنس إلا أنس الشهوات الدنيا ما حل منها أو حرم، ولا ألفة له إلا بأسبابها، ولا احتضان من نفسه إلا للذائذها، ولا تطيب

١. هذا بعد قصور، وبعد أولى أنس، وبعد أصحاب، وأهل وعشيرة. «منه حفظه الله»

٢. الكافي للكليني: ٣ / ٢٤٢ ح ٢. كيف يكون قبري؟ يكون طبقاً لما نويت ولما عملت. «منه حفظه الله»

٣. هذا كلام نعيشه الآن خيالاً، أما بعد ساعة وساعتين فقد أعيشه واقعاً وحقيقة. «منه حفظه الله»



نفسه شعوراً إلا بأهلها، ولا تهدأ إلا بمجالسة ومعاشرة ومسامرة فساقها وفجارها لا بد أن يلقي في القبر وحشة قاتلة تلف وجوده كله، وتستولي عليه، وتغرق كل ذاته وآناته.

وتبدو أهوال القبر، وأجوائه السوداء الكالحة، وألوان عذابه لعدو الله وهو يحمل إليه، وقبل أن يودعه فيقدم الوعظ لمن بعده، ويسدي النصيحة والإنذار والتحذير وهو على نعشه لمن خلفه من إخوان له في غيبه أو على خلاف ضلالتة، وفي هذا ما جاء عن الرسول ﷺ: «إِذَا حُمِلَ عَدُوُّ اللَّهِ إِلَى قَبْرِهِ، نَادَى مَنْ تَبَعَهُ: يَا إِخْوَتَاهُ، احْذَرُوا مِثْلَ مَا وَقَعْتُ فِيهِ، إِنِّي لَأَشْكُو إِلَيْكُمْ دُنْيَا غَرَّتْنِي، حَتَّى إِذَا أَطْمَأْنَنْتُ إِلَيْهَا صَرَعْتَنِي، وَأَشْكُو إِلَيْكُمْ أَخْلَاءَ الْهُوَى سُرُونِي، حَتَّى إِذَا سَاعَدْتُهُمْ تَبَرَّءُوا مِنِّي وَخَذَلُونِي»^(١) (٢).

وماذا صرعت منه الدنيا وشهواتها الزائلة، وأمانيتها الزائفة؟! ربما صرعت جسداً ولكن أسفه وألمه وحسرتة وشكواه ليس من ذلك لأنه يهون.. كل ما يعنيه ويتندم عليه، وينقم على من أوقعه فيه من دال على المعصية، ومزين للقبیح، ومعاقر للخمرة، وشريك في المخدرات، ومغرر بالزنا، وموقع أو موقع في الفجور إنما هو خسارة الروح والقلب والضمير، وحياة الإيمان بالله ومعرفته وطاعته وعبادته إذ لا شاغل ذلك اليوم للإنسان غير هذه

١. تنمة الحديث: «وَأَشْكُو إِلَيْكُمْ أَوْلَاداً آثَرْتُهُمْ عَلَى نَفْسِي فَأَسْلَمُونِي، وَأَشْكُو إِلَيْكُمْ مَالاً، مَنَعْتُ مِنْهُ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى فَعَادَ وَبَالَآ وَنَفَعَهُ لَغَيْرِي، وَأَشْكُو إِلَيْكُمْ طُولَ الثَّوَاءِ فِي قَبْرِ يُنَادِي: أَنَا بَيْتُ الْوَحْشَةِ، وَبَيْتُ الظُّلْمَةِ. يَا إِخْوَتَاهُ، فَاجْتَنِبُوا مِثْلَ مَا حَلَّ بِي، وَاحْذَرُوا مِثْلَ مَا لَقِيتُ، يَا طُولَ ثُبُورَاهُ، مَا لِي مِنْ شَفِيعٍ يُطَاعُ، وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ، يَا عَظِيمَ حَسْرَتَاهُ، لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

٢. تنبيه الخواطر لورام: ٢ / ٢٢٤.

الخسارة^(١)، وما يرتبط بالمصير.

وحياة القبور أول ما يشهده الإنسان من عدل الآخرة التي لا حكم فيها لغير الله، فهناك لا أثر لغنى أو فقر في تقديم أو تأخير، وإنما المنظور في ذلك قيمة الذات، ورفعها أو دناءتها، وفي القبر يتحول الغني والفقير إلى شيء واحد من أعضاء متفككة، أو رميم أو تراب ذاب في التراب.

وماذا يعني ضيق القبر وضنك وظلمته وغربته؟

أهو ضيق وضنك يعاني منه بدنه، وظلمة تستولي على بصره، وغربة يرفعها جليس من أهله؟

الأمر أعمق من هذا، وأشد وأقسى.. إنه ضيق وضنك وكرب يأخذ على الروح كل أقطارها، وظلمة يأس، وانطفاء أمل، وهم وغم، وألم وعذاب، ودونية تعيش شعورها النفس، وإحساس بندامة لا مفر منها ولا مخرج، ومعاناة من طعم الاحتقار، وما يلهم من خوف وفزع ورعب، وأهوال فوق كل حساب.

ولعليّ عليه السلام في المنقول عنه حديث عن هذا الضيق والزنك والظلمة والغربة: «يَا عِبَادَ اللَّهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ لِمَنْ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ أَشَدُّ مِنْ الْمَوْتِ الْقَبْرِ فَاحْذَرُوا ضَيْقَهُ وَضَنْكَهُ وَظُلْمَتَهُ وَغُرْبَتَهُ - إلى أن يقول - وَإِنَّ الْمَعِيشَةَ الضَّنْكَ الَّتِي حَذَّرَ اللَّهُ مِنْهَا عَدُوَّهُ عَذَابُ الْقَبْرِ»^(٢).

وذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ﴾

١. ألم الأمراض والفقر ومصائب الدنيا كلها زال وانتهى، ما يكون حاضرا ذلك اليوم هو مستوى الروح،

نعيم الروح، عذاب الروح، ألم الروح، سرر الروح. «منه حفظه الله»

٢. الأماي للمفيد: ٢٦٤ ح ٣.



يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى»^(١).

والقبر موقف من مواقف السؤال، وموقع من مواقع الامتحان الذي يبدأ بعد لحظة الموت، والذي لا تأتي فيه مغالطة، ولا يثبت فيه إلا من ثبت على كلمة التوحيد في الحياة؛ فعن علي عليه السلام: «حَتَّى إِذَا انْصَرَفَ الْمُسَيِّعُ^(٢)، وَرَجَعَ الْمُتَفَجِّعُ، أُقْعِدَ فِي حُفْرَتِهِ، نَجِيًّا لِبَهْتَةِ السُّؤَالِ، وَعَثْرَةِ الْاِمْتِحَانِ»^(٣).. إنه لسؤال لا تُجيب عليه طلاقة اللسان، وقوة البيان، وإنما الذي يجيب عليه صدق الإيمان، وطهارة الجنان، وصفاء الروح، ومعرفة القلب، وحسن العمل فيما قدم الإنسان في هذه الحياة.

يُجِيبُ عَلَى سُؤَالِ الْقَبْرِ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ، والكلمة الصِّدْق، والإسلام الحق فعن الرسول صلوات الله عليه وآله: في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(٤)، قال: «فِي الْقَبْرِ إِذَا سُئِلَ الْمَوْتَى»^(٥).

إنَّ الإيمان بالقول الثابت، والتوحيد الحق، والإسلام الصِّدْق ليُثَبِّتَ صاحبه أمام كلِّ امتحانات الدنيا وتحدياتها، ويُثَبِّتَهُ فِي الْآخِرَةِ عِنْدَ كُلِّ عُقْبَةٍ وَامْتِحَانٍ.

١. طه: ١٢٤. الضنك المعني في هذه الكلمة هو ضنك القبر الذي لا يساوي منه كلُّ ضنك في الحياة شيء يُذكر. «منه حفظه الله»

٢. ليست هناك مهلة بين لحظة الدفن ولحظة السؤال، بمجرد أن يغادر آخر نفس يكون الاستعداد للموارة، قد يكون المرء في كامل نشاطه، وأرغد أمانيه، وإذا به ينتهي لحادث أو آخر، وكم بين هذه اللحظة وبين دخول عالم جديد غريب وعالم حساب عسير شديد، كم؟! «منه حفظه الله»

٣. نهج البلاغة للرضي: ١١٣ ح ٨٣.

٤. إبراهيم: ٢٧.

٥. الأُمالي للطوسي: ٣٧٧ ح ٨٠٧.



الاستعداد للقبر:

”عن الإمام زين العابدين عليه السلام، ومن تمام كلمته: «فَخُذْ حِذْرَكَ، وَاَنْظُرْ لِنَفْسِكَ، وَأَعِدَّ الْجَوَابَ قَبْلَ الْامْتِحَانِ وَالْمُسَائِلَةِ وَالْاِخْتِبَارِ»^(١).

الوصية هنا: أن لا نشتغل بشيء من عظام أمور الحياة الدنيا، فضلاً عن تفاهاتها عن أمر الآخرة والإعداد لها^(٢). فكل ما عظم في نظر الإنسان من شؤون هذه الحياة وأحداثها، لا يمثل شيئاً بالنسبة لأمر الآخرة، ولا يصح أن يصرف عنها، ولا يملك أن ينقذ من خطرها، ولا يحقق فوزاً فيها^(٣).

ولأن المسافة بين يوم الدنيا ويوم الآخرة قريبة، وأجل المرء لا يعلمه، ولا حد من زمن للحياة هناك صار إهمال شأن الآخرة غباءً وسفهاً وتفريطاً، وعدم الاستعداد ليومها المباغت تضيقاً، وفيه من الظلم للنفس ما لا يرتكبه عاقل في حق نفسه، ولا تدارك بعد الموت لدفع الضرر حيث يبدأ الحساب وينتهي العمل.

وإن الإمام زين العابدين عليه السلام لينصح الإنسان، وهو الناصح المشفق الحكيم، بأن يحتاط في الحياة لمصيره، ويحذر من أخطار مستقبله، ويعدّ الجواب لأكبر امتحان يلقاه، ومساءلة يتعرض لها، واختبار يواجهه، ومحكمة يرغم عليها مقهوراً بين يدي العزيز

١. الكافي للكليني: ٨ / ٧٣ ح ٢٩.

٢. أي عظيم من أمور الدنيا في نظرك، هو شيء لا يستحق أن يستوقف أحداً منا وأن يقطعه عن طريق الآخرة. «منه حفظه الله»

٣. الحروب، الزلازل، الكوارث العظمى، الأوبئة الجارفة كل آلام الدنيا لا يصح أن تلهينا عن أمر الآخرة الآخرة الذي هو أعظم. «منه حفظه الله»



الجبار، العدل الحكيم يوم يلقي كتاباً بما كسب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها^(١).
 "وَيُرِيدُنَا الْإِمَامُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ نَأْخُذَ الْآخِرَةَ بِأَخْذِ الْجَدِّ، وَأَنْ نَجْعَلَ الدُّنْيَا مَرْكَبَنَا إِلَيْهَا،
 وَأَنْ نَتَزَوَّدَ مِنْ أَيَّامٍ نَعِيشُهَا عَلَى الْأَرْضِ لِيَوْمِ الْمَمَاتِ، وَيَوْمِ الْمَعَادِ، وَتَأْتِي كَلِمَتُهُ فِي هَذَا
 الْمَجَالِ، لِنُتَوَقَّفَ الْعَقْلَ، وَتَهْزَأَ الْقُلُوبُ، وَتَلْهَبَ النَّفْسُ بِشُعُورِ الْآخِرَةِ، وَتُثِيرَ تَوَجُّهُهَا إِلَيْهَا،
 وَتُشْعَلَ اهْتِمَامُهَا بِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، يَقُولُ فِي الْكَلِمَةِ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فَإِنَّكُمْ لَوْ قَدْ عَايَنْتُمْ مَا قَدْ عَايَنَ
 مَنْ مَاتَ مِنْكُمْ، لَجَزَعْتُمْ، وَوَهَلْتُمْ^(٢)، وَسَمِعْتُمْ، وَأَطَعْتُمْ، وَلَكِنْ مَحْجُوبٌ عَنْكُمْ مَا قَدْ
 عَايَنُوا، وَقَرِيبٌ مَا يُطْرَحُ الْحِجَابُ»^(٣).

والقائل خيرٌ بدين الله وأمر الآخرة وإن لم يلقَ من أمرها شيئاً، ومصدره الوحي
 المنزل على رسول الله ﷺ الذي لم يمسه غبار، وبصيرة من الله لا تزل، وعلمه لا
 تعرضه شبهة، ولا تصرف عنه غفلة، ولا يكدره هوى، ولا يقاربه شيطان.

وحقاً لو عاين أحياء الناس ما عاين أمواتهم من هول الموت وما بعد الموت، ومن
 كُرْبَات، وغصص، ومضائق، وتكشّف حقائق وغوامض لما أعرَضَ معرضٌ عن خطاب من
 خطابات الكتاب الكريم، ونداء من نداءات السنّة المطهّرة، ولما تخلف متخلفٌ عن
 تكليف^(٤)، ولسهل على النفس ما صعب عليها من أحكام^(٥).

قال تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا

١. خطبة الجمعة (٤١١) ٢٧ جمادى الثاني ١٤٣١هـ - ١١ يونيو ٢٠١٠م.

٢. وهل: فزع. «منه حفظه الله»

٣. نهج البلاغة للرضي: ٦٢ ح ٢٠.

٤. ولما أسفرت مسفرة، ولما تبيّع متميّع، ولما هلى لاه. «منه حفظه الله»

٥. خطبة الجمعة (٤١١) ٢٧ جمادى الثاني ١٤٣١هـ - ١١ يونيو ٢٠١٠م.

تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾.

ما معنى ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون؟

من معناه: أن لا تسمح للموت أن يأتيك في لحظة خفة إيمان وفقد إيمان، أنت لا تدري متى تموت وإذا أردت أن تموت مسلماً فعليك أن تكون المسلم الحق في كل حين، وإلا فمن الممكن جداً وحين يختلسنا الشيطان أن ننسى إسلامنا لحظة أن تكون لحظة النسيان هي لحظة مفارقة الحياة وفي ذلك الكارثة.

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(٢)، الوصية الأخيرة للأنبياء: الإسلام، الصلاة، التقوى، الوصية للأحبة لفلذات الأكباد للأهلين، لأنه أكبر خير وفواته أكبر خسران^(٣).

سؤال القبر:

في القبر "تستوقف النفس للسؤال، وتتعرض للامتحان، وما أشد امتحانات الآخرة، وما أقل الاستعداد لها، وما أكثر الخاسرين فيها!!

والسؤال هناك ليس عن غوامض يلتبس على الذهن الأمر فيها، وعن معادلات علمية معقدة يعسر الوصول إليها.

السؤال هناك عن حقائق جلية فرط العبد فيها، وقضايا واضحة أساء التعامل معها،

١. البقرة: ١٣٢.

٢. البقرة: ١٣٣.

٣. خطبة الجمعة (١٦) ٢٨ ربيع الثاني ١٤٢٢هـ - ٢٠-٧-٢٠٠١ م.



وأمر مصيرية خطيرة لم يُعطها حقّها، واستخفّ بوزنها؛ فأربكه عند الامتحان تفريطه، واضطرب لإساءته، وخفّت موازينه باستخفافه فكان نهب الدهشة والاضطراب والحيرة، وأسير الألم والحسرة، ومن الأخسرين أعمالاً، والموعودين ناراً.

عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «كَأَنَّ قَدْ أُوفِيَتْ أَجَلَكَ، وَقَبِضَ الْمَلِكُ رُوحَكَ، وَصَرْتَ إِلَى قَبْرِكَ وَحِيداً، فَرَدَّ إِلَيْكَ فِيهِ رُوحَكَ، وَافْتَحَمَ عَلَيْكَ فِيهِ مَلَكَانِ: نَاكِرٌ وَنَكِيرٌ لِمَسَائِلَتِكَ، وَشَدِيدَ امْتِحَانِكَ، أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ مَا يَسْأَلُكَ عَنْ رَبِّكَ الَّذِي كُنْتَ تَعْبُدُهُ، وَعَنْ نَبِيِّكَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكَ، وَعَنْ دِينِكَ الَّذِي كُنْتَ تَدِينُ بِهِ، وَعَنْ كِتَابِكَ الَّذِي كُنْتَ تَتْلُوهُ^(١)، وَعَنْ إِمَامِكَ الَّذِي كُنْتَ تَتَوَلَّاهُ، ثُمَّ عَنْ عُمُرِكَ فِيمَا كُنْتَ أَفْنَيْتَهُ، وَمَالِكَ مَنْ أَيْنَ اكْتَسَبْتَهُ وَفِيمَا أَنْتَ أَنْفَقْتَهُ، فَخُذْ حَذْرَكَ، وَانْظُرْ لِنَفْسِكَ، وَأَعِدَّ الْجَوَابَ قَبْلَ الْامْتِحَانِ، وَالْمَسَائِلَةِ وَالْاِخْتِبَارِ»^(٢).

من الضروري أن نتصور لحظة الأجل التي قد تبعد شيئاً ما عن اللحظة التي نحن فيها، وقد تكون أقرب جداً مما يذهب إليه الظن.

الفرار من تصور تلك اللحظة لا يُغني ولا يُعفي لأن الحقائق لا يُلغى عنها أن يُغفل عنها، ولا يُقلل من الآثار الخطيرة المهلكة لعدم مراعاتها أن تُهمل، وما لا بدّ من وقوعه واقع فإذا جاء على غير استعداد من النفس مثل صدمة هائلة، وعلى غير تهيؤ من العمل والتوقي والاحتياط أهلك ودمر، فلو أمكن الاستعداد للزلازل لقلت الخسائر، وقد يمكن

١. إمام حق، إمام باطل؟ بعد أن عرفت إمام الحق، وأعلنت ولاءك له، هل أخذت بخطواته؟! «منه حفظه الله»

٢. الكافي للكليني: ٨ / ٧٣ ح ٢٨.

أن يُسلم منها، أمّا إذا واجه النَّاسُ بغتةً عَظُمَتِ الكارثة^(١).

وتصوّر لحظة الموت لا للتخدير واليأس، وإنما للجِدِّ والنشاط، وحُسن العمل، والمبادرة في الخير^(٢)، وترك الشرّ، وخلوص النية، وطُهر النَّفس، والمسابقة في الصّالحات، واستثمار الفرص، وإعمار الحياة ولكن في ظلِّ قيم وأهداف الآخرة.

ونجد أن السؤال الذي تتحدّث عنه كلمة زين العابدين عليه السلام ليس عن أمور غامضة، وقضايا مستعصية كما سبق. السؤال عن:

[١-] الله [تعالى]، وهو نور السماوات والأرض الذي لا يخفى على شيء.

و[٢-] عن النبي صلى الله عليه وآله الذي قامت ذاته وسيرته، والوحي الذي جاء به من ربه، وبلّغه إلى النَّاسِ، وما أشاده من واقع كبير في الأرض، شاهد على الصّدق والعظمة والنزاهة والسّمو والتأييد من الله، وأخذَه نفسه وأهله بالشدة في ذات الله، ومعجزة الكتاب الكريم براهين ساطعة على نبوته ورسالته.

و[٣-] السؤال عن الدين الحق الذي تنطق به الفطرة، ويستريح إليه الضمير، ويحتضنه الوجدان، والمحیی للعقول والقلوب والأوضاع، والذي لا تستقيم بدونه الحياة^(٣)، ولا يطمئن الإنسان.

١. وهناك زلزال لا بدّ منه، وليس معي أحد يشاركني في مواجهته، هو زلزال يوم الموت، يوم القبر.

«منه حفظه الله»

٢. الله تعالى لا يريد أن يحدث في نفوسنا الرعب لتقعد عن النشاط في الحياة، لا ليس الأمر كذلك. «منه

حفظه الله»

٣. هذا هو الدين الذي نُسأل عنه، ليس شيئاً صعباً. «منه حفظه الله»



و[٤-] عن كتاب ناطق بالحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويعجز الجن والأنس عن أن يأتوا بمثله.

و[٥-] عن أئمة هدى لم يميلوا عن حق إلى باطل، ولم يسجل عليهم جهل ولا قصور، ولم يعدلهم أحد بعد رسول الله ﷺ علماً وهدى وإيماناً وعملاً صالحاً، وحراسة للإسلام، وجهاداً لم ينقطع في سبيل الله، وما فارقوا القرآن وما فارقهم، وما خذلهم وما خذلوه.

و[٦-] السؤال عن موقف الإنسان من دوره الذي يناسب إنسانيته، ويصح له أن يتفق فيه عمره، والذي تهديه إليه فطرته، ودل عليه وحي ربه وأنبياءه ورسله وأوليائه.

و[٧-] عن توظيفه للنعم التي وهبها له خالقه، والأسباب التي سخرها له، والوسائل التي مكنها منه.

وهو يتحمل مسؤولية إساءته لدوره، والانحراف بوظائف النعم الموهوبة له من ربه، كما يتلقى الجزاء الكريم، والمثوبة البالغة الهنيئة لإحسانه في أداء دوره، والانتفاع الصحيح بالآلاء الكريمة من عطاء خالقه^(١).

جواب القبر:

”عن الصادق عليه السلام في مساءلة القبر: «إِذَا مَاتَ الْمُؤْمِنُ، شِيعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِلَى قَبْرِهِ^(٢)، فَإِذَا أُدْخِلَ قَبْرَهُ أَتَاهُ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ، فَيَقْعَدَانِهِ وَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، وَمُحَمَّدٌ نَبِيِّي، وَالْإِسْلَامُ دِينِي، فَيَفْسَحَانِ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّةَ بَصَرِهِ،

١. خطبة الجمعة (٤١٠) ٢٠ جمادى الثاني ١٤٣١هـ - ٤ يونيو ٢٠١٠م.

٢. فرق بين موت المنافق وبين موت المؤمن، هذا تشيعه وتبشيره ملائكة الرحمة، وذاك تنذره ملائكة العذاب. «منه حفظه الله»

وَيَأْتِيَانَهُ بِالطَّعَامِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيَدْخِلَانِ عَلَيْهِ الرُّوحَ وَالرِّيحَانَ»^(١).

جواب الميت على أسئلة القبر ليس من لقلقة اللسان، ولا يجري فيه زيف ومغالطة وكذب، ولا ينطلق إلا من قلب عمره الإيمان، وصدقت فيه قضية التوحيد، وله خلفيّة من خطي في الحياة الدنيا قادها دين الله، واهتدت بمنهجه، ولم يدخلها نفاق ولا رياء^(٢).

ولو قُدِّر^(٣) للجواب الصحيح بالحق أن يتم في ذلك العالم، ولكن ليس وراءه قلب مؤمن بالله^(٤) في الحياة الدنيا، ما كان به اعتبار، ولا ينفع شيئاً، فالحساب إنما يكون على ما عليه العبد في دار الابتلاء، لا على ما صار يعاينه في دار الجزاء.

ومرّ في الحديث ذكر قضية الطعام في القبر، والقبور لا حياة للأبدان فيها بالحياة التي عرفنا، ولا وجود فيها للطعام الذي ألفنا، ولا حاجة للحياة هناك، ولا ربط لها بموائد من طعام وشراب وأسباب خاصّة مما كانت تعتمد عليها حياة الإنسان في دنياه، فما هو المتوقّع في حياة القبور للمؤمن، إنّما هي لذائذ روح وطيباتها وموائدها، وروح وريحان تنتعش له، ويهنيها.

ويأتي الحديث عن الصادق عليه السلام ليبدل على أن الناطق في القبر، إنّما هو لسان الإيمان والعمل الصالح: «إِذَا دَخَلَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ، كَانَتْ الصَّلَاةُ عَنْ يَمِينِهِ، وَالزَّكَاةُ عَنْ يَسَارِهِ،

١. الأما لي للصدوق: ٣٦٥ ح ١٢.

٢. خلفيّة الجواب الصحيح الحاضر هي هذه الخلفيّة، حفظيات، عبقریات، ذكاء كلّ ذلك لا دخل له في ذلك الجواب. «منه حفظه الله»

٣. قد لا يستطيع القول بأنه لا إله إلا الله إلا من عاش قلبه هذه القضية وصدق بها. «منه حفظه الله»

٤. لو فرضنا أن شخصاً قلبه غير مؤمن بالله، واستطاع أن يقول باللسان ربي الله، نبيي محمد، ديني الإسلام، هل يفيد شئنا؟ القضية ليست قضية كلمات. «منه حفظه الله»



وَالْبِرُّ مُطْلٌ عَلَيْهِ، وَيَتَحَيَّ الصَّبْرُ نَاحِيَةً، فَإِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ الْمَلَكَانِ اللَّذَانِ يَلَيَانِ مُسَاءَلَتَهُ، قَالَ الصَّبْرُ لِلصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْبِرِّ: دُونَكُمْ صَاحِبِكُمْ^(١)، فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْهُ فَأَنَا دُونَهُ^(٢).. هذه الأعمال الصالحة وغيرها من جنسها، وما لكل هذه الأعمال من خلفية الإيمان الصادق هي الرصيد الكبير بعد رحمة الله الواسعة، وهي فريق الدفاع، ومنها تتأتى الحجة، وتُتلقى، ويتيسر الجواب، وبها يسهل الامتحان، وتتجاوز العقبة^{(٣)(٤)}.

ما ينفع القبر:

”وعالم القبر عالم فردية لا اجتماع، وكلّ مشكلات هذا العالم -عالم البرزخ-، تحل على رأس الفرد، ولا يشاركه فيها أحد هماً، ولا يحمل من ثقله شيئاً^(٥)، ولا استنصار يقوم ولا بعشيرة ولا حزب ولا جماعة، وإذا كان من شفيع، فبسبب من عمل صالح، ولا شفاعة إلا لمن أذن الله أن يشفع، ولمن أذن أن يشفع فيه.

وفي عالم البرزخ تفقد كلّ علوم الدنيا وخبرتها ما لها من قيمة، فلا ينفع العبد شيء منها، فكل نفع من نفعها منقطع بنهاية الحياة الدنيا، فكما لا ينفع مال ولا بنون لا ينفع علم زراعة ولا صناعة، ولا خبرة بناء ولا طيران، وحتى علم العقيدة والفقه وسائر علوم الدنيا لا نفع لها في نفسها في برزخ ومعاد، النفع كلّ النفع في عقيدة قويمية، ونية سليمة،

١. أجيئوا عنه، أعينوه. «منه حفظه الله»

٢. الكافي للكليني: ٢ / ٩٠ ح ٨. أنا أتكفل بالإجابة. «منه حفظه الله»

٣. لا تحمل هم أجوبة القبر وأنت على إيمان صادق، وعمل صالح. «منه حفظه الله»

٤. خطبة الجمعة (٤١١) ٢٧ جمادى الثاني ١٤٣١هـ - ١١ يونيو ٢٠١٠م.

٥. مريض الدنيا يحضر له أهله، أصدقاؤه، عشيرته K مآسي الدنيا يشاركنا فيها القليل أو الكثير، أما هناك فيتحمل الفرد كلّ مشكلاته، لا مشاركة فيها حبيب ولا صديق. «منه حفظه الله»



وشعور كريم، وعمل صالح، وتوحيد خالص^(١).

ما يصلُّ القبر:

"ولا ينفع صاحب القبر من بعد انقطاع عمله، بكاءً ولا نحيب، من صديق ولا حبيب، ولكن ينفعه مثل ما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: لما مرَّ بقبرٍ دُفِنَ فِيهِ بِالْأَمْسِ إِنْسَانٌ، وَأَهْلُهُ يَبْكُونَ، فَقَالَ: «لَرَكْعَتَانِ خَفِيفَتَانِ مِمَّا تَحْتَقِرُونَ»^(٢)، أَحَبُّ إِلَيَّ صَاحِبِ هَذَا الْقَبْرِ مِنْ دُنْيَاكُمْ كُلِّهَا»^(٣).

إنَّ بكاءَ الأهل لمفارقة حبيبهم هذه الدُّنيا، وانقطاعه عن لذائذها، وتغييبه عنها، ولكن من فارق الدنيا، وعانِ الحقيقة، صُغِرَت الدُّنيا في عينه، إلَّا ما كان فيها من عمل صالح فيه نِجاة، بينما للركعتان شأن عظيم، حيث تقدَّمان زاداً كبيراً من زاد الآخرة، وليس بعيداً على معنى الحديث: أنَّ فرحة المؤمن في قبره بثواب ركعتين خفيفتين، يُهْدَى له أكبرُ في نفسه، وفي أثره الكريم مما لو أُعْطِيَ الدُّنيا وهو فيها، فهنيئاً لعبدٍ وَجَدَ من يصلُّه بربه من بعده، مُضَافاً لما قدَّمه من الزَّاد الكريم المقبول عند الله لنجاته وفوزه في آخرته، وهنيئاً لمن برَّ رحمته بمثل هذا البرِّ، أو برَّ به أحداً من المؤمنين^(٤).

حياة القبر ولذائذه:

١. خطبة الجمعة (٤١٢) ٥ رجب ١٤٣١هـ - ١٨ يونيو ٢٠١٠م.

٢. يعني لا ترون لهما وزناً، ولا فيهما ثقلاً، تقولان ماذا تفعل هاتان الركعتان اللتان لا تأخذان إلا دقيقتين؟! «منه حفظه الله»

٣. تنبيه الخواطر لورام: ٢ / ٢٢٥.

٤. خطبة الجمعة (٤١١) ٢٧ جمادى الثاني ١٤٣١هـ - ١١ يونيو ٢٠١٠م.



"ليس في حياة البرزخ أجسامٌ على نحو الأجسام في الدنيا، ولا طعام ولا شراب من طعامنا وشرابنا، ولكن جاء في حديث عن أبي عبد الله عليه السلام: «الْمُؤْمِنُ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يَجْعَلَ رُوحَهُ فِي حَوْصَلَةِ طَيْرٍ، وَلَكِنْ فِي أَبْدَانٍ كَأَبْدَانِهِمْ»^(١).

وفي خبر: «فَإِذَا قَبَضَهُ اللَّهُ ﷻ، صِيرَ تِلْكَ الرُّوحَ فِي قَالِبٍ كَقَالِبِهِ فِي الدُّنْيَا، فَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، فَإِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمُ الْقَادِمُ عَرَفُوهُ بِتِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا»^(٢)، وإذا كان ذلك فتلك الأبدان من غير نوع أبداننا بما هي عليه من دم ولحم ومادة معينة، وإنما هي قوالب وصور من نوع آخر تماثل هذه الأجسام في هيئتها، ويتراءى بها الشخص كأنه كما كان في الدنيا على حدٍّ ما نراه في حياتنا هذه في المنام، من صور من مات من حبيب وصديق.

وأكل أهل البرزخ وشربهم ربما كان على حدٍّ تلذذ النائم بما يحصل له من حوادث سعيدة في هذه الحياة"^(٣).

و"قِيلَ لِمُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام مَا الْمَوْتُ؟ قَالَ: «هُوَ النَّوْمُ الَّذِي يَأْتِيكُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَّا أَنَّهُ طَوِيلٌ مُدَّتُهُ، لَا يُتَبَّهُ مِنْهُ إِلَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ رَأَى فِي نَوْمِهِ مِنْ أَصْنَافِ الْفَرَحِ مَا لَا يَقَادِرُ قَدْرَهُ، وَمِنْ أَصْنَافِ الْأَهْوَالِ مَا لَا يَقَادِرُ قَدْرَهُ، فَكَيْفَ حَالُ فَرَحٍ فِي النَّوْمِ وَوَجَلٍ فِيهِ، هَذَا هُوَ الْمَوْتُ فَاسْتَعِدُّوا لَهُ»^(٤).

١. الكافي للكليني: ٣ / ٢٤٤ ح ١.

٢. الكافي للكليني: ٣ / ٢٤٥ ح ٦.

٣. خطبة الجمعة (٤١٥) ٢٦ رجب ١٤٣١هـ - ٩ يوليو ٢٠١٠م.

٤. معاني الأخبار للصدوق: ٢٨٩ ح ٥.



تنام الليلة الواحدة، ليلة تقضيها مسروراً سعيداً أكثر سعادة من كل حياتك، تداعبك فيها الأحلام الجميلة الخضراء، وترى نفسك راقية، [و] ترى نفسك عالماً تحل المشكلات العلمية في لحظة، [و] ترى نفسك السعيد في كل الجوانب.

وليلة أخرى: يعيشها إنسان، يرى نفسه: عذاباً نفسياً ألماً قاسياً، تتهدده السباع، [و] تتوثب عليه الحيات والثعابين، [و] تهجم عليه العقارب، [و] تجتمع عليه الأعداء، فيقضي ليلته عذاباً شديداً مرّاً.

حياة البرزخ هي إحدى هذين اللونين، وهذه هي البداية، المسألة تبدأ على مستوى النوم، ثم تنتقل على مستوى اليقظة يوم يبعثون «فَاسْتَعِدُّوا لَهُ»^(١) «(٢)».

١. معاني الأخبار للصدوق: ٢٨٩ ح ٥.

٢. خطبة الجمعة (٢٨) ٢٤ رجب ١٤٢٢ هـ - ١٢-١٠-٢٠٠١ م..

الفصل الثالث: النفخ في الصور

نفختان في الصور

"[قال تعالى]: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾^(١).

الصَّعَقَ - كما في لسان العرب^(٢) -: بمعنى الغشية، وكذلك الموت، والمعروف أنها في الآية بالمعنى الثاني، وهو الوارد في أحاديث أهل البيت عليه السلام كما يذكر صاحب الميزان.

والآية تتحدث عن نفختين في الصور:

الأولى: يُصعق لها من في السماوات والأرض إلا من شاء الله.

والثانية: نفخة البعث والقيام حيث الحشر للحساب والجزاء.

والاستثناء في ضوء قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٣)، لا يعني أن أحداً من دون الله لا يموت إلى يوم البعث والمعاد، فمن كان له استثناء من الموت بالنفخة الأولى فلا بد من بعد ذلك أن يموت. وقد قيل بأن بعضاً من الملائكة لا تشملهم هذه النفخة فلا يُصعقون فيمن يصعق بها، ولكن لا بد لهم من الموت

١. الزمر: ٦٨.

٢. لسان العرب لابن منظور: ١٠ / ١٩٨.

٣. القصص: ٨٨.



بمقتضى عموم ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(١).

ثمّ ما تتناوله النفخة الأولى بصعقتها، هي حياة الأجسام بمفارقة الروح لها، دون الروح في حياتها^(٢)؟

أو تتناول النفخة، والصعقة الأرواح نفسها، فتذهب كما تذهب الأبدان؟

وعلى الأوّل يكون البعث بإعادة الأرواح للأجسام، وعلى الثاني يكون بإحياء الأرواح وإعادتها للأبدان معاً.

ولو كان الذي يموت بالنفخة الأولى كلاً من الأبدان والأرواح فإنّ فاصلة ما بين الموت والبعث تكون فيها حياة روح قبل النفخة ثم يعقبها موت، أما لو كان ما يموت بالنفخة إنّما هي الأبدان القائمة آنذاك خاصّة دون الأرواح فإنّ فاصلة البرزخ تكون كلّها عامرة بالحياة، ولا يكون البعث إلا بإعادة الأبدان ورجوع أرواحها لها.

وقد احتُمِلَ في المستثنى في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾^(٣)، أن يكون البعض من الأحياء، كبعض الملائكة، فلا يُصعقون بالنفخة الأولى، وإن ماتوا بعد ذلك، كما احتُمِلَ أن يكون المستثنى هي الأرواح، فلا تصاب بموت، وإنما يستمر خلودها إلى يوم القيامة، والذي هو وما بعده يوم حياة، لا موت على الإطلاق.

ويقول صاحب الميزان: بأنّ الرّأي ببقاء حياة الأرواح وامتدادها إلى يوم القيامة بلا

١. القصص: ٨٨.

٢. أيهما الذي يُصعق، حياة البدن، أم كلاً من حياة البدن والروح؟. «منه حفظه الله»

٣. الزمر: ٦٨.



انقطاع، تؤيده بعض روايات أهل البيت عليهم السلام ^(١).

ويلتفت إلى أن المؤيد أقل مستوى من الدليل.

ويأتي سؤال على هذا الفرض، وهو: أنه إذا كانت الأرواح باقية، لا ينالها موت بالنفخة الأولى، ويمتد البقاء بها إلى يوم القيامة، فما هو موت الملائكة، وهم وجودات روحانية، بلا شائبة من المادة؟

وإذا كانوا، وهم أرواح، لا يصيبهم ممات، فأين مكان العموم في قوله سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ ^(٢)؟

ومفاد الآية يركز على تفرد الله سبحانه بعزّ البقاء، دون من عداه الذي يناله ذلّ الفناء، وهو معنى لا يكاد يقبل التخصيص، ولا يوجد شيء واضح في تخصيصه.

ولو طرح احتمال بقاء الأرواح بعد النفخة الأولى، بصورة كلية، فمع استثناء بعض الملائكة أو الأرواح الإنسانية الكريمة على الله بدرجة عالية، من الصّعق بهذه النفخة، فإنّ الموت ينالها قبل يوم القيامة، والله العالم وله المشيئة المطلقة، والحكمة البالغة.

ونقرأ من آيات النفخة الأولى ما يأتي: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ ^(٣). وكما يرى البعض أن هذه الآية من آيات النفخة الأولى يراها آخر أنها من آيات النفخة الثانية، ولا يستبعد صاحب الميزان أنها تعمّ كلاّ منهما.

١. تفسير الميزان للطباطبائي: ١٧ / ٢٤٠.

٢. القصص: ٨٨.

٣. النمل: ٨٧.



والفرع كما هو وارد في الأولى وارد في الثانية، وكل من يوم الإماتة ويوم البعث يوم ذخور وذُلّ لقهر الله وسلطانه وحاكميته.

وإذا كانت هذه الآية في النفخة الأولى فهي تلتقي مع كون الصعقة التي تحدثت عنها الآية السابقة بكونها صعقة غشية للفرع المستثنى منه من شاء الله وإن كان الموت عاماً للجميع كما يفيد قوله سبحانه: ﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ دَاخِرِينَ﴾^(١). ومن آيات هذه النفخة حسب السياق: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾^(٢).

إن الكفار الذين يتساءلون -مستبعدين- عن يوم الدين بينما هم في تنافس وتخاصم على الدنيا وأمواها ومواقعها وزينتها وإذا هم بصعقة واحدة لا أكثر، وأمر إلهي نافذ يأتي عليهم جميعاً وينهيهم وهذه الحياة لتعقبها نفخة البعث الذي عنه يتساءلون.

وأما آيات النفخة الثانية فكثيرة، وهذا منها: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ، وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً، فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾^(٣)، إلى قوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾^(٤)، ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾^(٥)، ومن تفسير هذه الزرقة، أنها زرقة الأبدان من الفرع والهلع والرعب المحيط بالنفوس، أو من التعب والعطش والجهد الشديد.

١. النمل: ٨٧.

٢. يس: ٤٩-٥١.

٣. الحاقة: ١٣-١٥.

٤. الحاقة: ١٨.

٥. طه: ١٠٢.



وتفسير آخر يقول: بأنها زرقة عمى العيون، مما قد يلتقي مع قوله سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَ﴾^(١). وذلك إذا كان العمى في هذه الآية بمعناه الحسي المعروف.

ويقول سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾^(٢)، ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾^(٣).

بعث الخلق الكثير الهائل، وجمع كل النفوس، وكل من أتى عليه الموت من الأولين والآخرين على الله يسير، فلا يحتاج الأمر إلى أكثر من كن فيكون، وأن يريد الله الملك الحق الذي لا يؤخر إرادته شيء، فالأمر التكويني المعبر عنه بالنفخة يحضر بلا تأخير كل كبير وصغير، وكل قوي وضعيف، وكل مؤمن وكافر، ومتق وفاجر، وكل من مضى وغبر ليقوم الناس للحساب: ﴿وَلَتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^{(٤) (٥)}.

١. الإسراء: ٩٧.

٢. الكهف: ٩٩.

٣. النبأ: ١٨.

٤. الجاثية: ٢٢.

٥. خطبة الجمعة (٤١٣) ١٢ رجب ١٤٣١هـ - ٢٥ يونيو ٢٠١٠م.

الفصل الرابع: المعاد

معنى المعاد

"في المعاد نعود للحياة بعد الموت، وتعود القلوب عارفة بالله، موحدة له، لا تشرك به شيئاً، ولا تجعل له ندّاً، ولا ترى معه فاعلاً، ولا لما قدم مؤخراً، ولا لما آخر مقدماً، ولا من غيره ضاراً أو نافعاً، ولا تعتقد تعويلاً على غيره، ولا تُوكِلُ أمراً من أمرها إلى من سواه، وكلّ خوفها منه، ورجائها فيه، وتعلقها به، وأملها في رحمته، ونظرها إلى عفوه ومغفرته؛ تعود القلوب كذلك كما كانت على فطرتها، ويوم خلقها بعد أن زاع منها ما زاع، وضلّ ما ضلّ، وارتاب ما ارتاب في الحياة الدنيا لمزاحمات الإيمان، ومكدرات الأرواح، وبواعث الفساد من شيطان مضلّ، وهوى في النفس، وغوى في الخارج، وفتن تعترض الطريق، وابتلاءات طاغية، ومزالق خطيرة مهلكة ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(١).

تعود الرؤية يوم القيامة واضحة جليّة، مديدة غير قاصرة، قوية غير ضعيفة، مستقيمة غير منحرفة، لا ترى الله ﷻ عديلاً، ولا مثلاً ولا ولداً، ولا تجد من دونه إلهاً أبداً، وتراه واحداً أحداً فرداً صمداً^(٢).

١. ق: ٢٢.

٢. خطبة الجمعة (٤٠٤) ٨ جمادى الأولى ١٤٣١هـ - ٢٣ أبريل ٢٠١٠م.

المعاد أصل إسلامي

"وإنَّ المعاد لعقيدة من عقائد الإسلام الرئيسة، وأساس من أسسه الثابتة التي بنى عليها تربيته ونظامه، وأولاهها العظيم من اهتمامه، وأعطاهها مساحة عريضة من البيان والتذكير، والإنذار والتبشير في قرآنه وسُنَّته، وفي بناء عقلية الإنسان المسلم وتوجُّهه واهتمامه، وأسهمت كثيراً، وبدرجات عالية في إنجاح المنهج، والاستقامة بالإنسان على الصُّراط، وتخريج الشخصية الإنسانية القويَّة السَّويَّة التي تتعامل مع الحياة بكفاءة، وروح عالية منتجة مبدعة من غير أن تسقط أمام محن الدنيا وإغراءاتها، أو تضعف أمام التَّحديات والأزمات والكوارث، أو تضيق بما يحدث من ذلك لتكفر بقيمة ذاتها، أو انتمائها، أو التزامها، وتخسر من وزنها أيُّ شيء، أو يكبرها شيء مما تملكه يدها أو يدُ الآخرين.

والنَّاس بين هادف للدُّنيا، وهادف للآخرة، وصاحب الدنيا تارك للآخرة، مفسدٌ لها على نفسه، ومضرٌ بدنيا غيره، وربما جمع كثيراً، وانتفع بما جمع قليلاً، أمَّا طالب الآخرة فساع في الدُّنيا بما يصلحها، آخذٌ منها ما ينفعه، معرض عما فيه ضرره، وضرر الآخرين. إنَّ هدف الآخرة لا يُلغي نشاط الدُّنيا ولا يخرِبها، وإن قلَّ من فضولها، وصان مما يضرُّ منها، أما هدف الدُّنيا فيُلغي الآخرة ويفسدها، ويقطع الطريق على صاحبها"^(١).

دواعي النظر في أمر المعاد

"وفي ضوء عقيدة المعاد والآخرة تتخذ الحياة الدنيا في وجود النَّاس مساراً، وبعيداً عنها تتخذ مساراً آخر، وما أبعد ما بين المسارين، وما أشدَّ التباين بين طبيعتهما، وأخلاقيتهما، ومنهجهما، وآثارهما في العقول والنفوس والسياسة، والاقتصاد، والاجتماع،

١. خطبة الجمعة (٤٠٤) ٨ جمادى الأولى ١٤٣١هـ - ٢٣ أبريل ٢٠١٠م.



وكلّ أوضاع الحياة.

ويتفاوت كلّ ذلك فيما تعطيه النظرة القويمة للدين والآخرة، وما تعطيه النظرة السقيمة المنحرفة لهما.

وفرق هائل بين ما تنتهي إليه حياة الإيمان من نتيجة، وما تنتهي إليه حياة الكفر، وما يلقاه الإنسان مما تفضي إليه هذه الحياة، وتلك الحياة.

فكان لهذا كله، على الإنسان أن يقف بعقله وقلبه ووجدانه وبصيرته، مفرغاً نفسه من مؤثرات العوارض، وتأثيرات البيئة، ليقضي بنظر حصيف في قضية الآخرة، ليبني عليها حياته الدنيا، أو لي طرحها من الحساب، ولينطلق منها قاعدة يرجع إليها في كلّ شؤون، أو ينفصل عنها لينطلق في دنياه كيف شاء.

ولكنه لو أخذ بالانفصال فإنه لن يستطيع أن يقتلع من داخله فكرة الآخرة، ولن يجد سبيلاً لامتلاك دليل واحد يثبت عدمها، وأقصى ما سيكون عليه في هذا الحال هو دوار الشك، وقلق الريبة، وضلالة الحيران.

وإذا قدر لنفس أن تخسر قابلية الإيمان بالمعاد، بما كسبت من سوء، ودخلها من فساد، فصارت القضية عندها في دائرة الشك، فإن العقل قاض على هذا التقدير بالاحتياط، ومراعاة أمر الآخرة، وخاصة أن هذا الأمر هو أخطر الأمور، وترتبط به قيمة الحياة، والمصير العظيم، وأن احتماله لا يمكن حسب كلّ المعطيات أن يكون من فراغ، أو من الوزن الخفيف.

ولا يصحّ في عقل ولا حكمة أن تقام الحياة كلها؛ حياة فرد أو مجتمع، أو أمة على قاعدة الشك؛ فالشك حالة من القلق والاهتزاز وعدم الرؤية الذي لا تضمن معه سلامة

العواقب، ولا تؤمن مخاطر الطريق ومفاجئاته"^(١).

مناشئ الموقف السلبي من المعاد

"هناك موقفان سلبيان من قضية المعاد هما موقف التكذيب من بعض، والتشكيك من بعض آخر، والقرآن الكريم يتحدث عن المناشئ العقلية والنفسية وغيرها للموقفين ويوضح وهن هذه المناشئ وفقدها للعلمية، وقدرة الصمود أمام المناقشة:

١. منشأ عدم القدرة:

وذلك بتصور أنه ممتنع على القدرة الإلهية المطلقة، إعادة الأنفس بعد موتها، وبعث الأموات أحياء.

وتتصدى مجموعة من الآيات الكريمة لإبطال هذا التصور، ولإيضاح وهميته، وبعده عن النظر العلمي، وبراءة العلم والنظرة الفاحصة منه، [وذلك كما في الآيات الآتي ذكرها:

أولاً: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّينَ لَكُمْ وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لَتَبَلِّغُوهُنَّ أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتُوفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرْدُ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ

١. خطبة الجمعة (٤٠٤) ٨ جمادى الأولى ١٤٣١هـ - ٢٣ أبريل ٢٠١٠م.



مَنْ فِي الْقُبُورِ^(١).

تطرح الآيات الكريمة قضية الريب الذي قد يعتري بعض النفوس في مسألة البعث، وتحيل أصحاب هذا الريب على النظر في قصة وجودهم، فهم يعرفون من أنفسهم أنهم لم يكونوا ثم كانوا، وأن وجودهم حادث لا قديم، وأنهم كانوا أمواتاً ثم صاروا يغنون بالحياة؛ فما من أحد منهم ولا من غيرهم إلا ويعلم من نفسه أنه لم يكن وجوداً ولا حياة ثم كان.

وها هو الإنسان يشهد انبثاق الحياة في ما لا يُعد ولا يُحصى من الحالات يومياً، بل في اللحظة الواحدة في النوع الإنساني وفي الحيوان والنبات؛ والبداية مادة التراب الخالية من نبضة حياة، ومن مظهر نمو وحركة، وغنى فكري وشعور^(٢).

ويشهد الإنسان من نفسه كيف تنقله يد القدرة الإلهية من غير أن يملك من أمره شيئاً، من حال إلى حال، ومن طور إلى طور، فمن التراب إلى النطفة إلى المضغة المخلقة وغير المخلقة، ومن مقر الرحم والحياة الجنينية التي في الوقت المكتوب المحدد، إلى مرحلة الطفولة الدارجة على وجه الأرض، حتى بلوغ الأشد^(٣)، ونهاية الوفاة التي قد تتقدم، وقد

١. الحج: ٥-٧. طبعاً الكلام حول الآية طويل، وهي تحمل حقائق كثيرة، ولكن الموضوع موضوع خطبة

وليس موضوع بحث. «منه حفظه الله»

٢. إنه التراب الذي لا يغنى بحركة، وليس فيه شيء من حس، ثم تراه هذا الإنسان السوي بتفكيره الكبير، ومشاعره الزخّارة، وطموحاته وآماله، وهادفيته، وحركته في النفس، والفكر والهدف. أليس هذا إحياءاً بعد الموت؟! «منه حفظه الله»

٣. هذه الرحلة رحلة إرادية؟! بإرادة أب، بإرادة أم، بإرادة دولة، بإرادة جبابرة الأرض، بإرادة الشخص نفسه؟! إنها بإرادة الله وحده ﷻ. «منه حفظه الله»

تتأخر حتى أرذل العمر وإلى أن يخسر الإنسان في حياته الدنيا كلَّ ما علم ويسقط منه أكثر الإدراك، وأكثر الشعور.

وأمام الإنسان منظرُ الأرض الهامدة الجامدة الخاشعة الساكنة فيتنزل عليها الماء بمقدار فتهتز بروح الحياة، وتنهض بها وتتفرز وتنبت من حياتها من كلِّ زوج بهيج، وصنفٍ نضير من أصناف الزرع والشجر^(١).

ولا بدَّ من تفسير لظاهرة الحياة المتجددة في الأرض في عالم الإنسان والنبات ومثلهما الحيوان في كلِّ آن من آتات الليل^(٢) والنهار، في أمثلة ومصاديق لا يحصيها الناس ولو اجتمعوا جميعاً على إحصائها^(٣).

و[ثانياً]: نجد تفسير كلِّ ما قام ويقوم من شيء، وما كان ويكون من حياة في الكون كلُّه في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾^(٤) وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

١. أيضاً هنا حياة بعد الموت. «منه حفظه الله»

٢. كم ولادة حياة في اللحظة الواحدة في عالمنا هذا؟ هل من قادر على الإحصاء؟ في كلِّ لحظة تدخل حياة في نبات، في حيوان، في إنسان، وبما لا يعد ولا يحصى وهذا إحياء بعد الموت. «منه حفظه الله»

٣. كم من نبتة في العالم، كم من حيوان، كم من حشرة، كم من إنسان، كم من جنين تدخله الحياة في كلِّ لحظة، والحياة تدخل الكثير الكثير من ميث هذه الأشياء كلها في كلِّ لحظة. «منه حفظه الله»

٤. لولا الوجود الحق، لولا وجود الوجود الغني بذاته ما كنت تجد شيئاً في هذا العالم على الإطلاق، فإن شيئاً من رحم العدم بما هو عدم لا يمكن أن يوجد، ستبقى تبحث عن العلة، ولن يرضى منك عقلك بأي علة تفترضها حتى تنتهي إلى الوجود الحق وهو الله تبارك وتعالى؛ الوجود في ذاته وبذاته ولذاته.

«منه حفظه الله»



قَدِيرٌ^(١).

فالله هو الحقُّ عين الحقِّ، وحاقُّ الحقِّ، ومحض الحقِّ، وذات الحقِّ والوجود الخالص المطلق.

إنَّه سبحانه ذات حقيقة الوجود، وكلُّ شيء آخر موجودٌ، إنما هو شيء متصف بالوجود^(٢)، وليس هو ذات الوجود، وكلُّ ما هو ليس ذات الوجود، إنما يتصف بالوجود المفاض عليه من خارجه.

إنَّ الله سبحانه لو لم يكن وجوده بذاته، لما كان يوجد أبداً، لأنه لا يقابله إلاَّ العدم المطلق، والعدم المطلق لا يمكن أن يعطي الوجود، ولما كان يوجد شيء على الإطلاق^(٣)، من رحم العدم المطلق، ولكنَّ الأشياء والحياة موجودة وما ذلك إلاَّ لأنَّ الله سبحانه موجود بذاته، غنيٌّ عن الإيجاد، منزَّه عن الحدوث، والموجود بذاته، وما هو حقُّ الوجود، ومحض الوجود لا يمكن أن يفنى^(٤).

١. وإلا من أين إحياء الموتى؟ إحياء ملايين الموتى من أين من إنسان وحيوان ونبات؟! «منه حفظه الله»

٢. أنا وأنت لسنا الوجود، أنا شيء اتَّصفت بالوجود، ما كان لي وجود، ثم صار لي وجود، كنت موصوفا بالعدم ثم صرت موصوفا بالوجود، وكلُّ شيء تضع عليه عينك من مادي وغير مادي غير الوجود الحق الذي هو وجود وليس شيئاً له وجود إنما هو مفتقر إلى الوجود من خارجه. «منه حفظه الله»

٣. لو لم يكن الله ﷻ وجوده بذاته ما كان يوجد هو ولما كان يوجد شيء آخر على الإطلاق. «منه حفظه الله»

٤. والله ﷻ لأنه الوجود الحق وليس شيئاً له الوجود، كما أنه بذلك أزلي فذلك هو أبدي لا يفنى. «منه حفظه الله»

ولأنَّ اللهَ ﷻ هو ذات الحقِّ، والوجودُ المطلقُ فكلُّ شيءٍ غير ممتنعٍ الوجود، وقابلٌ للوجود لا يخرج عن قدرة إيجاده، وإعادة إحيائه من قبله سبحانه، وكيف يخرج ذلك عن سعة الوجود المطلق، والإرادة المطلقة، والقدرة المطلقة، والفاعلية المطلقة لله؟!

والله الحقُّ بلا شوب من باطل لا يصدر منه لعب ولا هو ولا عبث^(١)، والإيجاد للإعدام بلا غاية بقاء لشيء عبث ولعب فكان لا بدَّ من غاية بقاء لمحور الأشياء في الأرض ومن سُخَّرَ له الكون وهو الإنسان وذلك ببعثه بعد الموت ليحاسب ويُجازى، ويخلد في نار أو جنة تبعاً لعمله.

فالحقُّ كما تقرر الآية الكريمة: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾^(٢).

و[ثالثاً]: كيف يستبعد مسبتعدٌ، ويستصعب مستصعب عودة الحياة بعد الموت، وهو يقرأ قوله ﷻ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ

١. هذا منشأ آخر وهو أنه الله ﷻ قادر على إحياء الموتى، ولكن الخلق يمكن أن يكون خلقاً عبثاً، وإذا كان الخلق يمكن أن يكون للعبث فلا يلزم أن يعيد الله ﷻ الأموات أحياء، ولا أن يحاسبهم ولا أن يجازيهم لأن ذلك مرتبط بقضية الحكمة وأن لا يكون الخلق عبثاً، فلو جاز العبث لما لزم أن يكون عبث، هذا تصور، وهو تصور باطل يتكفل القرآن بالرد عليه.

علي بن أبي طالب عليه السلام نراه لا يصدر منه عبث، الحسن والحسين عليهما السلام لا يصدر منهما عبث، حكيم من الناس لا يصدر منه عبث، بحيث نجده يلعب لعب الصبيان، يقيم بناية ويهدمها، ويقيم بناية أخرى ويهدمها، طول عمره يقيم بنايات ويهدمها، إنسان حكيم وعادل لا يفعل ذلك فضلاً عن المعصوم عليه السلام، أما الله وهو الحق المحض فيستحيل في حقه عقلاً أن يفعل ذلك. كما يستحيل في طول ذلك على من عصمه الله أن يكون فعله عبثاً. «منه حفظه الله»



يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ^(١).

فأيّ استبعاد على القدرة التي أوجدت العظام ابتداء بلا سبّ وجود لها على الإطلاق وأجرت فيها الحياة لأنّ تعيدها، وأنّ تُعيد لها الحياة؟! فلو كانت أولوية ولا أولوية بالنسبة لقدرة الله العظيم لكانت للإعادة لا الابتداء.

و[رابعاً]: ما أكثر ما ينسى الإنسان، وتغيب عنه الحقيقة، ويبني استغراباته ودهشته، أو استقرابه وقبوله على غير أساس، ومن هذا ما تتحدث عنه الآية الكريمة الآتية، من إبداء الإنسان الدهشة والاستكثار العظيم لعودة الحياة بعد الموت، استبعاداً واستصعاباً في غفلة عما هو عليه في دنياه، من وجود غير مسبوق، وحياة وهب إياها ابتداء: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا، أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾^(٢).

و[خامساً]: ما أكثر الآيات القرآنية التي لا تدع لاستبعاد البعث واستصعابه واستكثاره على القدرة الإلهية مكاناً، وبطريقة سهلة ميسرة ولغة جليّة، ومن ذلك قوله تعالى:

١. يس: ٧٨-٧٩. القدرة موجودة، والعلم موجود، القدرة أثبتت نفسها، وكيف يبقى الشيء الذي خلقه الله ﷻ وهو لا يعلم عنه، وهو محتاج له في وجوده، كلّ شيء محتاج في استمراره إلى الله كما هو محتاج له ابتداءً، فلو لم يعلم الله بك كيف يمدّك بالوجود؟! لو لم يعلم بالحبّة في ظلمات الأرض كيف يدها بالبقاء؟! «منه حفظه الله»

٢. مريم: ٦٦-٦٧. ما كنت شيئاً، وأوجدت الآن أنت شيئاً، فكيف تستصعب إعادتك؟! «منه حفظه الله»

﴿أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(١).

وهل يمكن أن يعتري القدرة الإلهية المطلقة عجز يتأخر بها عن إتمام البناء الأول للعالم ونظامه، وإقامة النشأة الأولى على تمامها وكماها، ليتمكن أن يفرض هذا العجز عن إنشاء عالم الآخرة وإحكام نظامه وإعطائه لخصائصه؟! إن إطلاق القدرة، يحيل تخلفها عن أي مراد إلهي في دنيا وآخرة، ويسقط أي تصور بالعجز.

وهل يمكن أن تفرض مقاومة من شيء من الممكنات، وامتناع منها، وهي عدم وفقر تام أمام القدرة المطلقة للخالق المالك المرفد بالوجود والحياة والذات والأثر، والقاهر المهيمن على الحول والطول لكل شيء حتى يفرض التعب والنصب في ما كان من شؤون النشأة الأولى، حتى يفرض في ما هو من شؤون النشأة الآخرة؟! تعالى الله علواً كبيراً عن أن يقف في وجه قدرته شيء، وأن يقاوم إرادته شيء، وأن يناله تعب أو نصب، أو أن تقصر يده عن شيء، وترتد مشيئته أمام شيء.

ولكنه عمى النفوس المترجسة، وما تتركه متابعة الهوى من رين، وما تخلفه مضادة الحق عن علم من لبس من خلق جديد، وحوائل نفسية من معانقة القلب للحقيقة،

١. ق: ١٥. أليس هذا العالم العظيم ونظامه المتقن يملأ علينا حسناً ووجداناً وعقلنا فمن أين يأتي توهم عجز القدرة الإلهية عن الإنشاء حتى يأتي هذا التوهم في قضية الإعادة؟!

الله ﷻ لم يعي بالخلق الأول بمعنى أنه عجز عنه، والبرهان أنه أوجده، والإعياء بمعنى العجز أو بمعنى التعب.

أما العجز فاستحال على الذهن البشري بالنسبة لله ﷻ ذلك لأن الخلق قائم، فهذا الخلق يدل على أن الله لم يعجز عن النشأة الأولى، وأما الإعياء فغير وارد كذلك لأن قدرة الله ﷻ مطلقة، وكل الأشياء غير الله ﷻ هي عدم، فكيف يقاوم المعدوم الموجود وجوداً مطلقاً لا حدود له، ولا قيد عليه حتى يفرض الإعياء والتعب؟. «منه حفظه الله»



واستقرارها فيه" (١).

٢- منشأ احتمالية العبثية في الخلق:

"من المنشأ احتمال العبثية في الخلق، حيث لا تتم عقيدة الآخرة مع وجاهة هذا المنشأ في حق الله سبحانه؛ فمع جواز العبث في خلق الكون والإنسان تجوز قضية الخلق والإعدام المتكررين تبعاً، والهدم والبناء المتوالين بلا غاية تكون للخلق إلا إعدامه، ولا هدف للبناء إلا هدمه، ومعنى ذلك أنه بلا غاية ولا هدف، فيكون استمرار الخلق والإعدام والبناء والهدم في الكون كله على حد لعب الطفل والمتلهي حين ينشئ مصنوعاته ليحطّمها، ويقيم بناءه ليهدمه ولماذا الآخرة مع احتمال العبثية في الخلق، وماذا يضمنها؟!

وا احتمال العبثية في الخلق تستعرضه الآيات القرآنية الكريمة وتحاكمه.

والقرآن الكريم يعدُّ الحياة الدنيا للإنسان ونشاطه الكبير فيها من دون هدف الآخرة لعباً فإذا كان الله تعالى لا يليق بشأنه اللعب فإنه لا يمكن أن يخلق الدنيا لنفسها بما هي عليه من قضية الفناء؛ لأنه لو خلقها كذلك لكان خلقه لها لعباً، وكماله وجماله وجلاله ينزّهه عن العبث واللعب.

نقرأ في ذلك الآية الثانية والثلاثين من الأنعام: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٢). والآية الرابعة والستين من العنكبوت: ﴿وَمَا

١. خطبة الجمعة (٤٠٦) ٢٢ جمادى الأولى ١٤٣١هـ - ٧ مايو ٢٠١٠م.

٢. الأنعام: ٣٢.

هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾. والحكم على الحياة الدنيا وصرف الإنسان لعمره فيها لها إنما هو هو ولعب متكرر في ما يقرره عدد من الآيات.

ويصرخ القرآن الكريم في وجه احتمال العبثية في خلق الخالق العظيم للحياة التي لا تكون إلا كذلك من غير قضية الرجوع إليه سبحانه ليخلد من يخلد في الجنة، ويخلد من يخلد في النار فيقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ، فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (٢).

إنه لظنٌ سخيّف مستنكر ساقط أن يصدر من الملك الحقّ بلا باطل (٣)، والكمال المطلق بلا نقص، والجمال غير المتناهي بلا قبح، والجلال المطلق غير المحدود بلا عيب شيء من هو أو عبث أو هو.

والعجز يمنع منه الملك التكويني المطلق لكل شيء، ولكل ما يمكن أن يكون سبباً، ولكل ما يمكن أن يكون مانعاً، ولكل ما يمكن أن يكون شرطاً، ولكل صغير وكبير موجود، ولعدم ووجود كل شيء معدوم ممكن، ولا يستحيل الوجود إلا على ما كان واصلًا نقصه إلى حد الامتناع فيرجع ذلك إلى نقصه، وعدم قابليته الذاتية لنعمة الوجود،

١. العنكبوت: ٦٤. الحياة الآخرة بما لها من امتداد لا ينقطع هي الحيوان، أما الحياة الدنيا بما هي عليه من الانقطاع والفناء فلو كانت مفصولة عن الآخرة لكانت لعباً وعبثاً. «منه حفظه الله»

٢. المؤمنون: ١١٥-١١٦.

٣. إنه الملك الحق بلا باطل، وملكه ليس اعتبارياً، ملك الله للأشياء ليس الملك الاعتباري، إنما هو الملك الحقيقي التكويني الذي لا يقوم شيء بموجبه إلا بإذنه، ولا تستمر الأشياء إلا بفيضه ﷻ. «منه حفظه الله»



والخروج من كتم العدم كما في شريك الباري ﷻ^(١).

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾^(٢).

وفي آية أخرى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٣).

خلق السماء والأرض لتزولا، وخلق كل شيء ليذهب بلا بقاء لشيء مما يوجد، ولا مقدمية من هذه الأشياء لموجود يكون له الاستمرار لعب منفي عن الحكيم، ولا يخرج هذا الخلق عن وصف اللعب أن تبقى الأشياء وقتاً محدوداً، وأن تكون لها غايات قصيرة متقضية كما في تسخيرها لإنسان يأتي عليه الهلاك بلا إعادة لحياته، ليجد ما قدم من عمل، وينال ما هيا نفسه له من جزاء.

ويقابل الخلق اللعب الخلق الحق اللائق بالحق والحكيم المطلق، وخلق السماوات والأرض بالحق مرتبط بيوم الفصل، وموعد القيام، وتبين الحق من الباطل، والتميز بين الأخيار والأشرار، وإقامة القضاء العدل بين الناس ليلقى كل امرء ما عمل، ويجزى الظالم والمظلوم ما يوافق ظلم الظالم من الاقتصاص، ومظلومية المظلوم من الإنصاف.

إنه الظن السيء، البعيد عن الحق، القائم على الغفلة، المنفصل عن النظر العلمي، والتدبر في الخلق أن يرى الإنسان أنه يترك سدى، ويهمل أمره، ويعيش حياته الدنيا يجد

١. ويمتنع أن يصدر عن الحق بلا باطل، والحكمة بغير معكّر، والعلم المبرء من الجهل، والكمال المنزه من النقص، والجمال والجلال المطلق شيء من لعب أو هو، وأن يتخلف فعل الحكيم الكامل عن الحكمة، ويخلو عن الغاية. «منه حفظه الله»

٢. الأنبياء: ١٦.

٣. الدخان: ٣٨-٤٠.

فيها أو يلعب، ويحسن أو يسيء، ويؤمن أو يكفر ثم ينتهي وكأنه لم يكن شيئاً، ويذهب بلا حساب، ولا جزاء، وكأن الخلق بلا حكمة، والإيجاد بلا غاية، وكأن الخالق يخلق ويهمل، ويوجد لعباً وعبثاً.

ولو أعطى الإنسان النظر العلمي حقه، وأمعن في مراحل وجوده وحياته لوجد غير ذلك، وأن لكل مرحلة من مراحل وجوده وتطوره غاية توصل إليها، وتقع مقدمة في طريقها، وأن لم يأت شيء من هذه المراحل عبثاً، ولم يقع لعباً.

وإن هذا الخلق المتدرج الدقيق كما هو ناطق بالتخطيط المتقن والحكمة، ناطق كذلك بالقدرة، يقول سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى، أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنٍ، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾^(١).

فترك الإنسان سدى، وإهمال شأنه إهمالاً، وعدم وضعه على مسار الغاية التي تُصحح خلقه، وتخرج به عن اللعب والعبث إنما يكون لفقد الحكمة أو القدرة وذلك مما ينافي كمال الله المطلق، ويكفي الإنسان بأن لا يحمل صنع الله ﷻ على اللعب والعبث والإهمال أن يطالع خلق نفسه المليء بالدلالات على الحكمة والقدرة.

هكذا يحكم الله ﷻ على حياة الدنيا حين تنفصل عن هدف الآخرة^(٢).

[إنَّ] "هذا الكون العظيم، ليس شيء منه قد خلق عبثاً، [بل] خلق كل شيء لحكمة، ولمصلحة.

١. القيامة: ٣٦-٤٠.

٢. خطبة الجمعة (٤٠٧) ٢٩ جمادى الأولى ١٤٣١هـ - ١٤ مايو ٢٠١٠م.



والمصلحة لا تفسد الله ﷻ، وإنما تتصل بالأشياء نفسها.

لكل شيء غاية، وكل شيء موضوع في مساره بغايته، كل شيء في هذا الكون، مما يفتقد الإرادة تكويناً، إلى غاية محددة، لا يفلت منها [و] لا يميل عنها، [و] لا ينحدر به خطه عن الوصول إليها، [ف]أحدنا في رحم الأم، له طريق مرسوم، لا يعدل به هذا الطريق عن بلوغ غايته، حتى ينتهي إلى الخروج من رحم أمه، قوانين وإعداد وتهيئة تامة وحكيمة ودقيقة، لا تخطأ أبداً، تصل هذا المخلوق إلى غايته، وأحدنا لا يملك من أمر نفسه في رحم أمه شيئاً، ولا يستطيع أن يقدم أو يؤخر أجلاً، ولم يعط قرار سيره، ليختار هذا السير فينحرف عن غايته، ولو أعطينا خيار السير في رحم الأم لما صبرنا، ولتأهت الرؤية، وظل الرأي عند الأكثرية الغالبة من الناس، حتى لا يصلوا إلى يوم ولادة.

[وكذا] الشمس، لو كان لها إرادة اللهو والعبث واللعب فزححت لحظة واحدة، وخرجت عن المدار، لتغير كل شيء في هذه الأرض.

[وإن] الذرة الواحدة، وجسيماتها الصغيرة جداً جداً، لو كانت لها إرادة الحركة أو عدمها، أو كانت لها إرادة أن تنضب عن المسار أو تنحرف عنه، لكانت الكارثة، نعم، هذا الإنسان وفي جانب منه فقط أعطي إرادة الفعل وعدمه، وكثيراً ما أساء.. كثيراً ما ظل عن الطريق، وكثيراً ما عبث فانحدر به عبثه عن طريق غايته، وكلما كان الموقع كبيراً في الناس فمازج هذا الموقع لعب أو عبث كانت الكارثة أكبر، الكون كله يشهد بالحكمة، وينطق بالدقة، والصوابية البالغة، إنه يقوم على العلم والخبرة والحكمة واللفظ والتقدير والتدبير الدقيق الذي لا يبلغ، ولو كان غير ذلك، لهدمت السماوات، واندكت الأرض، ولم يبق شيء.

لو عاش الكون العريض حالة العبث واللهو لحظة، -واللهو أن تشتغل بما لا يصل بك

إلى الغاية، وبما لا يقع على طريق الهدف-، أقول: لو كان للكون لحظة هو، [و] لو لعب لحظة، لما كان.. لانتهى.. لتلاشى.

والقوانين التكوينية في عالم الاجتماع، وعالم المساحة الإرادية من حياة الإنسان، [و] مخالفة قوانين الله [و] أحكامه، تعني عبثاً، [و] لهواً، [و] لعباً، وما لعب شيء إلا ضيَع، وما لهُ شيء إلا تاه، وما عبث شيء إلا وانقطع عن الغاية، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «مَا خُلِقَ أَمْرٌ عَبَثًا فَيَلْهُو، وَلَا تُرِكَ سُدًى فَيَلْغُو»^(١).

لو كنت مخلوقاً عبثاً بقصد العبث، لو كنت قد خلقت بلا غاية، لم يحدد لي بحسب خلقتي هدف ولا غاية صح مني العبث، وجاء مني اللهو مقبولا، أما وأنا قد خلقت لغاية محددة، ودور مرسوم، وهدف لا بد لي من أن أبلغه في تقدير الله وتشريع، فإن العبث هنا يكون على العاقل محالة، ويكون على الحكمة مستحيلاً، أنت إذا أردت أن تبقى على هدفك وغايتك أن تبلغ إنساناً، إنساناً ترقى فيه إنسانيته، تشف فيه إنسانيته، تتبلور فيه إنسانيته، تتكامل وتتكمّل فيه إنسانيته، فيتخرج من هذه الحياة إنساناً لا حيواناً، أنت إذا أردت أن تستقيم على درب هذه الغاية، وتنطلق مع مسار هذا الهدف، استحال عليك إذا احتفظت بالحكمة أن تلعب أو تلهو^(٢).

مُتَطَلِّبَاتُ عَقِيدَةِ الْمَعَادِ

المطلب الأول: أجواء نفسية وروحية غير طاردة

"إنَّ لعقيدة الآخرة تكاليف لا يستقيم معها انطلاق النفس بلا حساب وراء الشهوات،

١. نهج البلاغة للرضي: ٥٤٠ ح ٣٧٠.

٢. خطبة الجمعة (١١) ٢٣ ربيع الأول ١٤٢٢هـ - ١٥-٦-٢٠٠١م.



وانعدام الضوابط الخلقية في الحياة، وتضييع الحقوق، والتنكُّر للواجبات، والإباحية في سلوك الأفراد والمجتمعات، وسحقُ كرامة الآخرين، واستغلالهم، وانتهاك حرَمات الله.

ومن هنا صعب أمر الآخرة على النفوس الواهنة التي لا تتحمل التكليف، ولا تصبر على الضوابط، ولا تتورَّع عن المحرَّمات، ولا تملك أن تقف أمام شهوة، أو تتراجع عن نزوة، ذلك بترك صاحبها لها أن تقود فينقاد، وأن تأمر فيأتمر، وكأنه خلُو من العقل، والرُّشد، والإرادة، والنَّظر في العواقب، واحترام الذات.

ولو آمن مثل هذا المرء بالآخرة فإنه لا يُوقن بها، وإيمانه يكون مغيباً مكبوتاً وراء الظلمات، ويعاني من قلق واهتزاز، ولا قوَّة له على ردع عن رذيلة، وارتكاب فحشاء، ومواقعة منكر، ولا يعطي دفعاً لتحمل واجب، والنهوض بتكليف.

وربما بلغ التدهور بالنفس من فعل السيئات مبلغاً خطيراً لا بدَّ أن تفارقه حالة الإيمان، وتتخلَّى عنها النفس.

وكلُّ العقائد الحقَّة تحتاج في استقرارها إلى أجواء نفسية وروحية غير طاردة، وتلوُّث جو النفس بالذنوب والآثام لا يناسبها.

ومن طغيان حب الدنيا على النفس وتعلُّقها بها، وحاكمية الشهوات أن تطلب الدنيا بالآخرة في الكلمة والموقف، وحتى من مثل صلاتها وحجَّها وخمسها وزكاتها وجهادها، حتى إذا فقدت هذه الأمور العبادية ما كان لها من مردود دنيوي، تمَّ التخلِّي عنها وإسقاطها. أمَّا أصحاب القدم الثابت في الإيمان بالله واليوم الآخر فيظلُّ خيارهم الآخرة وإن تهدَّدهم الموت في سبيل الله، وزحفت إليهم المنية جادة لسلوك هذا السبيل، واجتمعت



عليهم كلمة الأذى من الناس كل الناس" (١).

المطلب الثاني: الإقبال على المعاد

قال تعالى: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ (٢)، وقد يعمل الإنسان عمل الآخرة وهو يريد الدنيا، وقد يعمر الدنيا ولكن بإرادة الآخرة.

ولما جاء الإسلام كثرت بركات الدنيا وغزر خيرها بفضل الله سبحانه، وبما بذل الرسول ﷺ من جهود، وأخذ به من سياسة حكيمة عادلة، ولم يكن يريد من إعمار الدنيا إلا الآخرة، وأن يتخذها الناس وسيلة لها، ولقد كان ﷺ الزاهد فيها، العازف عنها، المستعلي على زخارفها وزينتها.

وما من مرید للآخرة إلا ويستوفي نصيبه المكتوب له من الدنيا، وما من مرید للدنيا يستوفي منها أكثر من حاجته إلا وأضره ما أخذ.

وماذا يحتاج الإنسان من هذه الدنيا حتى يبلغ أجله أكثر من نفسٍ يتنفسه، ولقمة يطعمها، وشربة يستسيغها، وثوب يستتره، وصدار يكتنه، وراحلة تقطع به ما بينه وبين حاجته البعيدة، وأنثى يألّفها ذكر، وذكر تألفه أنثى، وإنسان يأنس به إنسان، وما مائل هذه الأمور، أو وقع في طريقها، ولولا شره، وأثره، وجنون مادي، ونهب وسلب وسرقات، وتبذخ ضار، وترف مهلك، وأطماع لا حد لها، وحروب طاحنة، وحرقت ثروات بهذه الحروب، وإنفاق حرام، وفساد في الأرض يزيد من حدة الأمراض، وانتشار الأوبئة، وسياسات طاغية، وأخلاق متفسخة، وعبث بالشروة، وتراخ عن الإنتاج لفاقت الخيرات

١. خطبة الجمعة (٤٠٥) ١٥ جمادى الأولى ١٤٣١هـ - ٣٠ أبريل ٢٠١٠م.

٢. آل عمران: ١٥٢.

عن الحاجات، وما احتاج الناس لأن يتركوا الآخرة للدنيا، ولا أن ينسوا أنفسهم لحساب المال.

ولن ينتقل أحدٌ من هذه الدنيا من مؤمن أو كافر، وببيده شيء منها إلا ما قدمته نفس لغدها، من عمل صالح تلقاه محفوظاً مجزياً بخير جزاء عند الله، أو عمل سيء تجده خزيّاً وذلاً وهواناً، وعذاباً أليماً مقيماً، أو ساعة ذهب من العمر فراغاً بلا جدوى تكون ندامة وحسرة غائرتين في النفس موجعتين.

ولكن مرید الآخرة وافر الحظّ فيها، مُنعم، رفيع المقام، مسرور محبوب، مضاعف له جزاؤه، غامر له عطاؤه. وليس لمرید الدنيا في الآخرة من نصيب مما يدرأ ويكفي، ويغني ويشري، وإنّ من أعرض عن المعاد اليوم كانت له هناك لظى وما أدراك ما لظى نزاعة للشوى.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾^(١)، وأخسّ من أراد الدنيا من أرادها بالدين فحرفه، وأفسده، وشكّك في قدره بما أساء له، وبعد عنه، ونفّر منه، وعيّر به^(٢) لخساسته وانحدار نفسيته، وهو تعيير من منشأ انتساب هذه النفسية والشخصية زوراً للإسلام^(٣).

المطلب الثالث: تقليل الانغماس في المادة

١. الشورى: ٢٠. نصيبه قلّ أو كثر في مسافة زمنية هي عشرون سنة، مائة سنة، مائة وخمسون سنة، ثم شقاء بعد ذلك إلى الأبد. «منه حفظه الله»

٢. الدين قد يُعَيَّر بأصحابه حين يُسيئون استعمال الدين. «منه حفظه الله»

٣. خطبة الجمعة (٤٠٥) ١٥ جمادى الأولى ١٤٣١هـ - ٣٠ أبريل ٢٠١٠م.

”كلُّنا نعيش على الأرض، وترتبط حياتنا الدنيا بها، ولا نستغني في هذه الحياة عنها لكن من الناس من لا تتجاوز عقليته ونفسيته الأرض وشهواتها وحاجاتها وهمومها، ولا يكاد يمتدّ منه فكر ولا شعور خارج سجن المادة، وإطار المحدود، وليس له نظر إلى ما وراء هذا العالم الذي لا يملك من داخله تفسيراً مقبولاً لوجوده ابتداء واستمراراً وانتظامه، ولا يقابل حقائق الغيب، ولا الحقيقة الكبرى الأولى التي تشعُّ بعالم الحس وكلّ عالم آخر، ولا يكون شيء إلاّ من إشعاعها وفيضها إلاّ بالتردد والتشكيك لعلّة انقطاعه إلى الأرض^(١) والخلود إليها في حالة السطح من وجودها دون العمق والمغزى، وما يلهمه وجودها ونظامها المحكم من معرفة الخالق، والإيمان بحياته وقدرته وعلمه وحكمته وغناه المطلق، وحاجة كلّ شيء إليه^(٢).”

وإنسانٌ هذا حاله في الانكباب على الأرض، وعماه عما وراء عالم الحس لذلك الانكباب، هو ما أسمّيه هنا بالإنسان الأرضي، دون الإنسان الذي يعيش على الأرض، ويتعامل معها دون أن تخلق عنده حاجباً فكرياً أو نفسياً عن رؤية الحق، الذي يقف وراء تفسير هذا العالم، ويعلّل وجوده ودقة صنعه والحياة فيه.

١. هذا الإنسان والناحية النفسية: هذا الإنسان الأرضي له مواصفات، حين نقرأ حالته النفسية يقول عنه الكتاب الكريم: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيُّومَ الدِّينِ * وَمَا يُكْذَبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ

١. هذا الإنسان الخالد إلى الأرض يبتلي بهذا، تنقطع نظرتة عن السماء، ينفصل عن الله تبارك وتعالى.

«منه حفظه الله»

٢. حين ننظر إلى عالم المادة نظرة عميقة توصلنا إلى الله ﷻ، وحين تتمجد نظرتنا إلى عالم المادة على الشهوات والنزوات فإن النظرة تقطعنا عن الله ﷻ. «منه حفظه الله»



مُعْتَدٍ أَثِيمٍ^(١).

وراء التّكذيب بيوم الدّين نفسيّة غير سليمة، نفسيّة ملوّثة، معتديّة، آثمة، حجبها عن الحقّ تراكمُ الموبقات، وثقلٌ عليها أن تستجيب لعقيدة الآخرة التي لا تنسجم والاستغراق في شهوات الدنيا، ومتع المادّة بلا حدود، وأن تكون المادّة كلّ هدفها وهماها، ومركز تفكيرها وشعورها، وأن تكون مستقطبة لها تمام الاستقطاب.

فمن أراد أن تتسع نفسه للإيمان باليوم الآخر فليخفف من هذا الارتناء على المادّة، والولع بها، والذوبان فيها، والانسحار بها، والخلوص الكامل لها.

٢. الإنسان الأرضي والناحية الفكرية: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^(٢). يستحيل على من يتبنى نفي الآخرة أن ينطلق في هذا الموقف من علم أو مقدّمة علمية، وإنما هو الظنّ القاصر البعيد عن معطيات العقل، وحقائق الاستقراء التي يقدمها هذا الكون وظاهرة الموت والحياة فيه، ولا يلتقي معه النظر الموضوعي الدقيق، إنه الظنّ الساقط من منطلق نفسي موبوء خسيس، لا يصحّ أن تُبنى عليه الحياة، ولا يواجه به حكم العقل بالاحتياط حتى لمن ابتلي بالتردد لمرضه في أمرٍ عظيم، يمثل أخطر الأمور.

والآية الكريمة تطرح على لسان أصحاب هذه العقلية المغلقة، قضية نفي المعاد بوصف أنها جازمة؛ فتقول: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾^(٣).

١. المطففين: ١١-١٢.

٢. الجاثية: ٢٤.

٣. الجاثية: ٢٤.

فتعبيرهم تعبیر حاصر للحياة في الحياة الدنيا ولا غير^(١)، وهذا الجزم المخالف للنظر العلمي عين الجهل، وهو أبشع صورة من صورهِ.

ويتعقب الكتاب الكريم إثارات هذه النفسية المبتلاة، والعقلية السقيمة في موضوع المعاد ويرد عليها في عدد من الآيات الكريمة^(٢).

المطلب الرابع: أرضية من الإيمان بالعدل الإلهي

"عقيدة البعث والحساب وما يترتب عليه من جزاء بجنة أو نار، ونعيم أو عذاب تحتاج إلى أرضية من الإيمان بعدل الخالق القادر الحكيم، فلو احتمل الظلم في حقّه ﷻ، لما ثبت بعث، أو حساب، أو إحسان لمحسن على إحسانه، وتفريق بين محسن ومسيء.

وتأتي في هذا المورد هاتان الآيتان الكريمتان:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ، أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾^(٣).

وكذلك:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءَ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ، وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى

١. وهذا الحصر يمثل حالة جزم نفسي قاطع. «منه حفظه الله»

٢. خطبة الجمعة (٤٠٥) ١٥ جمادى الأولى ١٤٣١هـ - ٣٠ أبريل ٢٠١٠م.

٣. ص: ٢٨.

كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١﴾ (٢).

أدلة المعاد

”إنَّ عقليةً وروحاً ونفساً وراء الإيمان والعمل الصالح، غيرُ عقلية وروح ونفس وراء الإفساد في الأرض، وإنَّ ذاتاً تنبَع تقوى غير ذات تنبَع بالفجور^(٣)“.

وراء الإيمان والعمل الصالح: عقل مهتد، ونفاذ رؤية وبصيرة، وروح متفتحة وضيئة، منطلقة مشعة، ونفس كريمة، مسلمة للحق، عشاقة للخير، غنية بالحسن، ولا تنبَع بالتقوى إلا ذات واعية، وقوية، وراشدة، وقوية، ومتسامية، متجهة لله تبارك وتعالى، آخذة منه.

أما الإفساد في الأرض، فيأتي عن ضيق عقل، وعمى وضلال، وروح مترجسة قد لفَّها الظلام، وقلب غلَّفه الرين، ونفس أصابتها خسة بالغة، وشوَّهها قبح شديد.

ولا يأتي الفجور إلا من ذات ضعفت، وسقطت، وسفَهت، وخرج بها الانحراف عن الخطِّ واتجهت للانحدار.

وكما لا تكون الذات معدناً للفجور والفساد والإفساد إلا من رداءة وخراب، ولا تكون الذات على غنى من الإيمان والعمل الصالح والتقوى إلا لسموٍّ وصلاح، فكذلك لا تريد مقارفة القبيح الذات إلا قبحاً، ولا يزيد العمل الصالح والإيمان والتقوى صاحبه إلا

١. المجاثية: ٢١-٢٢.

٢. خطبة الجمعة (٤٠٨) ٦ جمادى الثاني ١٤٣١هـ - ٢١ مايو ٢٠١٠م.

٣. أماننا ذاتان، وليس مظهر تقوى أو مظهر فجور فحسب. «منه حفظه الله»

حسنًا^(١).

والذات القبيحة لا يصح في العدل والعقل وموازن الحق أن تأخذ موقع الذات الطاهرة، وتتمتع مُتعتها، وتشعر شعورها، وتكون لها سعادتها، كما يأبى كل ذلك أن تشقى الذات الحسنة شقاء الذات القبيحة، وأن تتعذب عذابها، ولا أن تكون الذاتان سواء على أي حال، وإن للذات الحسنة لأنساً، وللذات القبيحة لوحشة، وللأولى سعادة، وللثانية شقاء، ولكل منهما مآل غير مآل، وجزاء غير جزاء. هذا ما يقضي به الحق والعدل والعقل والوجدان والخارج.

أو بعد هذا يجعل الله وهو الحق المطلق، والعدل الكامل الصدق، وهو العالم بكل ما تأتي به نفس أو أتت، المحيط بما تكن الصدور، الخبير بما تنطوي عليه الضمائر، وتخفق به القلوب، وما عليه كل ذات؛ يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، أم يجعل المتقين كالفجار وهو على عظمته وجلاله وجماله وكماله؟^(٢).

أيساوي بين نفس تحركت من واقع فطرتها بما لهذه الفطرة من استعداد الكمال وبجد، واجتهاد، ومكابدة، ومصابرة، ومجاهدة حتى بلغت أتم ما يمكن أن تعلو له من درجة السمو، والرفعة، والنقاء، والنورانية، والصفاء، والكمال بنفس تحركت من النقطة نفسها، منحدره باختيارها، منساقه وراء الشهوات، والرغبات الحيوانية، والذائد الرخيصة لهذه الحياة حتى خسرت نفسها وعاشت الظلمة ولفها الضلال، وتملكها الشر بأن تخرج النفسان من الدنيا لا لبعث ولا حساب ولا جزاء، بعد أن لم تلاق كل منهما جزاء وفاقاً في هذه الحياة، وربما

١. المنطلق حسن والمردود حسن للإيمان، المنطلق قبيح والمردود قبيح للفجور. للتقوى منطلق ومردود،

وللفجور منطلق ومردود، وشتان ما بينهما. «منه حفظه الله»

٢. حاشاه وتبارك وتعالى. «منه حفظه الله»



امتازت النفس التي عصت ربّها في الدنيا في ما تهيأ لها من فرص الحياة وظهورها وسلطانها ومتاعها على النفس التي قضت أيامها على طريق الطاعة والعبادة لله مخلصه إليه؟! وهذا بعد أمر الله للناس بطاعته وعبادته، ونهيه لهم عن الشُّرك به ومعصيته، وبعد أن أمر ونهي وكلّف؟!!

لا يكون هذا أبداً من الله وهو العدل الذي لا يظلم، ولا يردّه عن عدله أي شيء. وهذه المساواة على خلاف ما يقتضيه كمال النفس للسعادة، ونقصها للشقاء، وعلى خلاف ما يرضى به الوجدان الفطري حتى من غير العدل الحكيم المطلق فضلاً عنه سبحانه^(١).

والآية تقابل بين فريقين لا يمكن أن يستويا في عدل الله وحكمته، وهما فريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهؤلاء هم السُّعداء وأهل الجنّة، وفريق المفسدين في الأرض، وهؤلاء هم الأشقياء، وهم أهل النار، والكافر مفسدٌ لأنّ الكفر قاعدة فساد لا إصلاح^(٢)، وأرضيةٌ ضلال لا هدى، ومبعث سوء لا خير، ومنع خيانة لا أمانة، ومصدر خراب لا إعمار، ورجس لا طهارة.

والمتمسّي باسم الإسلام العاصي لله، السّاعي في الأرض بما نهى عنه، الظّالم للعباد، المضلّ عن طريق الله، المحارب لشريعته، المقلق للآمنين الأبرياء، المُسوّق للرذيلة في النّاس

١. المساواة بين المحسن والمسيء لا نرضاها بين بعضنا البعض، فكيف نرضاها لله تبارك وتعالى وهو الحكيم العادل الذي لا يرقى لعدله عدلاً، ولا يأتي على عدله حدّاً؟! «منه حفظه الله»

٢. المقابلة بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الأرض، المقابلة ليست بين الكافرين والمسلمين، فليس كلّ مسلم من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والمفسد يشمل الكافر وضرباً من المسلمين. «منه حفظه الله»

تدخله الآية الكريمة في فريق المفسدين في الأرض حين تقابل بينهم من جهة وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات من جهة أخرى لا بينهم وبين عموم المسلمين.

وبعد أن تكون المساواة، بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين في الأرض، ظلماً وأمرأً مجافياً كل المجافاة للعدل، فهل تجوز على الله سبحانه، حتى تنتهي حياة الفريقين في الأرض، وقبل القضاء في أمر الخلق، بلا مواجهة حساب ولا عتاب ولا مثوبة ولا عقاب؟! هذا لا يكون إلا عن ظلم من الله سبحانه، وحاشا الله الظلم، وهو أعدل العادلين، وأحكم الحاكمين؛ لا يمنع من العدل خوف، ولا عجز، ولا جهل، ولا نقص، ولا حاجة، وهو الذي لم يرض من عباده، أو لعباده ظلماً أو جوراً^(١)، وشدد في دينه المنزل على العدل والإنصاف، مع كل عدو وصديق، وبعيد وقريب، إذ يقول في كتابه الكريم: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢). وأصل العدل في الآية الكريمة، هي: تقوى العبد ربه، فمن اتقى الله، كان لا بد أن يعدل، ومن لم يعدل فلا تقوى له.

ويقول كتاب الله، وهو أصدق الصادقين: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾^(٣).

وإذا أردت الرجوع إلى العقل في عدل الله، قال لك العقل: إن التخلي عن العدل وهو حسن، والأخذ بالظلم وهو قبيح، إنما يكون لحاجة للظلم، ومعاناة من النقص، أو خوف

١. الله ﷻ يطالبنا في كتابه بالعدل بين بعضنا البعض ومع كل شيء، مع حيوان وجماد، ثم يظلم؟! «منه

حفظه الله»

٢. المائدة: ٨.

٣. الأعراف: ٨٧.

الضرر، أو عجز في القدرة، ولا شيء من ذلك مُحتمل في حق الكامل المطلق، وجلاله الذي لا حدَّ له، وجماله الذي لا نهاية ينتهي إليها، ومن لم يعرف الله بهذا فلا معرفة له بربه.

وإنه لظن قبيح، وحكم سيء غبيّ جائر أن يُظنَّ بأن الله سبحانه يُساوي بالإهمال أو غيره بين من اجترحوا السيئات، واكتسبوا الآثام، وأصروا على المعاصي، وبين الذين آمنوا في الحياة والممات، فيكون أثر الكفر والإيمان، والمعصية والطاعة واحداً في النفوس في الدنيا، وحشة أو أنساً، ظلمة أو نورا، سُخْطاً أو رضى، شقاء أو سعادة، وواحداً في النفوس وما عليه حياة خارجها في الآخرة عذاباً أو نعيماً، أو أن تخرج من هذه الحياة الدنيا المشتركة التي لا مائز في فرصها الخارجية عند مؤمن على كافر -وربما تمتع فيها كافر بما لم يحلم به مؤمن- لعدم فيه يستويان، وذلك بعدما أمر الله سبحانه ونهى وكلف، فأطاع مؤمن، وعصى كافر عنيد.

يقول تبارك وتعالى في كتابه المجيد، مستنكراً مستقبلاً مستهجناً مُخْطئاً: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(١).

إنَّ جعلهم سواء، محياهم ومماتهم، قبيحٌ، غير جائز على الله، يتنزه عنه عدله وعلمه وقدرته وحكمته وغناه.

وهو كما في الآية الكريمة اللاحقة، باطل لا يصدر عن الحق، وخلاف الخلق بالحق، وخلاف غايته من جزاء كل نفس بما كسبت، وخلاف إقامة العدل، والعدل صفة من صفات الجمال الإلهي لا تخلف له عن فعل من أفعال الله وتشريعاته وحكمه وقضائه على



الإطلاق.

﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(١).

فلو لم يكن بعثٌ بعد الموت، ولا حساب ولا عقاب لمسيء، ولا ثوابٌ لمحسن كان ذلك باطلاً، يتنافى مع خلق السماوات والأرض بالحق، وما عليه غاية الخلق ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، وكان ظلماً من الظلم المنفي بالآية الكريمة^(٢).

تجليات المعاد

"الآخرة يوم القيام، ويوم البعث، ويوم حشر الخلائق حيث يُجمعون جمعاً يُساقون إليه، ويرغمون عليه، وهم على جمعهم الهائل الذي لم يشهد جمع مثله، لا يُغني أحدٌ منهم عن أحد شيئاً، ولا يملك له دفعاً ولا منعا"^(٣). وفي هذا اليوم تجليات كبرى، نذكر منها الآتي:

١- تجلي التفرد البشري:

"إنَّ جمع يوم القيامة، وهو أكبر جمع لا يُشكّل مجتمعاً يعيش علاقات التعاون والتناصر ويقف الموقف الموحد أمام الأخطار كما تعهده مجتمعات الدنيا، فكلٌّ يحمل ثقله بنفسه، ويعيش معاناته وحده، ويشغله همه عن غيره، وتصرفه مصيبتة عمن سواه"^(٤).

١. الجاثية: ٢٢.

٢. خطبة الجمعة (٤٠٨) ٦ جمادى الثاني ١٤٣١هـ - ٢١ مايو ٢٠١٠م.

٣. خطبة الجمعة (٤١٤) ١٩ رجب ١٤٣١هـ - ٢ يوليو ٢٠١٠م.

٤. خطبة الجمعة (٤١٤) ١٩ رجب ١٤٣١هـ - ٢ يوليو ٢٠١٠م.



٢- تجلّي الفقر الإنساني:

"إنّه اليوم الذي لا استظهار فيه لعبدٍ بقوة، وليس فيه موقعٌ لغرور، إنّهُ يومٌ ضعف وتضعف وذلٌّ واستكانة واستسلام وخشوع، ولا أثر فيه لسُلطان موهومٍ غير السُلطان الحقّ الكامل الشّامل، سلطانٍ العزيز الجبار القهار.

يومٌ قال عنه سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(١).

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾^(٢).

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾^(٣).

يومٌ لا مكان فيه إلا لقهر الله، ولا ظهور فيه إلا لسطانه، يومٌ يخلو من الجماعات المتّحدة، والكيانات الجماعيّة الموحّدة، والجبهات المقاومة، والاحتجاجات الصّارخة، والأصوات المعارضة: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾^(٤)، ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾^(٥).

١. الزلزلة: ٦-٨.

٢. القارعة: ٤.

٣. الأنعام: ٩٤.

٤. طه: ١٠٨.

٥. النبأ: ٢٨. ننسى ذلك اليوم، نلهو عن ذلك اليوم، تشغلنا الدنيا، ويشغلنا الإعلام الكاذب، والسياسات الزائفة عن ذلك اليوم وهو يوم المصير. «منه حفظه الله»

يومٌ تسقط فيه كلُّ وسائل الإعلام والدعاية الكاذبة والزيف والافتراء، وتزوير الحقائق، ولا ينفع فيه إلا الحق، ولا يجري فيه إلا الصدق^(١).

٣- تجلّي الحشر الأعظم:

"يوم القيامة يوم الحشر العام؛ وهو حشر للمساءلة والمحاسبة والوزن والجزاء^(٢)، ويتناول كل ذي شعور وشيء من الإدراك حسبما عليه درجة شعوره، ومستوى إدراكه. حشرٌ يشمل كل دابة ووحش وطيّر فضلاً عن الإنسان والجن بما هم عليه من مختلف درجات موجب التكليف ومقتضاه.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾^(٣).

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾^(٤).

وحشرٌ ما يدب، والطيّر والوحش ليس لمجرد الاستعراض، إنه يومٌ لا يدع توهماً لأحد بأن مع الله ملكاً، أو مع أمره أمراً، ومع نهيه نهياً، ومع تصرفه تصرفاً، يوم تغيب فيه ملوكية كل ملك، وعظمة كل عظيم، وتظهر عظمة الله متجلية لكل مخلوق^(٥).

٤- تجلّي العدل الأكبر:

١. خطبة الجمعة (٤١٤) ١٩ رجب ١٤٣١هـ - ٢ يوليو ٢٠١٠م.

٢. إنه وزن دقيق لكل نفس، لكل ما فيها من خير وشر. «منه حفظه الله»

٣. التكوير: ٥.

٤. الأنعام: ٣٨.

٥. خطبة الجمعة (٤١٤) ١٩ رجب ١٤٣١هـ - ٢ يوليو ٢٠١٠م.



”وهو يوم العدل الأكبر، والجزاء الحق الذي ينفي عن خلق الكون أي عبثية، وأي باطل وإهمال، وحسبما ينساق من وظيفة الحشر يوم القيام، وما يفيدته سياق الآية الكريمة الثانية، من ذكر المثلية بين عالم الحيوان وعالم الإنسان في صفة الأُممية^(١). وما يعطيه هذا السياق من ربط بين هذا الثمائل وقضية الحشر، ومن عدم تفريط الكتاب في شيء، وعدم خروج شيء عنه، وقد يكون المعنى كتاب الأعمال وحفظها، وما يدل عليه لفظ ﴿يُحْشَرُونَ﴾^(٢)، المستعمل في ذوي الإدراك والشعور يكون المعنى من الحشر في الآيتين الكريمتين الحشر للحساب والجزاء.

وعلم الله لا يخطئ كبيراً وصغيراً، ولا يتجاوز ظاهر ولا خفي، وعدله لا يكلف نفساً إلا ما آتاها^(٣)، ولا يحاسبها إلا على قدر ما أنعم عليها، ولا يعاقبها إلا بما جنت على نفسها.

وكما للحيوان وزنه وحسابه، ويدخله التفاوت، فكذلك الإنسان ليس واحداً في مستواه ومواهبه ونعمه وفرصه، وحساب كل على قدره، ولا عقاب إلا بما يستحقه^(٤).

٥- تجلّي عزة الإيمان:

”ولنتذكر أنه رغم هول القيامة الذي لا تثبت له نفس ولا يتحمّله قلب، وتذهل له كلّ مرضعة عما أرضعت فإن هناك فئة من الناس في أمن من مس ذلك الهول، وفي راحة

١. والأمة تتضمن علاقات يدخلها العدل والإحسان والظلم والتعدييات. «منه حفظه الله»

٢. الأنعام: ٣٨. عبرت الآية الأولى عن الوحوش بأنها حشرت، أما في الآية الثانية فاستخدمت للجواب

والطير ضمير جمع العاقل فقالت ثم إلى ربهم يحشرون. «منه حفظه الله»

٣. ومن يزن النملة وما تحتل من تكليف؟ خالقها «منه حفظه الله».

٤. خطبة الجمعة (٤١٤) ١٩ رجب ١٤٣١هـ - ٢ يوليو ٢٠١٠م

وأنس واستبشار، ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ، ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾^(١)، ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾^(٢)، ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٣).

وفي الحديث عن الرسول ﷺ: «من عرضت له فاحشة أو شهوة^(٤) فاجتنبها مخافة الله ﷻ حرّم الله عليه النار وآمنه من الفرع الأكبر، وأنجز له ما وعده في كتابه في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾^(٥)»^(٦).

ومن الناس من إذا انفتح إليه باب فاحشة وشهوة محرمة عدّ ذلك فرصة الحياة التي لا تُفوت فباع نفسه للشيطان، واشترى اللذة الحرام بخلود النار، وكان يمكنه أن يأمن من الفرع الأكبر، وأن يحرم عليه الله النار، وتكون له عند ربّه جنتان لو رأى بعقله أنّ ذلك

١. عبس: ٣٨-٣٩.

٢. الحديد: ١٢.

٣. الأنبياء: ١٠٣.

٤. وهذا زمن عمّ فيه البلاء فيه بتوافر فرص الفاحشة، وانفتاح أبوابها الواسعة، بلاء عام. «منه حفظه الله»

٥. الرحمن: ٤٦.

٦. وسائل الشيعة للحر العاملي: ١٥ / ٢٠٩ ح ٢. أن يغلب الإنسان نفسه خمس دقائق، أقل من ذلك، يفر بدينه، فيفوز كلّ هذا الفوز، وينال كلّ هذا الجزاء. وإذا سقط، سقط من السماء إلى الأرض. «منه حفظه الله»

الباب باب شرٍّ وشؤمٍ وخسار^(١)، وأنَّ تلكَ الفرصة فيها مضيعة الحياة، وغضبُ الله، وقبح المصير ففرَّ منها منقذا نفسه، طالبا مرضاة الله.

٦- تجلي القضاء الحق:

"الحديث عن الأشهاد في يوم القيامة، وهو قضية محورية من قضايا الآخرة، والحساب والجزاء.

ويواجه عمل الإنسان في خيره وشره، وحسنه وقبيحه في الدنيا رصداً دقيقاً شاملاً، وإثباتاً وتوثيقاً أميناً كاملاً، وتحملاً مستوعباً حافظاً بقدرة الله، وفي الآخرة شهادات متعددة، عادلة، رصينة، متقنة، لا يخالط حفظها نسيان، ولا أداءها خلل، ولا عدلها ظلم، ولا قيامها بالقسط نقص إحقاقاً للحق، وإزهاقاً للباطل، وتتميماً للحجة، وقطعاً للعدر.

وقد جاءت الآيات القرآنية كثيرة في هذا الإشهاد ودرجاته العالية، وأنواع الشهود ومستوياتهم الرفيعة حتى يصل الأمر إلى شهادة الله الذي يُسبِّح له ما في السموات والأرض، وعلمه ليس مثله علم، وهو أعدل العادلين.

وهذه نماذج من آيات الكتاب الكريم في هذا الموضوع:

[أ-] يوم الأشهاد:

[قال تعالى:] ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(٢).

١. هذه التي تريد أن تخدعك، التي تعرض نفسها رخيصة عليك تسلب منك دينك وشرفك وجنتك ورضا ربك، فافهم، وذلك الإنسان الشاب الشيطان الذي يزين لك القبيح لا بد أن تري فيه أنه عدو وأعدى عدو. «منه حفظه الله»

٢. غافر: ٥١.

فالأهمية الشهادة يوم القيامة، والأخذ بها، وترتب الأثر الكبير عليها جاءت تسمية ذلك اليوم بيوم الأَشهاد.

والأشهاد جميع شاهد، والشهيد مبالغة من شاهد، وجمعة شهداء.

[ب-] الشهادة على الأمم:

[قال تعالى:] ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾^(١).

هناك شهادة على الأفراد بما هم أفراد، وربما كانت هناك شهادة على الأمة أي أمة بما هي أمة فيما كان لها من مواقف موحدة تمثل هويتها، وتنطلق من طابعها العام، وتمثل سلوكاً اجتماعياً لها، وإن كانت لا تتحمل أي نفس من المسؤولية والجزاء إلا بمقدار ما أُوتيت، وكسبت يداها، وأسهمت في الموقف الانحرافي العام.

[ج-] شهود يوم القيامة:

١. خير الشاهدين: وهو الله سبحانه: ﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَلَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾^(٢).

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا

١. النحل: ٨٩.

٢. يونس: ٤٦.



أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٢). ويوم القيامة ينكشف الغطاء عن القلوب، وترتفع حجبها، وترى علم ربها وعدله، وتوقن بإحاطته فلا تُجادل في حقانيته كلمته، ونزاهة شهادته، ولا يقبل وجدانها بشيء من الريبة والتشكيك في ما يشهد به.

٢. شهادة الملائكة: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾^(٣)، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(٤).

٣. شهادة الأنبياء: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٥).

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^(٦).
 ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾^(٧).
 ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

١. يونس: ٦١.

٢. الحج: ١٧.

٣. ق: ٢١.

٤. ق: ١٨.

٥. البقرة: ١٤٣.

٦. النساء: ٤١.

٧. النساء: ١٥٩.

بالحق وهم لا يظلمون»^(١).

الأنبياء يسألون عن أداء الرسالة ويشهدون بأدائها، ولا تشكيك عند أحد يومذاك في صدق النبيين ونزاهتهم لأنَّ النظرة الزائغة عن الحق تذهب يوم القيامة، والأمور لا تكون ملتبسة، ولا يشتبه حق بباطل، ولا مصلح بمفسد، ولا صادق بكذوب.

٤. الشهادة على النفس^(٢): ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(٣).

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾^(٤).

٥. شهادة الأسماع والأبصار والجلود: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾^(٥)، ﴿وَقَالُوا لِحُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٦).

٦. شهادة الألسن والأيدي والأرجل: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ

١. الزمر: ٦٩.

٢. إنه الإقرار، الاعتراف عن رضى واختيار وصدق. «منه حفظه الله»

٣. الأعراف: ١٧٢

٤. الأنعام: ١٣٠.

٥. فصلت: ٢٢.

٦. فصلت: ٢١.

بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»^(١).

«الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»^(٢).

فكل عضوٍ ناطقٍ بما أتى، وكلّ جارحة مؤدّية شهادتها على ما كسبت.

٧. شهادة الأرض: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا»^(٣).

وما أعظمه من سجلٍّ أخبارٍ تحتفظ به الأرض من حياة هذا الإنسان وعدله وظلمه وآثار تقواه وفجوره، وإصلاحه وإفساده!!

٨. شهادة الأعمال: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»^(٤).

«وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا»^(٥).

«اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا»^(٦).

«وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٍ كُلِّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»^(٧).

١. النور: ٢٤. شهود لا تغادرنا في الحياة لحظة، ولا يغيب عنها عمل من أعمالنا. «منه حفظه الله»

٢. يس: ٦٥.

٣. الزلزلة: ٤-٥.

٤. الزلزلة: ٧-٨.

٥. الإسراء: ١٣.

٦. الإسراء: ١٤. كتاب الأعمال. «منه حفظه الله»

٧. الجاثية: ٢٨-٢٩.

إنَّ يومَ يقومُ النَّاسُ لربِّ العالمينَ هو يومُ محكمةِ العدلِ الكبرى التي لا تَعْمَى فيها عينٌ عن عدلِ الله، ولا ترتابُ نفسٌ عاصٍ أو مطيع، ولا محسنٌ أو مسيء، ولا ظالمٌ أو مظلوم في إقامةِ القِسْطِ، والقضاءِ العدل، وإحقاقِ الحقِّ، ودقَّةِ الوزن، والإحاطةِ في الحكم، والإطلاق في العلم، وشمولِ القدرة.

وكفى بعلمِ الله عن كلِّ علم، وإطلاعه على الأسرار والخفايا عن كلِّ اطلاع، وبشهادته عن كلِّ شهادة لإقامة العدل والأخذ بالقسط ولكن لتأكيد الحجّة، والزيادة في قطع العذر، وإظهار الأمر لا تبقى جارحةٌ إلا وتشهد على صاحبها، ولا نفس إلا وتقرّ على نفسها، وتقيم شهادة عادلة على جرمها، وقبيح ما كسبته من سوء، وما أتته من عظيم معصية.

فأين القضاء الظالم في الدنيا الذي يحكم في أعراض الناس وأموالهم ودمائهم بغير ما أنزل الله سبحانه وبطرق إثبات قوامها التعذيب والإكراه وشهادات الزور؟!^(١).

آثار عقيدة المعاد

"برغم ما عليه النفس الإنسانية بطبيعتها من بذور الإيمان الفطري باليوم الآخر، إلا أنَّ النَّاسَ فعلاً منقسمون بين مؤمن وكافر؛ فريق يقول عنه كتاب الله الصادق: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^(٢)، وفريق آخر يقول عنه: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾^(٣).

وكلُّ من الفريقين يأتي سلوكه في الدنيا على خلاف ما عليه الآخر، وتختلف

١. خطبة الجمعة (٤١٦) ٣ شعبان ١٤٣١هـ - ١٦ يوليو ٢٠١٠م.

٢. البقرة: ٤.

٣. الأنعام: ٢٩.

أخلاقيتهما، وما يترشح عن هذا الطريق، وذلك الطريق، وكثيراً ما يناقض أهل الدنيا ضرورات الآخرة، ويفسدون طريقها على الآخرين، ويصطدم أهل الآخرة بعث أهل الدنيا وظلمهم، وما يجري على أيديهم من الفساد ومن هنا، ولإنكار الدين على هذا الوضع تكون المنازعات.

خياران: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾^(٢).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَّصِيبٍ﴾^(٣).

الكافر يأخذ بخيار الدنيا، وأكثر من ينتسب لأهل الإيمان يغلب هذا الخيار نفسه، ويطغى في الأغلب على مواقفه، والثلة الواعية المتميزة من أهل الإيمان الحق هي التي تقدم الآخرة على الدنيا، وتشتريها بها.

وخيار الآخرة هو خيار الله ﷻ لهذا الإنسان.. خيار علمه، وحكمته، وإحاطته، ورحمته، وصدقه، ولطفه، وشفقته به.

ومع ذلك نقابل خيار الله لنا الذي لا ينبغي أن يحوم حوله سوء ظن ولا شك، بخيار من نظرتنا القصيرة، وفي غياب من الخبرة بالآخرة نعيمًا وعذاباً، وبدافع من هوى نفس أمارة بالسوء، وبكيد من شيطان حاقد حائد، وأعداء جهلة مستكبرين، وبإلهاء من فسقة

١. الأنفال: ٦٧.

٢. آل عمران: ١٥٢.

٣. الشورى: ٢٠.

ماجنين ساقطين^(١).. فما أسوأ ما اختار امرؤ لنفسه بتزيين من هواه، وهوى أعدائه في قبال ما يختاره له ربُّه العليم الخبير الحكيم الرؤوف الرحيم^(٢).

حياة المعاد ولذائذها

”أما حياة المعاد فهي حياة روح وجسد، واللذة فيها لذتان، والعذاب أكثر من عذاب، يقول القرآن الكريم: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾^(٣).

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ، بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾^(٤).
﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَقَالُوا لِمَ لِيُجْلُدَ مِنْ لَمُ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٥).
وفي آية أخرى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾^(٦).

وقد انصبَّ تساؤل منكري البعث على إعادة البدن كثيراً، فكانت الإجابة القرآنية على هذا الاستبعاد واضحة جلية.

١. هذا هو مرجعنا في تقديم خيار الدنيا على خيار الآخرة في قبال خيار تختاره حكمة الله وعلمه ولطفه. «منه حفظه الله»

٢. خطبة الجمعة (٤٠٤) ٨ جمادى الأولى ١٤٣١هـ - ٢٣ أبريل ٢٠١٠م.

٣. يس: ٧٨-٧٩.

٤. القيامة: ٣-٤.

٥. فصلت: ٢٠-٢١.

٦. الحج: ٧.

والحياة البدنية هناك حياة غنية، ثرة، دفاقة، في طهارة وسمو، وتتمتع الأسماع والأبصار والجلود يوم القيامة بالقُدرة على أداء شهادة عادلة، منصفة، حقة على أصحابها، تنطق بها في حياذ تام، بإقدار من الله المقتدر العدل الجبار.

ونقرأ عن لذائذ البدن في الآخرة:

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾^(١).

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَاجِنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾^(٢).

﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ﴾^(٣).

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ، يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمَنِينَ * لَا يُذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾^(٤).

﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وُلَدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ، لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ، وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ *

١. الزخرف: ٧٢-٧٣.

٢. الطور: ١٩-٢٠.

٣. الطور: ٢٢-٢٣.

٤. الدخان: ٥١-٥٦.

وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿١﴾
ونقرأ عن لذائذ الروح: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ (٢).
﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا
أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٣).
﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٤).
فحياة الآخرة حافلة بأنواع اللذائذ البدنية في أرقى مستوى لها، وأنقى صورة، وأكثر
متعة، وأشد روعة، وأحسن مردوداً، وأبعد حالاً عن أي تأثير سيء، وهي لذائذ لا يمكن
أن تُقاس لذة بما عهده أترف إنسان في هذه الحياة، وذلك في جو هاني نظيف طاهر، ووضع
لا هم فيه ولا حزن ولا قلق ولا خوف ولا اضطراب ولا إساءة، ولا شهوة تفقد طيباً،
ولا أمنية خير لا تلقى إجابة، ولا انقطاع لنعيم.
ولذات المادة في الآخرة على غزارتها وشدتها لا تُغيب وعياً، ولا تُلوّث روحاً، ولا
تقلل من حضورها، ولا تأخذ من لب الإنسان، ولا تصرفه عن ذكر ربه.
وكل لذات المادة على بلوغها قليل عند لذة الروح وهي تشعر بمرضاة الله عنها؛

١. الواقعة: ١٥-٢٣.

٢. آل عمران: ١٥.

٣. التوبة: ٢١-٢٢.

٤. التوبة: ٧٢.



فتعظم شأناً بهذا الشعور، وتكبر ثقة، وتسعد حالاً، وتأمين محذوراً، وتسكر لذة، وتنجو من هاجس سوء، وتفيض رضى، وتغنى طهراً ونقاءً وصفاءً، وتتلئؤاً ونوراً وجمالاً.

نعم لذة المادة هناك لا تلهي ولا تغوي، ولا تسيء ولا تردي، ولا تقلل من شأن، ولا تسقط في غفلة، ولا تطفئ نور قلب، ولا تعكر صفو روح، ولا تقطع عن جمال الله ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ﴾^(١).

حياة كلها سعادة بلا شقاء، جمال بلا قبح، خير بلا شر، صفاء بلا مكدرات، لا جانحة من إنسان الجنة تشتغل بقبيح، ولا جارحة تقترب من منكر، ولا حس يقع على ما يضير، لا تذوق مرّاً، ولا ترى قبيحاً، ولا تسمع أذى، ولا ملمس إلا ويريحك، ولا منظر إلا ويسرك، ولا كلمة إلا وتنعشك، ولا فعل إلا ويرضيك، ولا وجه إلا ويلقاك بالبشر والنور، لا يغيب عنك هناك الجمال، ولا يقتحم على حياتك لحظة القبح.

﴿دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَ دَعَوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٣)، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْتِيماً، إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً﴾^(٤)، ﴿لَا يَسْمَعُونَ

١. الطور: ٢٢-٢٣.

٢. يونس: ١٠.

٣. يونس: ٢٥-٢٦.

٤. الواقعة: ٢٥-٢٦.

فِيهَا لَغَوًّا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا^(١)، ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا، خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا^(٢)﴾، حسنت مستقراً ومقاماً في علم الله وتقديره وحكمه وبعطائه ومن قدرته، فهل تكون فيها ثلثة، وهل تعاني الهناء فيها ورقي الحياة من نقص؟!

وصحيح أن الحياة الدنيا لا تكون بمستوى الآخرة ولكن لو حكم الإسلام الأرض على يد قاداته الحقيقيين لأوجد من هذه الحياة واقعاً يغني بكثير من خير الجنة للبدن، وخير الجنة للروح، ولأثرت الحياة، وشفّت، وطهرت، وزكت، وسمت، وتوارى الظلم والرجس واللغو والأذى والقبيح، وزانت الأوضاع وأشرقت النفوس، وأثلجت الصدور، وهنأ القلب، وسعدت الروح إلى حدّ كبير^(٣).

والحمد لله رب العالمين.

اللهم أكفنا شر أعدائك وأعدائنا، ورد كيدهم في نحورهم، وارمهم بغضب منك يقمعهم ويركسهم في بلاء مقيم، ومحنة ساحقة، واجعلنا ممن لا يتخلق إلا بخلق دينك، ولا يتبع إلا ما دلّ عليه منهجك، ولا يستقي إلا من مدرسة وحيك، وما استساغته شريعتك، واجعلنا من الدالّين على طريقك، العاملين على التمكين لكلمة أنبيائك ورسلك وأوليائك، الموالين لهم المعادين لأعدائهم، الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، الآخذين بالخير المعادين للشر، يا أرحم من كل رحيم، يا أكرم من كل كريم^(٤).

١. مريم: ٦٢.

٢. الفرقان: ٧٦.

٣. خطبة الجمعة (٤١٥) ٢٦ رجب ١٤٣١هـ - ٩ يوليو ٢٠١٠م.

٤. خطبة الجمعة (٧) ٢٤ صفر ١٤٢٢هـ - ١٨ - ٥ - ٢٠٠١م..

الفصل الخامس: الشفاعة

معنى الشفاعة

"الشفاعة لغة: تقول: شفع الشيء شفعاً، وتعني: أنه ضمَّ إليه مثله، فتشفع طلبك، يعني: أن تضمَّ إلى طلبك الطلب من غيرك، فيقوى به طلبك، وشفع فلان لفلان كان شفيعاً له، وشفع إلى فلان، توسَّل إليه بوسيلة، وشفع في الأمر، كان شفيعاً فيه، وشفَّع الله نبيَّه ﷺ في كذا، قبل شفاعته فيه، والمشفَّع هو مقبول الشفاعة، وتشفَّع بالنبي ﷺ إلى الله توسَّل به إليه، واستشفع: طلباً ناصراً، وشفيعاً، واستشفع به طلبه شفيعاً، أو جعله كذلك.

أركان الشفاعة

طالبٌ غير مقبول الطلب قطعاً أو توقُّعاً، وهذا هو المستشفع. فالمستشفعُ إنسان قاصد إلى حاجته، إلا أنَّه في مقام التكوين لا يجد القوة الكافية للوصول إلى هذا الطلب فيستعين بغيره، وفي مقام الرجاء، كطلب الولد قضاء حاجة أبيه الذي قد يجد أن طلبه لا يدخل في قلبه لأمر بينه وبينه فيستشفع بأمه لأبيه، لينضمَّ طلب أمه إلى طلبه فيقوى بذلك طلبه، فيحصل على مراده، فهو مستشفعٌ بأمه.

أما المستشفعُ إليه فهو المقصود بالطلب، والقادر على تحقيقه، والمطلوب رضاه من أجل أن يحصل مطلوب الطالب.

وهناك مستشفعٌ به ولا بد أن يكون المستشفع به وهو الذي ينضمَّ طلبه إلى طلب الطالب ليقوى ذلك الطلب، مقبول الشفاعة عند من يستشفع إليه.

فالعبد يستشفع إلى ربه بنبيه ﷺ؛ ذلك لأنه يؤمل في أن انضمام طلب النبي ﷺ إلى طلبه، ودعائه إلى دعائه، ويرضى الله ﷻ بطلبه، ولأنه يجد للنبي ﷺ عند ربه مقاماً. وهذا المستشفع به، إنما يقصد إليه الطالب بطلبه، لعلاقة حسنة بينه وبينه، تجعله يقبل الاستشفاع، أما لو كانت العداوة ضاربة بين صاحب الطلب وبين من يستطيع أن يشفع له، فإنه لا يستشفع به، لانقطاع أمل الاستجابة منه، فمن أراد أن يستشفع مثلاً برسول الله ﷺ، وهو لا يجد بينه وبين رسول الله ﷺ سبباً، لا يستشفع به، فإنما يستشفع برسول الله ﷺ، وبأهل بيته، من وجد أن بينه وبينهم سبباً، وإلا فليس فوق كرم الله كرم، وليس فوق قدرة الله قدرة.

نعم لا بدّ من درجة من القبول بهذا الإنسان عند رسول الله ﷺ حتى يقصد إلى الاستشفاع به، ولا رضا من رسول الله ﷺ بأحد، ولأحد، إذا كان الله غاضباً عليه، فمن غضب الله ﷻ عليه غضباً ماحقاً، فهو مغضوب عليه عند رسول الله ﷺ.

فأصل الأمر: أن يكون بين العبد وبين الله نوع علاقة، يؤمل أن يرضى بها الله ﷻ عنه، ولو بشفاعته نبيه ﷺ، أما إذا كان الغضب مستولياً فلا.

أسباب قبول الشفاعة

ما هي المتكآت التي يتكئ عليها الشفيع في شفاعته عند المستشفع إليه؟
الأم كيف تتوسط لولدها؟ أو الولد البار كيف يتوسط لأمه عند أبيه؟ والملك الفلاني كيف يتوسط عنده المتوسطون لفلان؟ ما هي المنطلقات؟

١. الرجاء:

لا بدّ أن يكون المشفوع عنده راجياً لخير في الشفيع، بأن يملك الشفيع ما يرجوه



المستشفع عنده، ليقبل شفاعته، الملك الذي لا يرجو من الشفيع موقفاً إيجابياً معه في محنته، ولا يرجو منه إخلاصاً له في وظيفته، لا يقبل شفاعته، قد يقبل شفاعته من منطلق أنه يرجو منه نفعاً.

٢. الخوف:

مستشفع عنده، قد يقبل شفاعته الشفاعة لو كان يخاف منهم حين لا يستجيب لهم، هذا منطلق ثاني وهو الخوف.

٣. الحب:

أن يكون مستشفع عنده يملك الشفيع موقفاً في قلبه، وينال حباً من حبه لأي منطلق من المنطلقات، فهذا الحب وسيلة الشفيع في الضغط على المستشفع عنده. الرجاء الذي في قلب المستشفع عنده أو الخوف أو الحب، هو الوسيلة الضاغطة التي يستعملها الشفيع على قرار صاحب القدرة، والمطلوب منه الطلب.

٤. التقدير والإكرام:

أ- وهذا التقدير والإكرام، قد يكون شكراً لإسداء جميل، أنت أسديت جميلاً لفلان، فتستطيع أن تتوسط عنده، وإن لم يخف منك أو يرجو منك جديداً.

ب- أيضاً له منطلق آخر، وهو شكر الطاعة والإخلاص، أنت الشفيع لا يرجو منك المستشفع عنده شيئاً، ولا يخاف منك، وليس لك جميل عليه أصلاً، ولكن يجد من إخلاصك له وطاعتك وعبوديتك ما يجعله يشكرك، ويقدر كلمتك.

والله عَزَّ وَجَلَّ لا شفاعته عنده إلا من هذا الباب؛ إلا من باب أن الشفاعة أهل طاعة



وإخلاص وعبودية صادقة.

فهو يحب هذا العبد حباً غير انفعالي، لأن الحب الانفعالي يعني ضعفاً في المحب، والله ﷻ منزّه عن أي ضعف، فهو لا يحب حباً من موقع الانفعال، وإنما يوصف بالحب لأنه ﷻ يفعل فعل المحب بحبيبه.

فالمنطلق الذي تنطلق منه الشفاعة عند الله سواء كان الشفيع ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلًا هو هذا المنطلق؛ منطلق أن هذا الشفيع يعيش حالة العبودية الصادقة لله ويخضع له كل الخضوع، ويمتثل أوامره ونواهيه، فكتب الله ﷻ على نفسه أن يظهر كرامة هذا العبد، ويجعل له الشفاعة في غيره.

شفاعة الدنيا

هناك شفاعة في الدنيا؛ وقد تكون لأمر الدنيا، أو الآخرة إذا كانت شفاعة عند الله.

أ- الشفاعة بين الناس أنفسهم:

والأحاديث ترغّب فيها، وتدفع إليها.

ومعناها: أن هذا الواحد من الناس، يشفع للآخر عند واحد أيضاً من الناس، عن الصادق عليه السلام: «الشفاعة زكاة الجاه»^(١).

عن الرسول ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ صَدَقَةُ اللِّسَانِ - الشفاعة تفسر صدقة اللسان فهي بدل منها - الشفاعة، تفكُّ بها الأسير، وتحقنُ بها الدَّم، وتجرُّ بها المَعْرُوفَ إِلَى أَخِيكَ،

١. تحف العقول للحراني: ٣٨١.



وَتَدْفَعُ بِهَا الْكَرِيهَةَ»^(١).

عنه ﷺ: «مَنْ شَفَعَ شَفَاعَةً يَدْفَعُ بِهَا مُغْرَمًا، أَوْ يُحْيِي بِهَا مَغْنَمًا، ثَبَّتَ اللَّهُ قَدَمَيْهِ حِينَ تُدْحَضُ الْأَقْدَامُ»^(٢).

وعنه ﷺ: «أَفْضَلُ الشَّفَاعَةِ أَنْ تَشْفَعَ بَيْنَ اثْنَيْنِ - رجل وامرأة - فِي النِّكَاحِ»^(٣).

فلنكن من أهل الشفاعة بالخير، ولا نكون من السعاة في الناس بالشر.

ب - الشفاعة عند الله:

وهذه قد تكون في أمور الدين، أو الدنيا.

عن الرسول ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَسْرَعَ إِجَابَةً مِنْ دَعْوَةِ غَائِبٍ لَغَائِبٍ»^(٤). كل المسلمين يؤمنون بدعوة الغائب للغائب، والحاضر للحاضر، وما معنى ذلك؟ أنك تضم دعاءك ليقوى به دعاء أخيك، وتضم طلبك له إلى طلبه ليقوى به طلبه، فهي شفاعة.

«أَسْرَعُ الدُّعَاءِ نَجْحًا لِلْإِجَابَةِ دُعَاءُ الْأَخِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، يَبْدَأُ بِالدُّعَاءِ لِأَخِيهِ فَيَقُولُ لَهُ مَلِكٌ مُوَكَّلٌ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ مِثْلَاهُ»^(٥)، فهي شفاعة مقبولة، أنت تشفع دعاءك بالدعاء لأخيك، في هذا الحديث دعاؤك لنفسك تشفعه بدعائك لأخيك، فيقوى بذلك دعاؤك

١. عدة الداعي ونجاح الساعي لابن فهد: ٧١.

٢. كنز العمال للهندي: ٣ / ٢٧٠ ح ٦٤٩٦.

٣. كنز العمال للهندي: ٣ / ٢٦٨ ح ٦٤٩٢.

٤. الكافي للكليني: ٢ / ٥١٠ ح ٧.

٥. الكافي للكليني: ٢ / ٥٠٧ ح ٤.

لنفسك، كما تشفع دعاء أخيك بدعائك له، ليقوى دعاؤه، فهنا شفاعتان في الحقيقة.

«أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَالَ لِمُوسَى: ادْعُنِي عَلَى لِسَانٍ لَمْ تَعْصِنِي بِهِ؟ فَقَالَ: يَا رَبُّ أَنِّي لِي بِذَلِكَ؟ - وكون موسى عليه السلام يحتاج إلى شفاعته الشفعاء، من باب أن حسنات الأبرار سيئات المقربين، والشفاعة شفاعتان: شفاعته من أجل أصل النجاة، وشفاعته من أجل رفع المنزلة، فمن كان فوق النبي موسى عليه السلام شأنًا من أنبياء الله، يصح أن يكون شفيعا له من أجل رفع الدرجة - فَقَالَ: ادْعُنِي عَلَى لِسَانٍ غَيْرِكَ»^(١). استشفع بدعاء على لسان غيرك لي.

[و]عن الصادق عليه السلام: «إِذَا حَزَنَهُ أَمْرٌ جَمَعَ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ ثُمَّ دَعَا وَأَمَّنُوا»^(٢). الإمام عليه السلام يستشفع بضعف الصبي عند الله^(٣).

الشفاعة لغير الله والنفي المطلق:

هناك نفي مطلق للشفاعة من غير الله تعالى، هناك طائفة من النصوص تقرر أن لا شفاعة لأحد غير الله سبحانه، نقرأ من هذه الطائفة: [قوله تعالى]: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٤). كل الشفاعة لله، وليس فرد من أفراد الشفاعة لأحد غير الله مطلقاً.

الشفاعة لله وحده، كما هو مفاد الآية الكريمة، وتقريرها صريح في أن الشفاعة كلها له تعالى، إذاً لا شيء من الشفاعة لأحد غيره، والأسلوب أسلوب حصر ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ﴾

١. عدة الداعي ونجاح الساعي لابن فهد: ١٣١.

٢. الكافي للكليني: ٢ / ٤٨٧ ح ٣.

٣. خطبة الجمعة (١١٠) ٧ ربيع الأول ١٤٢٤ هـ ٩ مايو ٢٠٠٣ م.

٤. الزمر: ٤٤.



ويؤكد الحصر لفظة جميعاً.

[وقوله تعالى]: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾^(١).

[وقوله تعالى]: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ غَرْتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾^(٢). لا شفاعة بالأصل، ولا شفاعة عرضية لغير الله ﷻ، ليس من أحد يملك مع الله شفاعة، ومن دون إذن الله تبارك وتعالى. هناك شفاعة؛ ولكن الشفاعة للملك المقرب أو للنبي المرسل ليست من نفسه، ولا يملك من أمرها بالأصل شيئاً أبداً، فالشفاعة الثابتة للشفعاء بنصوص أخرى، إنما هي شفاعة منزلة من الله ﷻ، موهوبة منه للخُص من عباده، فهي شفاعة طولية وليست عرضية.

وكما أنه لا شفاعة في الأصل لأحد من دون الله، لا شفاعة لأحد بعتاء من الله لضغط على الله، فالله القوة التي لا يضغط عليها شيء، والملك الذي لا ملك معه، والمالك الذي يدخل في ملكه كل شيء.

إنه لا يمكن أن يأتي شيء على الله يفعل به، لا شكر، لا حب، لا ضعف، وليست من قوة أبداً يمكن أن تضغط على الله ﷻ حتى من خلال الحب، والله فاعل، غير منفعل أبداً، ومن فعله أن يتكرر بموقع الشفاعة على من ارتضاه، وواضح انتفاء الشفاعة بالأصل وانتفاؤها بالتبع من موقع الضغط على الله ﷻ ما دام هو الملك الذي لا ملك معه، والمالك

١. السجدة: ٤.

٢. الأنعام: ٧٠.

لكل شيء سواه.

ولكن ما معنى شفاعته الله؟

﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ﴾^(١): نحن نعرف أن الشخص يشفع إليه غيره، يعني يستشفع عنده غيره لطرف ثالث، أما كيف أشفع نفسي لأجيب طلب ولدي؟ فكيف يكون الله ﷻ هو المسؤول، وهو مالك الطلب، ثم ويكون مع ذلك شافعاً إلى نفسه؟!

شفاعة الله ﷻ معناها: فيض رحمته على عبده الجاني الضعيف.

وهنا في الحقيقة فيضان: فيض رحمة على الشفيع، كالرسول ﷺ، وفيض رحمة على العبد المذنب الذي سأل الله ﷻ شفاعته رسول الله ﷺ.

وبلغة واضحة: رحمة الله أعطت كرامة لمحمد بن عبد الله ﷺ، وأعطت فرصة لنجاة العبد المذنب إذا انضم إلى طلبه واستغفاره وتوبته الاستشفاع من رسول الله ﷺ.

فمن مالك الشفاعته؟ [الجواب]: إنما هو الله سبحانه.

من الشفيع الحق الأصل؟ [الجواب]: هو رحمة الله وكرمه.

فلا ننجح لطلب الطالب، ودعاء الداعي، واستغفاره وتوبته إلا برحمة الله ولطفه وكرمه، وإن انضم كل الشفعاء في الأرض والسماء إلى طلب الطالب.

فإذا طمعت في شفاعته رسول الله ﷺ فليكن طمعك بالأصل في شفاعته الله، [و] في رحمة الله وفيضه.



فأين هذه الشفاعة من الشرك؟!

[إنه] لا مقام للشرك في مثل هذه الشفاعة مطلقاً، وهذا هو الفهم الدقيق للشفاعة عندنا.

وألقت نظرکم إلى أن النصوص التي قرأتها في الطائفة الأولى، كلها تعطي العلة بوضوح لانحصار الشفاعة في الله، ولو قرأتوها لفهمتم ذلك ببساطة. مثلاً: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١).

لماذا له عَزَّ وَجَلَّ الشفاعة وحده، وكلها له؟

[الجواب]: لأنه مالك السموات والأرض، ولا مالك معه.

والآية الكريمة الأخرى تقول: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾^(٢)، وهي مثل أختها في الاستدلال.

وكثير من الآيات التي نقرأها، وتطرح قضايا قد لا نكتشف بالنظرة الساذجة دليلها في الآية الكريمة، وقضايا كثيرة في الكتاب الكريم إن لم يكن كل القضايا تحمل دليلها في النص القصير المختصر جداً.

الشفاعة لغير الله، والنفي المقيّد:

قرأنا طائفة من النصوص تثبت الشفاعة كلها لله، تنفي الشفاعة عن أحد غير الله نفياً

١. الزمر: ٤٤.

٢. السجدة: ٤.

مطلقاً، وهذه طائفة أخرى تنفي الشفاعة عن غير الله، ولكن هذا النفي مقيد وليس مطلقاً، [ففي قوله تعالى -مثلاً-]: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾^(١)، لا تجدون هنا نفيّاً مطلقاً للشفاعة، وإنما تجدون نفيّاً للشفاعة من غير إذنه سبحانه، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، فيوجود هنا استثناء، النفي كان هناك مطلقاً لأن النفي الشفاعة الأصلية، والمثبت هنا بالاستثناء أو ما يسمى بالشفاعة الطولية أي الشفاعة الموهوبة من الله، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾ لا أحد يشفع عنده هذا نفي. ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، يثبت شفاعة، لكن ليس المثبت هنا هو عين المنفي، المنفي نوع من الشفاعة، والمثبت نوع آخر من الشفاعة.

الآية الكريمة في قوله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾، تنفي الشفاعة نفيّاً مطلقاً، وهذا المنفي نفيّاً مطلقاً، هو: الشفاعة الأصلية، التي يستقل بها الشخص، ولا يستطيع أحد أن يتصرف فيها، وليست موهوبة له من غيره. [إنّ هذا النوع من الشفاعة منفي، والمثبت: الشفاعة التي بالإذن، وتعني: شفاعة منزلة من القوي للضعيف، ولو كان الشفيع مالكا للشفاعة في نفسه لما احتاج إلى الإذن، فذكر الإذن هنا يحمل قضيتين: قضية أن هناك شفاعة، وأن هذه الشفاعة لغير الله شفاعة منطلق كرم الله، وتفضله على بعض عباده، فهي شفاعة تبعية، فنفهم من كلمة: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، أنّ الشفاعة تبعية، وليست استقلالية، ولا يملك منها الشفيع في الأصل شيئاً أبداً، وإلا لما احتاج إلى إذن الله.

ونقرأ للنفي المقيد قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ



فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ^(١) اللهُ خالق لكل شيء، ومدبر لكل شيء، وليس لغيره شيء أصلاً، يستند إليه ويضغط به، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٢)، فالآية الكريمة لها ما لسابقتها من مضمون ينفي الشفاعة الاستقلالية ويثبت الشفاعة التبعية^(٣).

قيود الشفاعة

"ثبت عندنا سابقاً أن الشفاعة في الأصل ليست إلا لله وحده، وهذا واضح عقلاً ونقلاً، كما ثبت قرآنًا أن الله ﷻ يهب لمن يشاء مقام الشفاعة بإذنه، تفضلاً وتكرماً، وإظهاراً لشان الشفيع عنده سبحانه، من حيث صدق عبوديته، وخالص طاعته، والشفاعة من هذا المنطلق، لا يمنع منها العقل أبداً، أما الشفاعة وإن كانت تبعية، إذا كانت من منطلق الضغط عليه سبحانه، وإجائه، فهو منزّه عنها، لتفردّه بالخلق والملك والعلم والتدبير، وانتفاء أيّ حول أو طول عن غيره إلا من جهته وبعطائه، ولغناه تبارك وتعالى وكماله المطلق الدائم"^(٤).

و"صحيح أن الله ﷻ يعطي الشفاعة التبعية لبعض عباده، ولكن هل هذه الشفاعة التبعية ثابتة مطلقاً؟ أو أن عليها قيوداً؟

الشفاعة التبعية لغير الله سبحانه وإذنه تواجه أكثر من قيد:

١. يونس: ٣.

٢. البقرة: ٢٥٥.

٣. خطبة الجمعة (١١١) ١٤ ربيع الأول ١٤٢٤هـ - ١٦ مايو ٢٠٠٣م

٤. خطبة الجمعة (١١٢) ٢١ ربيع الأول ١٤٢٤هـ - ٢٣ مايو ٢٠٠٣م

[أولاً]: قيد الشفعاء:

تقول الآية الكريمة: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾^(١). فلا بد من درجة من الطاعة وإخلاصها لتأهيل العبد تأهيلاً خاصاً لأن يكون شافعاً عند الله مرضياً عنه رضا يمنحه هذه المنزلة، فوصول درجة الشفاعة بأن يكون للشخص شأن الشفاعة يحتاج إلى تأهيل، وليس من تأهيل للعبد عند الله إلا عبر الطاعة وإخلاصها.

ثم إن مراتب الشفاعة مختلفة، فالشفيع بدرجة قد لا يكون شافعاً بدرجة أخرى؛ إذ قد تختلف مراتب الشفاعة من حيث العدد ونوع المعاصي ودرجات الجنة، كما تختلف منازل الشفعاء ودرجة قبولهم من الله، فكلما كان العبد أرضى الله ﷻ كلما كانت دائرة شفاعته، وعمق شفاعته، والرفعة المترتبة على شفاعته أكبر.

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾^(٢)، هذه الآية الكريمة تضع كذلك قيوداً على الشفعاء وأن الشفيع لا بد أن يكون ممن رضي الله عنه ورضي له قولاً حتى يُعطى منزلة الشفاعة، ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٣).

والقول الذي يرضاه الله ﷻ، هو: القول بالحق، والشهادة بالحق والقول بالحق، هما: القول بالتوحيد، والشهادة بالتوحيد.

١. النجم: ٢٦.

٢. طه: ١٠٩.

٣. الزخرف: ٨٦.



والشَّهادة بالتَّوحيد: شهادة فكر وقلب وعمل، ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١).

[و]هناك تفسير يذهب إلى أنهم يعلمون بحال المشفوع له، وأنه ممن يرضى الله تبارك وتعالى أن يشفع له، النبي الذي يشفع لشخص، مطلوب فيه أن يعلم أن هذا الشخص ليس من المطرودين عن رحمة الله، وليس ممن لا يرضى الله ﷻ التشفع فيهم، وهذا المعنى صحيح كل الصحة وإن كان سياق الآية قد لا يميل إليه، وليس المقام مقام الشرح، إلا أننا قد لا نفقد نصوصاً أخرى بهذا المعنى.

وكما أن الشفيع له قيده وأن ليس كل شفيع مقبول الشفاعة، وإنما الشفيع المقبول هو من رضى الله له قوله، ومن شهد بالحق، ومن كان له عند الله ﷻ مقام من خلال توحيده وطاعته وعبادته؛ فكَذلك المستشفع له يواجه تقييداً، فليس الكل داخلاً تحت الشفاعة.

[ثانياً]: قيد المستشفع له:

[قال تعالى]: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾^(٢)، ويُسْتَظهر من الآية الكريمة ما عليه الشفعاء من مقام عظيم في طاعة الله، وعلم جمٍّ، وأدب رفيع في دعائهم وتوسُّلهم، فقد أعطوا علماً يُمَيِّزُ لهم من يرتضي الله، ومن لا يرتضي، وأدباً يمنعهم من أن يسألوا الشفاعة له من ربه سبحانه لمن لا يرضى، وهم مع ذلك خائفون أن يخرجوا في دعائهم وشفاعتهم عن حدِّ العبودية.

هذا النص كافٍ لإثبات أن الشفيع لا يشفع لكل أحد، إنما يشفع لنفرٍ ممن يدخلون تحت موافقة الله ﷻ بأن يشفع لهم، فالشفاعة أولاً وأخيراً بإرادة مستقلة من الله ﷻ.

١. الزخرف: ٨٦.

٢. الأنبياء: ٢٨.

فشرق، غرب، اطلب وسيلة إلى النجاة من غير أن تقصد الله أولاً فلن تجد.
والظاهر أن الشفعاء صفوة يخشون أن يميل قول لهم عن مرضاة الله، وكبار الشفعاء كالرسول الأعظم ﷺ ليس أخشى عندهم من أن تميل منهم كلمة عن مرضاة الله ﷻ.
عن حسين بن خالد قال: قلت للرضاء عليه السلام: «يا ابن رسول الله، - ما أعظم مستفتي يُقال له: يا ابن رسول الله عن قرب، وليس ابناً نسبياً فقط إنه ابنه بمعنى أنه من خزان علمه، ومن من يحملون بين جنبتيهما وحيه - فما معنى قول الله ﷻ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(١)؟ قال: «لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى اللَّهُ دِينَهُ»^(٢).

فصلب الموضوع أن نحصل على رضى من الله ﷻ ننجو به بعمل صالح ومغفرته.
وعن الصادق عليه السلام: «اعلموا أنه ليس يغني عنكم من الله أحد من خلقه شيئاً، لا ملكٌ مقربٌ، ولا نبيٌ مرسلٌ، ولا من دون ذلك، فمن سره أن تنفعه شفاعَةُ الشَّافِعِينَ عند الله، فليطلب إلى الله أن يرضى عنه»^(٣).

وكان روح شفاعَةِ رسول الله ﷺ مثلاً، هي أن الله تبارك وتعالى أراد أن يكرم نبيه، ويظهر له شأناً من بين خلقه، وكذلك بالنسبة لسائر الشفعاء.

قد يقرب ملكٌ شخصية معينة إلى جنبه ومعها شخصيات أخرى لم تقرب ويريد بذلك أن يظهر شأنه، وهكذا يفعل الفقيه، وغيره، والله ﷻ يريد أن يري مقاماً كبيراً لطاعة نبيه، وإخلاص نبيه، وعبودية نبيه، ويجعله شافعاً، وإلا فرحمة الله ﷻ هي الوسيلة

١. الأنبياء: ٢٨.

٢. الأمالي للصدوق: ٧ ح ٤.

٣. الكافي للكليني: ٨ / ١١ ح ١.



الحق، وليست رحمة الله محتاجة إلى ضم شيء آخر.

ونفهم من الآية والأحاديث أن هناك مستويات ساقطة لا تنفع معها شفاعة.

وتقول آية أخرى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^(١)، هناك فهم آخر، ولكن يمكن أن نفهمها بهذا الفهم وأنها أخرجت نفسها عن رحمة الله، بحيث لا تنفعها شفاعة بمعنى أنها قد منعت وحجبت نفسها عن رحمة الله ﷻ، ولأنه لا شفاعة بلا رحمة من الله ﷻ فالمحجوب عن الرحمة محجوب عن الشفاعة، ومن انتقاء الشفاعة عن عبد نعرف أن الرحمة محجوبة عنه لحجبها عن نفسه بنفسه، لسوء ما عمل وعظيم ما فرط.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ إذاً كل الوسائل مسدودة، لا يقبل منها عدل وهي الفدية، ولا يوجد ثمن يشتري به العبد العاصي الخارج عن رحمة الله نجاته أبداً، وضم شفاعة الشفعاء، وتوسط الوسطاء ساقط أيضاً ولا تنفعها شفاعة، وأى حول أو طول من أي جهة بعد منع رحمة الله لا يوجد، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

فالعبد هنا في الحياة الدنيا يمكن أن يوصد على نفسه في الآخرة كل أبواب النجاح، وفرص النجاة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾^{(٢) (٣)}.

١. البقرة: ١٢٣.

٢. البقرة: ٢٥٤.

٣. خطبة الجمعة (١١٢) ٢١ ربيع الأول ١٤٢٤هـ - ٢٣ مايو ٢٠٠٣م.



أصناف الناس بالنسبة إلى الشفاعة

”الناس ثلاثة:

١- ناجون برحمة الله بلا شفيع:

بلا إضافة شفيع من ملك أو من رسول أو نبي.

الآية الكريمة تقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

وقد جاء عن الرسول ﷺ فيما يتصل بالآية: «إِنَّمَا شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي فَأَمَّا الْمُحْسِنُونَ فَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ»^(٢).

فالحديث يقسم الناس إلى محسنين، وإلى منزلة غير منزلة المحسنين ويدخل فيهم أهل الكبائر، وأهل الكبائر محتاجون إلى الشفاعة، وأما من كان في منزلة المحسنين فما عليهم من سبيل، ومقابلة هذا النفي بإثبات الشفاعة لأهل الكبائر ظاهرة في نفي حاجة المحسنين إلى الشفاعة إضافة إلى رحمة الله ﷻ.

أما رحمة الله فهي شفيع كل إنسان، وكل عبد، لكن أن يدخل عنصر آخر مرد شفاعته إلى شفاعة رحمة الله لا حاجة له بالنسبة لمنزلة المحسنين فيما يظهر من الحديث.

وعن الصادق عليه السلام: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَشَفَعُ فِي الْمَذْنَبِ مِنْ شِيعَتِنَا فَأَمَّا الْمُحْسِنُونَ فَقَدْ نَجَاهُمُ اللَّهُ»^(٣)، والحديث صريح في نفي حاجة المحسنين إلى توسط حتى الأئمة عليهم السلام،

١. التوبة: ٩١.

٢. الأمالي للصدوق: ٧ ح ٤.

٣. بحار الأنوار للمجلسي: ٨ / ٥٩ ح ٧٧.



ومعهم الرسول ﷺ، ولو بضمّ الحديث السابق.

وعنه عليه السلام: «الْمُؤْمِنُ مُؤْمِنَانِ: فَمُؤْمِنٌ صَدَقَ بَعْدَهُ اللَّهُ وَوَفَّى بِشَرَطِهِ - وما أصعب يا أخوة أن نفي بشرط الله، ونفي بعهدهنا معه -، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ ﷻ: ﴿رَجُلٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾^(١)، فَذَلِكَ الَّذِي لَا تُصِيبُهُ أَهْوَالُ الدُّنْيَا، وَلَا أَهْوَالُ الْآخِرَةِ - المنفي من أهوال الدنيا قد يكون من نوع الأهوال التي تحول الحياة بلا معنى، لعدم قدرة النفس على هضم حكمة البلاء، وعلى الصبر على بلاء الله، ونحن نعرف أن المعصومين عليه السلام يرون في البلاء نعمة، والذي يرى في البلاء نعمة لا تصيبه أهوال الدنيا التي تسطو على النفس في استقرار إيمانها وطمأنينتها بالله، فلربما الأهوال المنفية هي هذا النوع من الأهوال، أما أهوال البدن، وكوارث الدنيا المعروفة فهي تصيب الأنبياء كما تصيب غيرهم -، وَذَلِكَ مِمَّنْ يَشْفَعُ وَلَا يَشْفَعُ لَهُ - هذا واضح جدا في نفي أن هذا الإنسان يحتاج إلى من يشفع له - وَمُؤْمِنٌ كَخَامَةِ الزَّرْعِ - الزرعة الطرية ذات الساق اللين الذي يتمايل بسبب الريح -، تَعُوجُ أحياناً وَتَقُومُ أحياناً، فَذَلِكَ مِمَّنْ تُصِيبُهُ أَهْوَالُ الدُّنْيَا وَأَهْوَالُ الْآخِرَةِ، وَذَلِكَ مِمَّنْ يَشْفَعُ لَهُ وَلَا يَشْفَعُ^(٢)». فمؤمن يشفع ولا يشفع له، ومؤمن يشفع له ولا يشفع، والناس مستويات، هذا القسم الأول وهم الناجون برحمة الله بلا شفيع إضافي، وليست هناك من شفاعة إضافية مستقلة، إنما كل شفاعة أخرى هي كما سبق من شفاعة رحمة الله ﷻ.

٢- ناجون بشفيع بعد رحمة الله ولا شفيع بدون رحمته:

١. الأحزاب: ٢٣.

٢. الكافي للكليني: ٢ / ٢٤٨ ح ١.

عن الرسول ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ شَفَاعَةٌ، وَإِنِّي خَبَاتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، ولكن لا يغرنك هذا فقد تأتي الشفاعة متأخرة بعد عذاب شديد، ودهور في آلام النار.

وعن الرسول ﷺ: «وَأَمَّا شَفَاعَتِي فَفِي أَصْحَابِ الْكِبَائِرِ مَا خَلَا أَهْلَ الشِّرْكِ وَالظُّلْمِ»^(٢).

٣- لا نجاة لهم:

﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾^(٣).

فهذا قسم لا تناله شفاعاة أحد ممن يشفعهم الله فيمن رضى من عباده فلا سبيل لهم إلا النار، وكفى بها خزيا وعذابا.

عن الرسول ﷺ: «رَجُلَانِ لَا تَنَالُهُمَا شَفَاعَتِي: صَاحِبُ سُلْطَانٍ عَسُوفٌ غَشُومٌ، وَغَالٍ فِي الدِّينِ مَارِقٌ»^(٤).. السلطان يظلم، ويرتكب من أذى الناس ما يرتكب وقد أقام نفسه آميناً على الأموال والدماء والأعراض.

أميناً على الدنيا والآخرة، وإنما يكون قد أهلك نفسه، وهو ممن لا تناله شفاعاة رسول الله ﷺ على سعتها، ومن لم تنله شفاعاة رسول الله ﷺ، لا تناله شفاعاة أمير المؤمنين عليه السلام، إذا تصورنا شفاعاة أوسع من شفاعتهم عليه السلام، جاءت شفاعاة رسول الله ﷺ،

١. الأماي للطوسي: ٣٨٠ ح ٨١٥.

٢. الخصال للصدوق: ٢ / ٣٥٥ ح ٣٦.

٣. المدر: ٤٦-٤٨.

٤. من لا يحضره الفقيه للصدوق: ١ / ٦٣ ح ٩٣.



فمن لم تنله شفاعته ﷺ، فلا استمساك له بشيء إلا أن يشاء الله، لأن عدم شمول شفاعته رسول الله ﷺ له معناه، أنه قد أخرج نفسه عن رحمة الله التي أعطت الشفاعة الواسعة لرسول الله ﷺ.

«وَعَالٍ فِي الدِّينِ مَارِقٌ»^(١): فلا تزيد في الدين، لأن التزيد في الدين كالانقاص منه. «لَا يَنَالُ شَفَاعَتِي مَنْ اسْتَخَفَّ بِصَلَاتِهِ»^(٢): ليس من ترك صلاته فقط، بل من استخفَّ بصلاته كذلك، لم يتعامل معها التعامل اللائق بها ولو في الحد الأدنى.

«لَا يَنَالُ شَفَاعَتِي مَنْ اسْتَخَفَّ بِصَلَاتِهِ وَلَا يَرُدُّ عَلَيَّ الْحَوْضُ... لَا وَاللَّهِ»^(٣)، [ورد عن الرسول ﷺ، يقسم هنا بأن المستخف بصلاته لا يرد عليه الحوض، ولنا أن نقارن بين اهتمامنا بإعداد مقالة نلقيها، وبين صلاة نؤديها، وبين زيارة نتهيا لها لأحد الأكابر، وبين قدوم لمسجد أو جامع لنقابل الله بقلوبنا، فليدرس أحدنا نفسه.

عن مولانا الصادق عليه السلام، لما حضرته الوفاة، أنه أمر باجتماع قرابته حوله، وقال: «إِنَّ شَفَاعَتَنَا لَا تَنَالُ مُسْتَخَفًّا بِالصَّلَاةِ»^(٤).

وعن علي عليه السلام: «مَنْ كَذَّبَ بِشَفَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ تَنْلَهُ»^(٥). ما معنى لم تنله؟ [معناه أن] شفاعته رسول الله ﷺ ممتدة الامتداد الذي هو من امتداد رحمة الله على أن

١. المصدر نفسه.

٢. الكافي للكليني: ٦ / ٤٠٠ ح ١٩.

٣. المصدر نفسه.

٤. من لا يحضره الفقيه للصدوق: ١ / ٢٠٦ ح ٦١٨.

٥. عيون أخبار الرضا (ع) للصدوق: ٢ / ٦٦ ح ٢٩٢.

رحمة الله ﷻ لا تحد، وكل شيء من دونها محدود، لكن النفس قد تسقط عن مستوى الاستفادة، [كـ] المطر ينزل وكل الأرض تستفيد منه، لكن الأرض المحروقة قد لا تستفيد من المطر، أو الصخر الأصم، قد لا يستفيد من المطر أن تنبتق من خلاله الحياة، ونفوس تكون قد سقطت فلم تعد تستقبل من فيوضات الله فيضا، ولا من رحمته رحمة.

وعن الرسول ﷺ: «مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِشَفَاعَتِي فَلَا أَنَالَهُ اللَّهُ شَفَاعَتِي»^(١). هذا الشافع العظيم، يدعو على من لم يؤمن بشفاعته، بأن لا ينيل الله ذلك الإنسان شفاعته^(٢).

أنواع الشفاعة

النوع الأول: شفاعاة النجاة:

”هناك شفاعاة النجاة: شفاعاة ينجو بها العبد من النار، ويزحزح بها عن جهنم، ومن زحزح عن النار فقد فاز فوزاً عظيماً“^(٣).

النوع الثاني: شفاعاة الرفع:

”وهناك شفاعاة أخرى لمن كان حظه الجنة، وهذه الشفاعاة هي شفاعاة رفع الدرجات، فتفاوت كبير في الجنة بين درجة وأخرى، والتفاوت هناك أكبر منه هنا في الدرجات. عن الرسول ﷺ: «إِنَّمَا شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكِبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي فَأَمَّا الْمُحْسِنُونَ فَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ»^(٤). قرأنا هذا النص قبل، ويفهم منه: أن فئة من الناس هي فئة المحسنين، لا تحتاج

١. الأمالي للصدوق: ٧ ح ٤.

٢. خطبة الجمعة (١١٣) ٢٨ ربيع الأول ١٤٢٤هـ ٣٠ مايو ٢٠٠٣م.

٣. خطبة الجمعة (١١٤) ٥ ربيع الثاني ١٤٢٤هـ ٦ يونيو ٢٠٠٣م.

٤. الأمالي للصدوق: ٧ ح ٤.



إلى شفاعة أحد من شفعاء الأرض والسماء، وأن هذه الفئة لها الجنة بما كسبت من عمل صالح بعد رحمة الله، لكن مع هذا نقرأ عن الصادق عليه السلام: «مَا أَحَدٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، إِلَّا وَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، فإذا كانت فئة من الناس لا تحتاج إلى شفاعة لدخول الجنة، فما معنى أن الأولين والآخرين محتاجون إلى شفاعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؟! لا بد أن يكون موضوع هذا الشفاعة غير دخول أصل الجنة، فالشفاعة الثانية التي يحتاجها الأولون والآخرين هي شفاعة رفع الدرجات.

عن عبيدة بن زراراة قال: «سُئِلَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنِ الْمُؤْمِنِ، هَلْ لَهُ شَفَاعَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: هَلْ يَحْتَاجُ الْمُؤْمِنُ إِلَى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ خَطَايَا وَذُنُوبًا، وَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَحْتَاجُ إِلَى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَوْمَئِذٍ»^(٢).

فالحديث هنا يعطي للمؤمن الشفاعة، وأنه يشفع في غيره، فواضح جداً أن هذا الذي يشفع في غيره، هو غير محتاج إلى شفاعة أحد في دخول أصل الجنة، وأهل النار لا يمكن أن يشفعوا في غيرهم ليدخلوا الجنة، فهذا رجل ليس من أهل النار لكن مع ذلك يقول عنه الحديث أنه يحتاج إلى شفاعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فما هو مستغن فيه عن الشفاعة هو دخول أصل الجنة، وما هو محتاج فيه إلى الشفاعة هو رفع الدرجة.

صحيح أن هذا المؤمن استحق برحمة الله تعالى الجنة ابتداءً، لكن شوائب تمنعه من أن تكون درجته مرتفعة، وهذه الشوائب تحتاج إلى شفاعة لرفع الدرجة.. «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِينَ

١. المحاسن للبرقي: ١ / ١٨٤ ح ١٨٦.

٢. تفسير العياشي للعياشي: ٢ / ٣١٤ ح ١٥٠.

خَطَايَا وَذُنُوبًا، وَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَحْتَاجُ إِلَى شَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَوْمَئِذٍ»^(١). هذه الفقرة في سياقها تعني: أن هذه الخطايا والذنوب ليست مانعة من أصل دخول الجنة، وإنما منعها من ارتفاع الدرجة^(٢).

أصناف الشفعاء

الصنف الأول: نفسك:

فـ"كن شفيع نفسك، [فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال]: "إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوَسَّلَ بِهِ الْمُتَوَسِّلُونَ إِلَى اللَّهِ ﷻ: الْإِيمَانُ بِهِ، وَبِرَسُولِهِ ﷺ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ فَإِنَّهُ ذِرْوَةُ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ"^(٣). لا تبحث عن وسيلة لنجاتك في أحد قبل أن تبحث عنها في عملك الصالح، وتقواك وطاعتك لله ﷻ واجتنابك معاصيه.

[وعنه عليه السلام أنه قال]: «شَافِعُ الْعَمَلِ بِالْحَقِّ وَلِزُومُ الصِّدْقِ»^(٤)، وكأنه الشافع الوحيد، فهنا أسلوب قصر، وكأنك تسأل ما شافع الخلق؟ فيأتيك الجواب: شافع الخلق، هو: العمل بالحق، ولزوم الصدق، وفعلا هذا هو الحق كما سيأتي بيانه.

[وعنه عليه السلام أنه قال]: «لَا شَفِيعَ أَنْجَحُ مِنَ التَّوْبَةِ»^(٥). منبع الفضل كله هو الله سبحانه:

١. المصدر نفسه.

٢. خطبة الجمعة (١١٤) ٥ ربيع الثاني ١٤٢٤هـ ٦ يونيو ٢٠٠٣م.

٣. نهج البلاغة للرضي: ١٦٣ ح ١١٠.

٤. عيون الحكم والمواعظ للبيهي: ٢٩٧ ح ٥٣٠٦.

٥. الكافي للكليني: ٨ / ١٩ ح ٤.



﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾^(١)، ولا توفيق إلا من عنده، ولا من هداية إلا من فضله، والعمل الصالح بتسديده ورحمته، هذا فهم، نضيف إليه هذا الفهم الآخر: نحن نختار مستقبلنا، وبما مكننا الله وبرحمته منه نصير إلى الجنة، ونفتح لأنفسنا باب الشفاعة، وبتفريط منّا، ووضع النعم في غير موضعها نفتح على أنفسنا أبواب النار، ونغلق عنها أبواب النجاة، ونسقطها عن مستوى الشفاعة، فلا تشملها شفاعة محمد ﷺ، وما هو أدنى منها، فلا نُشفع ولا ننال من أحد شفاعة.

فمصيرك لا يصنعه غيرك من خلق الله، حتى الشفعاء، وإنما أنت المسؤول الأول عن مستقبلك، وباختيارك، وعملك تحدد بعد إرادة الله أن تكون من الشفعاء، أو ممن ينجو بالشفاعة، أو ممن لا نجاة له ولا يُشفع فيه شفيع، تقول الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾^(٢).. إذا ضلّ العبد فقد الشفيع يوم القيامة، والصديق الحميم.

وانظر تعبير: «شَافِعُ الْخَلْقِ الْعَمَلُ بِالْحَقِّ وَلُزُومُ الصِّدْقِ»^(٣)، ودلالة هذا التعبير، فهو أسلوب من أساليب القصر، والحديث يريد أن يقول: إن أبواب النجاة عنك مسدودة، وأبواب الشفاعة مغلقة، ما لم تتحرك أنت بإرادتك في اتجاه سبيل النجاة، ومن أجل فتح باب الشفاعة.

وعن الرسول ﷺ: «إِنَّ أَقْرَبَكُمْ مِنِّي غَدَاً، وَأَوْجَبُكُمْ عَلَيَّ شَفَاعَةً: أَصْدَقُكُمْ لِسَانًا،

١. الزمر: ٤٤.

٢. الشعراء: ٩٩-١٠١.

٣. عيون الحكم والمواعظ لليثي: ٢٩٧ ح ٥٣٠٦.



وَأَدَّاءُكُمْ لِلْأَمَانَةِ - أكثركم أداءاً للأمانة -، وَأَحْسَنُكُمْ خُلُقًا، وَأَقْرَبُكُمْ مِنَ النَّاسِ^(١)، وهو فيما يظهر: قرب التواضع، وقضاء الحاجات، والمشاركة في رفع المعاناة^(٢).

الصنف الثاني والثالث والرابع: الأنبياء والعلماء والشهداء:

"هؤلاء شفعا، [ف]عن الرسول ﷺ:

(ثَلَاثَةٌ يَشْفَعُونَ إِلَى اللَّهِ ﷻ فَيُشَفَّعُونَ - تقبل شفاعتهم فيمن شفعا له -: الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ^(٣).. أين الأئمة عليهم السلام؟ أول العلماء، هم: الأوصياء، وكل نبي أو رسول مقدم على وصيه.

حديث آخر عنه ﷺ: «الْأئِمَّةُ مِنْ وَلَدِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَنْ أَطَاعَهُمْ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ - والتفسير واضح لأنهم لا يدلون إلا على طاعة الله، ولأن طاعتهم من أمر الله -، وَمَنْ عَصَاهُمْ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ ﷻ، هُمُ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى، وَهُمْ الْوَسِيلَةُ إِلَى اللَّهِ ﷻ»^(٤).. وسيلة القربة، إذ أن طريقتهم (صلوات الله وسلامه عليهم)، معراج الكمال والقرب إلى الله، ومن سلك درجهم قرب إلى الله ﷻ، وكانوا شفعا له يوم القيامة.

[و]عن الباقر عليه السلام: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَشْفَعُ فِي مِثْلِ رِبِيعَةٍ وَمُضَرٍّ - المؤمنون على منازل، ومن منازلهم أن أحدهم يشفع في مثل ربيعة ومضر، والتعبير هنا يحمل أكثر من تأكيد -

١. الأمالي للصدوق: ٥٠٨ ح ٥.

٢. خطبة الجمعة (١١٤) ٥ ربيع الثاني ١٤٢٤ هـ - ٦ يونيو ٢٠٠٣ م.

٣. الحصال للصدوق: ١ / ١٥٦ ح ١٩٧.

٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق: ٢ / ٥٨ ح ٢١٧.



، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَشْفَعُ حَتَّىٰ لِحَادِمِهِ وَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَقُّ خِدْمَتِي، كَانَ يَقِينِي الْحَرَّ وَالْبَرْدَ»^(١)..
 هذا العبد كان ينفعني فله علي حق الخدمة، فارحمه رب أن خدّم عبدك المؤمن المطيع لك.
 وعنه عليه السلام: «إِنَّ أَدْنَىٰ الْمُؤْمِنِينَ شَفَاعَةً، لَيَشْفَعُ لثَلَاثِينَ إِنْسَانًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ أَهْلُ
 النَّارِ: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾»^(٢)، كأنهم يلتفتون يميناً وشمالاً وفي
 كل الجهات، يتطلّعون إلى شفيع فلا يجدون، فيقولون: فما لنا من شافعين ولا صديق
 حميم»^(٤).

«اللهم صلّ على محمد وآل محمد، واجعلنا والمؤمنين والمؤمنات من الأتقياء ما أحييتنا،
 والمرحومين المعافين ما أبقيتنا، وفي السعداء إذا توفيتنا، واغفر لنا ولكل مؤمن ومؤمنة من
 الأحياء والأموات ولوالدينا ولأرحامنا وجيراننا ومن له حق خاص علينا من أهل الإيمان
 والإسلام يا رحيم يا كريم»^(٥).

١. تفسير القمي للقمي: ٢ / ٢٠٢.

٢. الشعراء: ٩٩-١٠١.

٣. الكافي للكليني: ٨ / ١٠١ ح ٧٢.

٤. خطبة الجمعة (١١٤) ٥ ربيع الثاني ١٤٢٤هـ ٦ يونيو ٢٠٠٣م.

٥. خطبة الجمعة (٩١) ٢٣ شوال ١٤٢٣هـ الموافق ٢٧-١٢-٢٠٠٢م.

المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- ابن شعبة الحراني: أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين (ق ٤ هـ) - تحف العقول عن آل الرسول ﷺ - تحقيق: علي أكبر الغفاري - مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين - ط ٢ - ١٤٠٤ هـ - ١٣٦٣ ش - قم المشرفة.
- ٣- ابن الأشعث: محمد بن محمد (ت ٤ هـ) - الجعفریات (الأشعثيات) - مكتبة النينوى الحديثة - ط ١ - طهران.
- ٤- الجعفي: المفضل بن عمر - التوحيد - تحقيق: كاظم المظفر - مؤسسة الوفاء - ط ٢ - ١٤٠٤ / ١٩٨٤م - بيروت / لبنان.
- ٥- الشعيري: محمد بن محمد (ت ٦ هـ) - جامع الأخبار - المطبعة الحيدرية - ط ١ - النجف.
- ٦- الليثي: علي بن محمد الواسطي (ت ٦ هـ) - عيون الحكم والمواعظ - تحقيق: حسين الحسيني البيرجندي - دار الحديث - ١٤١٨ هـ - قم.
- ٧- الرضي: محمد بن حسين (ت ٤٠ هـ) - نهج البلاغة - تحقيق: صبحي الصالح - ط ١ - ١٣٨٧ / ١٩٦٧م - بيروت.
- ٨- الخليل: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) - العين - تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي - مؤسسة دار الهجرة - ط ٢ - ١٤٠٩ هـ - إيران - قم.
- ٩- ابن حنبل: أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) - مسند أحمد - دار صادر - بيروت - لبنان.
- ١٠- الحميري: القمي (ت ٣٠٤ هـ) - قرب الاسناد - تحقيق: مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث - مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث - ط ١ - ١٤١٣ هـ - قم.

- ١١- الشهيد زيد: زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام (ت ١٢٢هـ) - مسند زيد بن علي - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - لبنان.
- ١٢- البرقي: أحمد بن محمد بن محمد بن خالد (ت ٢٧٤هـ) - المحاسن - تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني (المحدث) - دار الكتب الإسلامية - ١٣٧٠هـ - ١٣٣٠ ش - طهران.
- ١٣- الكليني: محمد بن يعقوب بن إسحاق (ت ٣٢٩هـ) - الكافي - تحقيق: علي أكبر غفاري ومحمد آخوندي - دار الكتب الإسلامية - ١٤٠٧هـ - طهران.
- ١٤- الصدوق: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ) - التوحيد - تحقيق: السيد هاشم الحسيني الطهراني - مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين - قم.
- ١٥- القمي: علي بن إبراهيم (ت ٣٢٩هـ) - تفسير القمي - تحقيق: السيد طيب الموسوي الجزائري - مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر - ط ٣ - صفر ١٤٠٤هـ - قم - إيران.
- ١٦- الصدوق: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ) - كمال الدين وتمام النعمة - تحقيق علي أكبر غفاري - الإسلامية - ١٣٩٥هـ - طهران.
- ١٧- الصدوق: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ) - الأمالي - تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - ط ١ - ١٤١٧هـ - قم.
- ١٨- الصدوق: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ) - الخصال - تحقيق: علي أكبر الغفاري - مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين - ١٤٠٣هـ - ١٣٦٢ ش - قم.
- ١٩- الصدوق: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ) - صفات الشيعة - كانون انتشارات عابدي - تهران.
- ٢٠- المفيد: محمد بن محمد (ت ٤١٣هـ) - الأمالي - تحقيق: أستاذ ولي، حسين وغفاري علي أكبر - نشر مؤتمر الشيخ المفيد - ١٤١٣هـ - قم.
- ٢١- الصدوق: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ) - عيون أخبار الرضا عليه السلام - تحقيق: مهدي اللاجوردي - نشر جهان - ١٤٢٠هـ - طهران.
- ٢٢- المفيد: محمد بن محمد (ت ٤١٣هـ) - الفصول المختارة - تحقيق: علي ميرشرفي - نشر مؤتمر الشيخ



المفيد - ١٤١٣ هـ - قم.

- ٢٣- الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين ابن محمد بن الفضل (ت ٤٢٥ هـ) - مفردات ألفاظ القرآن - تحقيق: صفوان عدنان داوودي - ط ٢ - ١٤٢٧ هـ - سليمانزاده - طليعة النور.
- ٢٤- الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠ هـ) - الأمالي - تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية / مؤسسة البعثة - دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع - ط ١ - ١٤١٤ هـ - قم.
- ٢٥- النيسابوري: محمد بن الفتال الشهيد (ت ٥٠٨ هـ) - روضة الواعظين - تحقيق: السيد محمد مهدي السيد حسن الخرساني - منشورات الشريف الرضي - قم.
- ٢٦- الطبرسي: الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨ هـ) - إعلام الوري بأعلام الهدى - الإسلامية - ط ٣ - ١٣٩٠ هـ.

- ٢٧- الآمدي: عبد الواحد بن محمد التميمي (ت ٥٥٠ هـ) - غرر الحكم ودرر الكلم - تحقيق: السيد مهدي رجائي - دار الكتاب الإسلامي.
- ٢٨- الراوندي: قطب الدين (ت ٥٧٣ هـ) - الدعوات (سلوة الحزين) - تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي (ع) - مطبعة أمير - ط ١ - ١٤٠٧ هـ - قم المقدسة.
- ٢٩- ورام: أبو الحسين ورام بن أبي فراس المالكي الأشتري (ت ٦٠٥ هـ) - تنبيه الخواطر ونزهة النواظر المعروف بمجموعة ورام - مكتبة الفقيه - ط ١ - ١٤١٠ هـ - قم.
- ٣٠- ابن طاووس: نقيب النقباء السيد أبو القاسم رضي الدين علي بن موسى بن محمد الطاووس (ت ٦٦٤ هـ) - مهج الدعوات ومنهج العبادات - كتابخانه سنائي.
- ٣١- الحلبي: رضي الدين علي بن يوسف بن المطهر (ت ٧٠٣ هـ) - العدد القويّة لدفع المخاوف اليومية - تحقيق: مهدي الرجائي، ومحمود المرعشي - مكتبة آية الله المرعشي النجفي - قم.
- ٣٢- ابن منظور: أبو لفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري (ت ٧١١ هـ) - لسان العرب - نشر أدب الحوزة - محرم ١٤٠٥ هـ.
- ٣٣- الشهيد الأول: محمد بن مكي (ت ٧٨٦ هـ) - الدرة الباهرة من الأصداف الطاهرة - تحقيق: عبد الهادي مسعودي - منشورات الزائر - قم.

- ٣٤- الإحسائي: ابن أبي جمهور (ت ٨٨٠ هـ) - عوالي اللئالي - تحقيق: الحاج آقا مجتبی العراقي - سيد الشهداء - ط ١ - ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م - قم.
- ٣٥- النيلي: بهاء الدين علي بن عبد الكريم علي بن عبد الكريم النيلي النجفي (ت ٨٠٣ هـ) - سرور أهل الايمان في علامات ظهور صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف - تحقيق: قيس العطار - نشر دليل ما - إيران، قم.
- ٣٦- المتقي الهندي: علي الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي (ت ٩٧٥ هـ) - كنز العمال - مؤسسة الرسالة - ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م - بيروت - لبنان.
- ٣٧- البحراني: السيد هاشم بن سليمان (ت ١١٠٧ هـ) - حلية الأبرار في أحوال محمد وآله الأطهار عليهم السلام - مؤسسة المعارف الإسلامية - ط ١ - ١٤١١ هـ - قم.
- ٣٨- المجلسي: (ت ١١١١ هـ) بحار الأنوار - تحقيق: يحيى العابدی - ط ٢ - ١٤٠٣ / ١٩٨٣ م - مؤسسة الوفاء - بيروت / لبنان.
- ٣٩- الطباطبائي: السيد محمد حسين (ت ١٤٠٢ هـ) - تفسير الميزان - مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين - قم المشرفة.
- ٤٠- الريشهري: محمد - ميزان الحكمة - ط ١ - ١٤١٦ هـ - دار الحديث.
- ٤١- الشيرازي: ناصر مكارم - الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل - قسم الترجمة والنشر لمدرسة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) - ١٤٠٤ هـ - قم.
- ٤٢- الميانجي: علي الأحدي - مكاتيب الرسول ﷺ - دار الحديث - ط ١ - ١٩٩٨ م.
- ٤٣- خطب الجمعة الآتي ذكرها المأخوذة من موقع: <http://almuqawim.net>
- خطبة الجمعة (٤) ٢ صفر ١٤٢٢ هـ - ٢٧-٤-٢٠٠١ م..
 - خطبة الجمعة (٥) ١٠ صفر ١٤٢٢ هـ - ٤-٥-٢٠٠١ م.
 - خطبة الجمعة (٦) ١٧ صفر ١٤٢٢ هـ - ١١-٥-٢٠٠١ م.
 - خطبة الجمعة (٧) ٢٤ صفر ١٤٢٢ هـ - ١٨-٥-٢٠٠١ م.
 - خطبة الجمعة (١٠) ١٥ ربيع الأول ١٤٢٢ هـ - ٨-٦-٢٠٠١ م.



- خطبة الجمعة (١١) ٢٣ ربيع الأول ١٤٢٢هـ - ١٥-٦-٢٠٠١م.
- خطبة الجمعة (٢٣) ١٩ جمادى الثاني ١٤٢٢هـ - ٧-٩-٢٠٠١م.
- خطبة الجمعة (٩١) ٢٣ شوال ١٤٢٣هـ الموافق ٢٧-١٢-٢٠٠٢م.
- خطبة الجمعة (٩٦) ٢٨ ذي القعدة ١٤٢٣هـ الموافق ٣١ يناير ٢٠٠٣م.
- خطبة الجمعة (١١٠) ٧ ربيع الأول ١٤٢٤هـ ٩ مايو ٢٠٠٣م.
- خطبة الجمعة (١١١) ١٤ ربيع الأول ١٤٢٤هـ ١٦ مايو ٢٠٠٣م.
- خطبة الجمعة (١١٢) ٢١ ربيع الأول ١٤٢٤هـ ٢٣ مايو ٢٠٠٣م.
- خطبة الجمعة (١١٣) ٢٨ ربيع الأول ١٤٢٤هـ ٣٠ مايو ٢٠٠٣م.
- خطبة الجمعة (١١٤) ٥ ربيع الثاني ١٤٢٤هـ ٦ يونيو ٢٠٠٣م.
- خطبة الجمعة (٣٨٠) ١٥ شعبان ١٤٣٠هـ - ٧ أغسطس ٢٠٠٩م.
- خطبة الجمعة (٤٠٤) ٨ جمادى الأولى ١٤٣١هـ - ٢٣ أبريل ٢٠١٠م.
- خطبة الجمعة (٤٠٥) ١٥ جمادى الأولى ١٤٣١هـ - ٣٠ أبريل ٢٠١٠م.
- خطبة الجمعة (٤٠٦) ٢٢ جمادى الأولى ١٤٣١هـ - ٧ مايو ٢٠١٠م.
- خطبة الجمعة (٤٠٧) ٢٩ جمادى الأولى ١٤٣١هـ - ١٤ مايو ٢٠١٠م.
- خطبة الجمعة (٤٠٨) ٦ جمادى الثاني ١٤٣١هـ - ٢١ مايو ٢٠١٠م.
- خطبة الجمعة (٤٠٩) ١٣ جمادى الثاني ١٤٣١هـ - ٢٨ مايو ٢٠١٠م.
- خطبة الجمعة (٤١٠) ٢٠ جمادى الثاني ١٤٣١هـ - ٤ يونيو ٢٠١٠م.
- خطبة الجمعة (٤١١) ٢٧ جمادى الثاني ١٤٣١هـ - ١١ يونيو ٢٠١٠م.
- خطبة الجمعة (٤١٢) ٥ رجب ١٤٣١هـ - ١٨ يونيو ٢٠١٠م.
- خطبة الجمعة (٤١٣) ١٢ رجب ١٤٣١هـ - ٢٥ يونيو ٢٠١٠م.
- خطبة الجمعة (٤١٤) ١٩ رجب ١٤٣١هـ - ٢ يوليو ٢٠١٠م.
- خطبة الجمعة (٤١٥) ٢٦ رجب ١٤٣١هـ - ٩ يوليو ٢٠١٠م.
- خطبة الجمعة (٤١٦) ٣ شعبان ١٤٣١هـ - ١٦ يوليو ٢٠١٠م.
- خطبة الجمعة (٤٣٠) ١٩ ذو الحجة ١٤٣١هـ - ٢٦ نوفمبر ٢٠١٠م.
- خطبة الجمعة (٤٣٥) محرم الحرام ١٤٣١هـ - ٣١ ديسمبر ٢٠١٠م.



- خطبة الجمعة (٤٣٦) ٢ صفر ١٤٣٢هـ - ٧ يناير ٢٠١١م.
- خطبة الجمعة (٤٣٧) ٩ صفر ١٤٣٢هـ - ١٤ يناير ٢٠١١م.
- خطبة الجمعة (٤٣٨) ٧ ربيع الأول ١٤٣٢هـ - ١١ فبراير ٢٠١١م.
- خطبة الجمعة (٤٣٩) ١٤ ربيع الأول ١٤٣٢هـ - ١٨ فبراير ٢٠١١م.
- خطبة الجمعة (٤٤٠) ٢١ ربيع الأول ١٤٣٢هـ - ٢٥ فبراير ٢٠١١م.
- خطبة الجمعة (٤٤١) ٢٨ ربيع الأول ١٤٣٢هـ - ٤ مارس ٢٠١١م.
- خطبة الجمعة (٤٤٢) ٥ ربيع الثاني ١٤٣٢هـ - ١١ مارس ٢٠١١م.
- خطبة الجمعة (٤٤٣) ١٢ ربيع الثاني ١٤٣٢هـ - ١٨ مارس ٢٠١١م.
- خطبة الجمعة (٤٤٥) ٢٦ ربيع الثاني ١٤٣٢هـ - ١ أبريل ٢٠١١م.
- خطبة الجمعة (٤٤٦) ٣ جمادى الأول ١٤٣٢هـ - ٨ أبريل ٢٠١١م.
- خطبة الجمعة (٤٤٧) ١٠ جمادى الأول ١٤٣٢هـ - ١٥ أبريل ٢٠١١م.
- خطبة الجمعة (٤٤٨) ١٧ جمادى الأول ١٤٣٢هـ - ٢٢ أبريل ٢٠١١م.
- خطبة الجمعة (٤٤٩) ٢٥ جمادى الأول ١٤٣٢هـ - ٢٩ أبريل ٢٠١١م.
- خطبة الجمعة (٤٥٠) ٢ جمادى الثاني ١٤٣٢هـ - ٦ مايو ٢٠١١م.
- خطبة الجمعة (٤٥٦) ١٤ رجب ١٤٣٢هـ - ١٧ يونيو ٢٠١١م.
- خطبة الجمعة (٥٨٥) ١٥ ربيع الأول ١٤٣٥هـ - ١٧ يناير ٢٠١٤م.
- خطبة الجمعة (٥٩٠) ٢١ ربيع الآخر ١٤٣٥هـ - ٢١ فبراير ٢٠١٤م.
- خطبة الجمعة (٥٩١) ٢٨ ربيع الآخر ١٤٣٥هـ - ٢٨ فبراير ٢٠١٤م.
- خطبة الجمعة (٥٩٢) ٥ جمادى الأول ١٤٣٥هـ - ٧ مارس ٢٠١٤م.
- خطبة الجمعة (٥٩٣) ١٢ جمادى الأول ١٤٣٥هـ - ١٤ مارس ٢٠١٤م.
- خطبة الجمعة (٥٩٤) ١٩ جمادى الأول ١٤٣٥هـ - ٢١ مارس ٢٠١٤م.
- خطبة الجمعة (٥٩٥) ٢٦ جمادى الأول ١٤٣٥هـ - ٢٨ مارس ٢٠١٤م.
- خطبة الجمعة (٥٩٦) ٤ جمادى الآخر ١٤٣٥هـ - ٤ أبريل ٢٠١٤م.
- خطبة الجمعة (٥٩٧) ١١ جمادى الآخر ١٤٣٥هـ - ١١ أبريل ٢٠١٤م.
- خطبة الجمعة (٥٩٨) ١٨ جمادى الآخر ١٤٣٥هـ - ١٨ أبريل ٢٠١٤م.